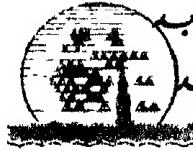


تاریخ
نابولئون الأول

تاريخ نابوليون الأول

وهو يبحث في مولد نابوليون وحداثته . وارتقائه في سلم المناصب العسكرية . وقبضه على ازمة الاحكام
في فرنسا . وارتقائه الى عرش الامبراطورية التي انشأها . وذكر المعارك المشهورة التي خاضها
وبيان الاسباب الكبيرة والاصلاحات الخفية التي باشرها في بلاده . ثم ما كان من تغيير
الدم على عرشه . وانده حاربه امام اوربا المتآبئة عليه . واستسلامه الى اعدائه الانكليز
وارتدادهم اليه الى جزيرة القديسة هيلانة في المحيط الاطلسيكي حيث قضى
بعد ستة اعوام . قضت احا في غيبه بريج وامراضها
ومنذ الكتاب مقسوم الى ثلاثة اجزاء : الاول يقطن ما كان
من نابوليون من مولده الى آخر التفصيلة والثاني يدور على
عهد الامبراطورية . والثالث يبحث في ما وقع له بعد
مقطعه عن العرش حتى وفاته . وما كان بعد
ذلك من نعتل رفاته .



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Alexandria, Egypt

الياس طنبوش الحويك

المجلد الاول

منشورات

دار ومكتبة الهلال

ص ٥٠٣ - ١٥

جَمِيعُ الْحَقِّ مَحْفُوظَةٌ
١٩٨١

كلمة المؤلف

لما كنت في المدرسة أحصل العلم قرأت التاريخ على أستاذ فاضل شهير مشهود له بسعة المعارف التاريخية . ولا يخفى أن التلميذ في المدرسة يعنى بنوع خاص بالفرع الذى يشعر بأن أستاذه بارع فيه وميال اليه وتكون غايته من ذلك في غالب الاحيان إرضاء أستاذه واستمالته اليه وكيف كان الامر فان ذلك لا يخلو من فائدة تعود عليه بالحظ الجليل من المغمم

وفي أثناء الدراسة وتهيئة مواد الامتحان النهائي درست درساً دقيقاً تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى وما أحدثته من التحول في الهيئة الاجتماعية الحديثة وأسهمت في التنقيب عن مساوئها وفوائدها ثم قرأت تاريخ نابوليون بونابرت وما أجراه في بلاده وما أداه لها من الخدم الخطيرة باستغلاله الثورة التي قلبت بلاده ظهراً لبطن ورأساً على عقب فأكبرت في نابوليون دهاءه العظيم الذي كان له أكر نصير على إخماد نائرة الثورة وتشييد هيئة اجتماعية جديدة في بلاده على أنقاض الهيئة الاجتماعية القديمة البالية التي كانت قائمة على قواعد الاستبداد والظلم فهدمتها معاول المصلحين الذين لم يبق منزع في قوس صبرهم على تحمل الجور والفساد

وكانت مبادئ الثورة الفرنسية بمثابة نواة زرعت في الافئدة فأورشت ونمت وامتدت غصونها الى كل الجهات ويمكن القول بلا مجازفة وبغير تحذرة لومة لائم أن الثورة الفرنسية تعد عملاً من أعظم الاعمال المجيدة التي أنعمها البشر وحسبها أن يكون من فوائدها اعلان حقوق الانسان بحيث صار كل فرد يعلم أنه مجبول من الطبيعة نفسها المجبول منها غيره . ولم يبق احترام الانسان مستنداً الى شرف أصله ونسبه فحسب بل أصبحت قيمته مقيسة على قدر همتته وصدائه على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفه وعفته على قدر ذيرته كما قال الامام علي ابن أبي طالب . وكان لنا نابوليون الفضل الأكبر في تصييرها مفيدة فغذب منها ما كان منظره عذراً وعدل ما كان متجاوزاً الحد تعدى لائقه ونا

بالسداد والعدالة . ومعلوم أن الصعوبة ليست في الهدم بل في التشييد على أنقاض المهدم .

ونبسط للقراء مقابلة بسيطة تقرب الى أفهامهم تأثير مضار الثورات وفوائدها فقد أطلقت الثورة من عقالها في روسيا من نحو عشر سنوات ولكن كانت هذه الثورة متوقعة من عهد بعيد ولا يستغرب حدوث ذلك الذين يعرفون ما كانت عليه الدولة الروسية من الفساد والاضطراب من جراء استبداد الحكام الذين لم يكن من همهم إلا إرواء غليل مطامعهم من دم الشعب المسكين . وكل يدري أنه اذا طفح الكيل فاض على جوانبه ومتى استشرى ظلم الحكام وأخرج الموم أخرجهم عن حد التؤدة والاعتدال حينئذ يشبه هذا الشعب بنهر يفيض ويجرف كل ما يعثر عليه في مجراه ، وترتكب في الثورات مظالم ومساوئ تفوق مظالم ومساوئ ولاية الامور المستبدين وكثيراً ما يفتنم العيارون الفرصة من الفوضى التي تصحب الثورة وتلازمها ويأتون أعمالاً فظيعة تتبرأ منها الالهة . ولما حدثت ثورة ولم يكن موقد نارها من ضحاياها . وتكون البلاد ميمونة الطالع اذا ظهر فيها داهية كنا بوليون يتحدي المنهاج القويم المؤدي الى ترميم ما تدعى من صرح الهيئة الاجتماعية وتشيده على أساس متين وتزينه بالنقوش والزخارف بحسب مقتضيات الحاجة والذوق والفن . والذي نراه حتى الآن هو أنه لم يظهر في روسيا فرد أوتي من المقدرة العقلية ما أوتيها نابوليون الكبير ليأسو كلوم هذه البلاد المنكوبة .

وفي تدبر تاريخ نابوليون اعتبارات قيمة تدل من الجهة الواحدة على عظمة الانسان ومن الجهة الاخرى على ضعفه ، وهو درس جليل لبني الطينة ومحرك لهم البشر وباعث لهم على أن يبذلوا جهودهم بلا تبرم ولا ملالة للانتهاء الى الهدف الاسمي ، وهو أيضاً عبرة لاصحاب المقامات العالية لينسجوا على منواله في الاعمال المحموده ويتجنبوا ما ارتكبه من الهفوات السياسية والاجتماعية مما جره الى السقوط وفقدان العرش ، والنفي الى جزيرة بعيدة صماء في المحيط الاطلسي فقضى فيها كدأ وحسرة .

ولما قرأت بامعان تاريخ هذا العاهل العظيم ووعيته في ذهني صحت عزيمتي على نقله الى اللغة العربية فكشفت بعض كبار الحكومة في متصرفية لبنان في

ما عقدت عليه عروة العزم وكان ذلك في عهد الاستبداد التركي والتشديد في المراقبة على المطبوعات فقالوا لي أن فكرتك حسنة ولكن لا يسهل إبرازها الى العمل ففي تاريخ نابوليون فصل مهم عن الحملة الفرنسية في مصر فالمرقبة تمنع نشر مثل هذه الاخبار واذا حذفت هذا الفصل من التاريخ كان تاريخك مبتوراً مشوهاً فاقبضت بكلامهم وعدلت عما كنت قد صممت عليه

ولما حدث الانقلاب في تركيا وأعلن الدستور العثماني انطلقت الاقلام المحكومة والالسنه الممقولة فعدت الى فكرتي القديمة وكتبت ما أمكنني أن أكتبه من تاريخ نابوليون وابتدأت بدمر المجلد الاول منه ولكن ما عثت الحرب العالمية الكبرى أن أعلنت فاضطرت الى الوقوف عن إتمام طبع المجلدين الثاني والثالث من التاريخ

ولما وضعت الحرب أوزارها وعادت مياه السكينة الى مجاريها جعلت أفكر في استئناف طبع ما بقي من التاريخ غير مطوع ولكن طرأت حوادث سياسية في سورية ولبنان حالت دون ذلك • ولست في مقام بسط هذه الحوادث إلا أني أقول أنها قد دفنت في الى جزيرة كورسيكا موطن نابوليون الاصلي فقضيت فيها ثمانية أشهر منها ستة في مدينة اجاكسيو مسقط رأس هذا الرجل العظيم ، وحدث أنه في أثناء مقامي في اجاكسيو في سنة ١٩٢١ احتفل بانقضاء مئة سنة على وفاة الامبراطور العظيم فأرسل المارشال فرانسه دسبره من باريس لرأس الحفلات في اجاكسيو وقد شهدت جميع هذه الحملات وسيجيء وصفها في حينها •

ونسني لي في هذه التي قضيتها في اجاكسيو ان أقف على حوادث كثيرة تتعلق بنابليون وأسرته فدونتها وأضفتها الى تاريخي ووفقت ايضاً الى جمع عشرات من المؤلفات القيمة المكتوبة عن حياة عاهل فرنسا الاكبر فاستخلصت منها اشياء كثيرة خطيرة ضمنتها الى التاريخ ايضاً • وبعد ذلك توجهت الى باريس حيث قضيت ست سنوات لم اكن في خلالها أقتأ عن التتقيب عما تهمني معرفته من تاريخ العاهل نابليون فشاهدت آثاره الخالده في فنتيلو والماليزون وقرسايل وباريس واطلعت على ما تمكنت من الاطلاع عليه مما كانت قد فانتني معرفته •

وعزمت أيضاً بعد الفراغ من طبع تاريخ نابوليون الأول ونشر ما وفقت
الى جمعه من آثاره العظيمة أن أنشر ما جمعته من أخبار ابن أخيه الامبراطور
نابوليون الثالث وكل آت قريب *

هذا أهم ما ينطوي عليه التاريخ الذي باشرت طبعه بعد الاتسكال عليه تعالى
وإني أجمعه هدية الى نصراء الادب مؤملاً أنه سيروقهم وراجياً من أخلاقهم
الكريمة أن يغضوا الطرف عما يعثرون فيه من الخطأ
مصر
الياس طنوس الحويك



أسرة بونابرت

من اليمين من اعلى الى اسفل : الامبراطورة جوزفين . اوجين بوهارنه .
 اليزا بونابرت دوقه لوك . يوسف بونابرت والملكة هورتنس .
 في الوسط من اعلى الى اسفل : نابوليون بونابرت . لاتيسيا راموليتو . لوسيان
 بونابرت . جيروم بونابرت .
 من اليسار من اعلى الى اسفل : الامبراطوه ماري لويز . دوق رشتادت .
 بولين بونابرت اميرة بورغيزي . لويس بونابرت وكارولين بونابرت ملكة نابولي .

تقديم

لم يكن نابوليون الكبير في عنفوان مجده وشرخ عظمته يلقي سوى المعجبين به ، والمتملقين له . ولم يسبق لاحد قبله أن يستثير بهاء دهائه ما استثاره بهاء دهاء نابوليون من الحماسة في الصدور ، أو أن تقتضي سلطة البشر ما اقتضته سلطة نابوليون من الخضوع والاحترام . فكأنه سحر العقول واسترق القلوب . فالشعب الذي شاهد خارجاً من بين ظهرانيه ذلك المعبود الذي تزاحم أصحاب المجد التالد وذوو المجد الطريف على احراق بخور العبودية عند قدميه ، أصاب قسطه من الاكرام المؤدى لازادته ونهيته المتجسمتين على شكل نخم وقد خلف ذلك التبجيل العام آثاراً خالدة في صحيفة « المونيطور » سهل سنة ١٨١٤ استخراجها منه وتأليف مجموعة سميت « تأبين جماعة من رجال العلم لبونابرت ألقي في اللكسمبور وقصر البوريون والقصر الملكي والتويلري » وقد كانت تلك المجموعة مرصعة بفقرات بليغة مأخوذة من طائفة من الخطب الوطنية بمجد ذلك البطل المسترع ، والمدبجة بأفلام فريق من رجال الحكومة والعلم والادب والقانون والدين

.....

انقضت أيام الحماسة والاعجاب ، وجافى النصر جيش الفرنسيين ، وسلك الجميع مسلك النصر ما عدا الشعب الذي لم يكن ينظر في نابوليون على العرش ونابوليون في المنفى سوى شخص واحد ، أي كلمة المساواة ورسول الثورة الفرنسية الكبرى في أوروبا

فهل عادت أيام الشؤم تلك التي ظل فيها الشعب وحده مقبياً على الامانة في عبادة معبوده حين حلت على فرنسا ضربتان مؤلمتان ، غزوة جيوش الحلفاء من الخارج ، واعادة الملوك الى العرش في الداخل ؟ وهل قضي على الفرنسيين أن يظلوا يسمعون الناس يسمون شهيد القديسة هيلانة غول كورسيكا ، وبقايا جيوش الجمهورية والامبراطورية البسل لصوص اللوار ، بعد الفتنتين الكبيرتين اللتين تسعرت موافدهما سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ ، والمهرجان الوطني العظيم

الذي أقبل سنة ١٨٤٠ ؟ وربما تورم بعضهم صحة ما جاء في بعض الخطب وبعض الكتابات في هذا الصدد ، ولكنني أكتفي في الرد عليهم ، وبيان بطلان مزاعمهم ، وتسفيه آرائهم بإيراد السطور الآتية التي نسجت بردها راعة دي شاتوبريان الكاتب الفرنسي المشهور بعد أن أسهب في اظهار استيائه من نابوليون :

« كلمات فارغة ! أنا شاعر أكثر مما يشعر غيري بخلوها من المعنى العالم لبونا برت ، فلما يتسن للمخرب افتتاحه اختلسته شهرته . ففي حياته لم يتمكن من احراز العالم بجملته ، وبعد وفاته أصابه برمته . لقد رفعت أصدواتكم على غير جدوى ، ولكن ستمر الاجيال من دون أن تغيركم أذاً سمعية طالحندي والوطني والجمهوري والملكي والغني والفقير يتهافتون جميعهم على وضع تماثيل نابوليون وصوره في منازلهم وقصورهم وأكواخهم ، وقد اتفق المغلوبون مع الغالبين على اكرام هذا الداهية ، فلا يخطو المرء خطوة واحدة في ايطاليا الا ويشاهد آثاراً ناطقة بعظمته ، ولا بلج الانسان ألمانيا الا ويعثر فيها على ذكره ، فالجيل الذي ناوأه في هذه البلاد قد انطوى وأصبح أثراً بعد عين ، وقد جرت العادة ان العصور تقف أمام صورة رجل عظيم وتكلمها بعمل طويل متعاقب ، الا أن الجنس البشري لم يشأ الانتظار هذه المرة ، ويرجح انه عجل في عمل هذه الصورة ، ولم يكن بد والحالة هذه من عرض القسم المنجز من صورة هذا المعبود على جميع الانظار

« ليس لبونا برت عظيماً بكلامه وخطبه وكتابات ومحبه للحرية التي لم تكن فيه قط ولم يسع قط لتوطيد أركانها ، ولكنه عظيم لانشائه حكومة منظمة شديدة البأس ، ومجموعة قوانين يجرون بموجبها في بلدان عديدة ، ومحاكم عدلية ، ومدارس ، وادارة قوية ونشيطة ومتنورة لا يزال الفرنسيون حتى يومنا هذا سائرين عليها ، وهو عظيم لانه بعث ايطاليا من موت الحول ، وأنارها بمشكاة الرقي وال عمران ، وأدار شؤونها ادارة مقرونة بالحكمة والسداد ، وهو عظيم لانه جعل النظام في فرنسا ينشأ من العدم ، ورم المذابح ، وجعل أنصار ثورة الشعب وأحلاف التهبج ، والعلماء المتعجرفين ، والادباء الفوضويين والجاحدين الفلتارين ، وخطباء الشوارع ، والقتلة في السجون والسبل ، والأثريين

الذين يعملون المنابر ويتصدرون المجالس والمنتديات ، يسلسون قيادهم له ويأتمرون بأوامره . . . وهو عظيم لانه ابن نفسه ولانه عرف وليس له من هاد سوى دهائه كيف يجعل ستة وثلاثين مليوناً من البشر يطيعونه في عصر لم تبق فيه العروش مكتنفة بالاوهام ، وهو عظيم لانه قهر جميع الملوك المعاكسين له ، وكسر جميع الجيوش على اختلاف تدريبيها ولسالتها ، وجعل الشعوب المتسكعة في ظلمات الهمجية تعرف اسمه كما تعرفه الشعوب الراقية في رياض المدنية ، وقد فاق جميع الفاتحين الذين تقدموه ، وملاً عشر سنوات أعمالاً عجيبة يتعذر على الانسان فهمها الآن »

فعلى هذه الصورة نرى هذا الخضم النبيل الاخلاق الشديد الخلق ، الذي بالغ في خدمة الاجانب الناقين ، واندفع بكل قوته مع الفرنسيين الخائنين حين قلبت الاقدار ظهر المحن لنابوليون ، ينحني في نوبته أمام عظمة ذلك المعبود الذي بذل قصارى الجهود على غير جدوى لتحطيمه وتعفيه رسومه ، وعلى هذه الصورة أيضاً نفهم دي شاتوبريان جميع المنتحلين الضعيفي الرأي الذين يعالجون معارضة الصوت العام المتقل صداه من جيل الى جيل للاطناب بعظمة نابوليون بوناپرت ومجده .

ولعمر الحق ان البكلام الذي فاه به دي شاتوبريان لتفنيد أقوال الذين يتعمدون الغرض من كرامة نابوليون والحقض من مكانته كان له صدى بعيد عند مشاهير رجال القرن التاسع عشر كالورد بيرون ولامنه ولامارتين وهنري هيني وبلزاك وفكتور هوغو ودي فينيه ولويس بلان وارمان كارل وبرانجه وتيارس القائل عن نابوليون انه أعظم جميع البشر ، وغيزو وعدو نابوليون السياسي اللدود فانه قال : « ان عصر نابوليون كان محتاجاً اليه أكثر من سواء بين الرجال العظام أمثاله إذ أنه لم يتيسر لأحد من الناس الا لنابوليون أن يجعل النظام يخلف الفوضى بمثل تينك السرعة والعظمة . »

ولم نتوخ في الكتاب الذي أزمعنا نشره القول بأن دهاء هذا الرجل العظيم لم يساوره الخطأ ولم يتمرس به الضعف ، أو الزعم بأنه في وضعه الانظمة السياسية والاجتماعية لم يجنح عن المنهاج الواسع المرسوم سنة ١٧٨٩ للحرية والمساواة ، أو الدعوى بأنه لم يدع الضعف البشري يمد اليه يداً ويبلغ منه ، بل

نحرينا أن نكشف للعلاء طراً هفوات هذا الجندي الباسل والمشتزع الفاضل
المتجسمة به الثورة ، كلما آنسنا منه ميلاً لتعزز أوهام طريقة الحكم القديمة
والتساهل مع مريديها وأشياءها بمنحه اياهم امتيازات كانت يحسن به أن
يضمن بها عليهم

وإذا كان من حقوق المؤرخ وواجباته أن يبدي العنف في اصداره الاحكام
على عظماء الارض ، فلا بد من أن يكون هذا العنف محصوراً وراء حدود النزاهة
وبدلاً من أن يستهوي المؤرخ نكران الخير الذي يعثر عليه الى جانب الشر
ويحقر الصفات والاعمال التي لا مشاحة في التنويه بعظمتها يجب عليه أن يتشبث
بأظهار ما يكون من التأثير الحسن لمحفوظ الشعوب ومجرى تمدن العام

وقد عقدنا عروة العزم على استمداد الالهام من هذه العدالة المنزهة حين
عملنا الى كتابة تاريخ ذلك الداعية الذي يدعوه رجل الشعب والكلمة المجيدة
لثورة الفرنسية الكبرى . وتتجسرى المحافظة على هذه الصفة ولا سيما في هذه
الايام المظهرة القرة الوهمية المحاط بها اسم ذلك الرجل ، والمنتعشة دائماً باقتراع
الشعب المعتبر وحده صاحب الامر واليهي الخلد ، والمبني تدبيراً على الحكمة
مع اتساع الحرية العامة وتحسن أحوال الهيئة الاجتماعية كأفضل واق لفرنسا
الجديدة من تجديد الثورات وعودة انفجارات براكين الفوضى التي تؤدي ولا
محالة حكمها الوقفي الى اعادة حكم الافراد مما يكون من ورائه مضره لعظمة
الامة والديموقراطية الاوربية

المقدمة

قال منتسكيو الفيلسوف . ان الاحوال لا توجد الرجال ، وكلما كان العالم في حاجة ماسة لفكر جديد يحفظ كيان الانظمة والممالك النافذة حيويتها والمنقضية آجالها لثلاث زول مع الاعتقادات ، ظهر أشخاص ممتازون اعتبرهم الناس آلهة وأنبياء وحكماء بحسب الازمنة وبحسب عمق دهاهم أو سموه ، ونبغ مفكرون متفردون تتمخض عقولهم بفكرة الابداع في الافراد وسر الالهام ، ونشأ فلاسفة يعلمون هذه الفكرة في المدارس ، ومنتصرون للشعب يذيعونها في الامكنة العامة ، ومشرعون يسمونها بسمة السياسة ، وفأخون يوسعون دائرة امتدادها وسطوتها

أجل انه حتى هذا العصر لم يكن لاجل مشاركة عمل التمدن العام الذي كثيراً ما يكون غير ارادي سوى عظماء القواد المتقدمين والمتأخرين الذين نالوا لاجله تعجب معاصريهم والاجيال الآتية بعدمهم فالتاريخ يذكر بشكل جلي عدد الانتصارات الباهرة ، وفن الغلبة في الحروب ، وعلم الانسحاب ، والفضل بتذليل المصاعب واقتحام المخاطر ، والبعثات العظيمة والفتوح الواسعة ، وكل ما يرفع العقل وينيل الشهرة الحربية ، وما يهر أبصار الشعوب في حياة الاشخاص الذين يفتسلون سواهم بتدمير الممالك أو انشائها بقوة السلاح . فكم من الكتاب لم يدركوا ما لتبسطهم في القتال من القيمة الفلسفية ، ولم يعتبروهم سوى مخربين عنانهم ، فتظاهروا بالأراء الغريبة ولم يبالوا بأوهام المدرسين ، وعالجوا قلب قواعد عمائيلهم وصنع سلطة العصور . فروسو الشاعر الخفيف الروح أبى أن يعجب في الاسكندر بالاشياء نفسها التي كان يستفظمها في اتيلا ، وبوالو المسرف في الاطذاب بمدح لويس الرابع عشر لم يشأ أن يعتبر تلميذ أرسطو وقاهر دارا سوى معتوه أحرق اسيا ودمرها

وهذا الجحد المطلق مهما سما المصدر الناشئ عنه يعوزه وجود أسباب تعضده وانصاف يبرره . فاذا لم يكن المرء قد افتكرا الافتكار السكافي بويلات الحروب عند تعظيمه مقام المتحاربين ، واذا لم يكن قد أعمل الروية عند اطنابه

ببساطة الجندي بأنه عند الحدود بين الممالك لا تلقى سنبلة واحدة إلا وقد رواها دم الانسان ، كان ذلك الامر داعياً الى معاكسة تلك المبالغة في المدح بمبالغة أخرى أشد ظلماً وأقل عذراً كأنكار شرعية الافتخار بالحرب ، وعدم اعتبار الشهرة الخالدة التي يصيها الفاتحون إلا كاندماش طويل يطرأ على البشرية ، وكنتيجة أبهة مشؤومة وسحر قديم العهد

واذا حملتهم الحقيقة على اذاعة أفضلية هذا العصر العقلية على العصور السالفة فنحن أنصار قابلية الكمال البشري الغير لا نتردد في أمر الاعتراف بذلك . ويكون من باب التبجح في العصر الحاضر أن يفترض أن العالم لم يدرك درجة التمثل الا في الامس ، وأن يوصف العصر الماضي بالخلل والغباوة في أحكامه التاريخية وآرائه العقلية المتفق عليها السواد الاعظم من الناس منذ زمان متوغل في القدم وحين تتفق الشعوب على تأدية التعظيم لذلك القائد الكبير في أثناء حياته ، وعلى تكريمه بدفنه في البنيطيون بعد وفاته ، فلا يكون عملها هذا ناجماً عن استغواء المجد وحده لها على ذنبك التعجب والاعتراف بالجميل المذنب لا يحجوها كروا الايام . ويضاف الى تأثير هذا الحادث الجلل في القلوب الكريمة والعقول المتوقدة ما يكون لتأثير الاعمال الخطيرة والمساكن الكبيرة المضرة نيران الحماسة في النفوس الحرة والمستعيلة اليها في كل مكان حماية الشعب ، وانها بدلا من أن نفقد تلك الاعمال والمساكن والهيئة الاجتماعية اياها ، ولا يجني منها ثمار المرافق سوى بعض الافراد أو بعض الجماعات ، تكون ذات فائدة جليلة للعائلة البشرية جمعاء وذات فخر لبعض أفرادها

وهب غزا الشعب المصري قادة آسيا وانتشرت طوارثه الظافرة في حزر البحر وبلاد الاغارقة فيكون تمدن طيبة ومحف سائراً وراء سزوستريس وسكرويس

وهب حطم سيف الاسكندر عرش قورش ودوخ الشرق حتى بلاد الهند فيكون تمدن أثينا قد ظفر باسم تلميذ ستاجيريت وبذراعه ، ويكون عصر ريكليرس قد جر وراءه نور المدنية والرقى ، ويكون في الاتيكا ونامها وفلسفة

الاكاديميا والليسه قد أصبحا باعثاً على نشر أشعة العمران في البلدان السحيقة والممالك الفسيحة

وهب أخضع قيصر الروماني البرتين والجرمانيين ورفع أعلامه من قمة القوقاس الى قم جبال كاليدونيا ، وعبر من غاليا الى ايطاليا ، ومن رومية الى مقدونية ، ومن سهول فرسال الى سواحل افريقية ، ومن أنقاض قرطاجة الى ضفاف النيل والبحر الاسود ، واجتاز البوسفور والرين ، وقطع جبال طورس والالب والاطلس والبرنات ، فلا يصحبه في جميع هذه المغازي الجارية تحت ادارته وسطوته ومجده الخالص إلا اسم رومية ولغتها وأخلاقيها ومدنيتها ، ويرافقه عصر اوغسطس الموشكة أبوابه أن تنفتح ، ويشرك الشعوب الوثنية بذلك المذهب السفسطي الذي لم يجعل القول الرومانية تنظر الى ذاتها من دون أن تغرق في الضحك ، وأنشأ أعظم وحدة سياسية شاهدها العالم ، وهياً بضمه عشرين مملكة الى مملكة واحدة وضع قواعد شركة كبيرة ألقيها الكنيسة المسيحية في النظام الروحي ، وكان همه الوحيد أن يضاهي الاسكندر وقد كان شديد الإعجاب به أو أن يتفوق عليه ، وكان راغباً في استئصال الاعمال التي باشرها أنصار الشعب المتصل اليه ارثهم ، ووسع بحد الحسام الدائرة النامية فيها على شكل سامي طريقة من شأنها أن ترفع منزلة المتواضعين وتذل تغطرس المتشاكخين بأسلوب يفوق الأسلوب الذي تحده الفراق وماريوس ومن نسج على منوالهما

ويمكننا أن نقول من دون أن نحاذر في قولنا لومة لأنهم انه لم يسبق لاحد من النزاة قبل نابوليون بونابرت أن يساعد كما ساعد هو بسلاحه المنصور على تعزيز أركان التعليم العالي وتوطيد دعائم الصناعة وتسيير أسباب العمران مما ترسخ الحروب قواعده بين الشعوب ، فان كان الاسكندر قد حمل معه عصر بريكليس ، وقيصر عصر اوغسطس ، وان كانا قد صحبا في انتصاراتهما دهاء هوميروس وصوفوكل وأفلاطون وارسطو وشيشرون ولوكريس وفرجيل وهوراس ، فنابوليون حمل ثلاثة قرون أولتها الفنون والعلوم والفلسفة شهرة ما وراءها من مزيد ولم تكن حاشيته تقل سناء وأبهة عن حاشية الذين تقدموه فقد اجتاز أوربا ومعه مونتانيه وديكارت وكورنيل وراسين وموليير وفلتر

وروسو ، وتألفت في محل أركان حرب جيشه جامعة حقيقية نقالة يسود فيها روح القرن الثامن عشر ، زارت الشعوب المتقهرة في الشمال والجنوب لتخضعها لتأثير الاخلاق والمبادئ السائدة في الامة التي أجمعت كلمة العالم المتمدن على الاعتراف بانها مليكته . ولقد سعى نابوليون على غير جدوى لتعزيز ذكرى الارسطراطية في فرنسا وأوهام الملكية بترميمه ترميماً وقتياً صرح الانظمة المتداعي تحت أثقال القدمية ، ومع ذلك فهو المعتبر في مقدمة الديموقراطيين والمجددين مجد البلاد والماشرين روح الحرية في أوروبا القديمة ، وهو يمثل وكلمة تلك الثورة الكبرى التي فتحت أبوابها ميرابو بصواعق فصاحته ، ودافعت عنها لجنة الامن العام بصواعق الارهاب ، ووطد نابوليون دعائمها بصواعق الحرب ، أجل ان هذه الثورة أطلق عليها منذ نشأتها اسم الثورة الفرنسية ، ولكنها ما عتست أن استحققت أن يطلق عليها اسم الثورة العامة

هذا هو الرجل العجيب الذي لا يرى فيه رجال البلاط وأهل المنتديات وبعض الافراد سوى مستبد ممقوت وغاز لا يروى غليل مضامعه ، وأما الصانع والحارث والجندي المعتبرة غريزتهم أصدق من المذهب العقلي الذي يجري عليه أولئك المنتقدون الضعفاء الفارغة أقوالهم من المعنى فانهم كانوا ولا يزالون يرون فيه رجل الشعب ورسول العناية المحفوظ بقدرته تعالى ، وتناجى التحرر السياسي والاهلية والدهاء ، وتجسم روح المساواة الذي كان سائداً في الادارة والمعسكر ، والذي لا يزال يحرك الآن الهيئة الاجتماعية الاوربية برمتها

هذا هو الرجل الذي قال عنه أحد شعراء الفرنسيين ان ذكره سيظل حياً في الإكواخ ، وهذا هو الرجل الذي صحت عزيمتنا على نشر تاريخه وترجمة حياته غير مراعين في ذلك غير بيان الحقيقة وتعريف الملا العربي بنابوليون الكبير داهية القرن التاسع عشر .



لاتيسيا رامولينو والدة نابوليون بونابرت
ولدت في اجاكسيو ١٧٥٠ وتوفيت في رومية ١٨٣٦

الفصل الاول

— في أصل نابوليون وحدائمه —

في الحين الذي كان فيه فلتير وروسو المثلان بأعباء الشيخوخة التي كانت تجرهما الى حافة الحفر قد أوشكا أن يؤخذا من العصر الذي أفعماه بدويّ شهرتهما ، وفي العهد الذي كان فيه ميرابو المعد لان يحول الرأي العام من الفلسفة الى الفصاحة قد اشتهر بتطرفه وخلاعه في شببته ريثما ينتهي الى سن الكهولة ويصيب شهرة ومجد الخطيب والسياسي ، رأينا العناية التي تسير دائما بالعالم في طرق لا يدرك غيرهما أسرارها التي تؤدي الى غايات ترمي اليها ، هذه العناية التي دبرت بتعاقب الاجيال والممالك جميع الاشياء بطرق عجيبة لنجاح الافكار واشتداد الثورات الكبيرة ، تهى في زاوية خاملة في البحر المتوسط ولادة رجل قدر له أن يسخر دهاء الحروب لخدمه روح الاصلاح ، ويختتم القرن الثامن عشر المتباهي بفتح العقلة وانتصاراته الخطائية بعجائب حربية تفوق كل ما أدهش العقول في العصور القديمة وفي القرون المتوسطة

ولد نابوليون بوناپرت في مدينة اجا كسير بمجزيرة كورسيكا في ١٥ اغسطس سنة ١٧٦٩ ، واسم أبيه شارل بوناپرت واسم أمه لاتيسيا رامولينو ولو كنا عاشرين في عصر تسود فيه الاساطير وتنساق فيه الخرافات على عقول البشر لما كانت هذه الحادثة مجردة من السموات الشعبية والعلامات السماوية ، وقد قال المسيودي لاس كاس • « إن » الدة نابوليون كانت قوية جسما وعقلا وقد اشتركت في الحرب ، ولما كانت حاملا به أرادت أن تمضي الى الكنيسة لسماع القداس وحضور حفلة العيد ، ولكنها اضطرت الى الاسراع في العودة الى البيت حين شعرت بابتداء المخاض ، ولم تقدر على الوصول الى غرفتها ، بل قضت عليها الحال بوضع الطفل على منفسة قديمة العهد مرسومة عليها أشكال شتى من الصور والتراويق المسئلة بأبطال الحكاية أو الالباذة ، وكان ذلك الطفل

نابوليون بعينه »

وكان بعض الكتبة يفتنمون الفرصة من بلوغ نابوليون منصب القنصلية ثم صعدوه الى عرش الامبراطورية ليختلقوا له أصلاً شريفاً متناسقاً في القدم زاعمين أن جدوده كانوا ملوكاً في الاقاليم الشمالية ، إلا أن الجندي الذي كان يشعر بنار الثورة تتمشى في مفاصله ، والذي لم ينس قط أن أهليته وحدها رقت في عصر المساواة من مراتب الجيش السفلى الى المنصب الأعلى أو عز الى الصّحف بأن شرفه لم يكن يستند إلا إلى الخدم التي أداها إلى وطنه وأن هذا الشرف لم يكن يتجاوز مستينوت

وحصل والد نابوليون العلم في بيزة ورومية ، وكان رحلاً واسع المعارف قوي المعارضة أظهر في مواقف عديدة خطرة كثيراً من الحدة والحمية ولا سما في مداولة فوق العادة تتعاقب بخضوع حزيرة كورسيكا لفرنسا . وجاء شارل بوناپرت فيما بعد إلى مرسيليا يرأس الوفد المنفذ من مقاطعته في أثناء الخلاف الطارئ بين القائدين الفرنسيين في كورسيكا وهما المسيودي ماربوف والمسيودي نابون بيليز

إلا أن ما كان لهذا الأخير من النفوذ في البلاط لم يجده شيئاً في مقابل شهادة شارل بوناپرت المبنية على الصدق ، فهذا الرجل آثر الدفاع عن دي ماربوف رغبة في النطق بما يؤيد جانب الحقيقة والعدالة وهذا هو السبب الوحيد الذي من أجله بسط المسيودي ماربوف من ذلك الحين لواء حمايته فوق أسرة بوناپرت

ان نابوليون مع كونه ثاني أبنجال شارل بوناپرت كان معتبراً كبير الاسرة . فعنه لوسيان كبير الشمامسة وقد كان مرشداً لجميع ذويه وعضدا لهم منحه هذا اللقب وهو راقد على سرير الموت وأوصى يوسف بكر اخوته بالألا ينسى ذلك الامر ، وهذا ما جعل نابوليون يقول فيما بعد . ان هذا العمل كان حرماناً حقيقياً من الميراث ، وهو يمثل مشهد يعقوب وعيسو

ولم يصب نابوليون ذلك التفوق الا بما أوتيته من الخلق الرحب والرائحة والثروي وسلامة الذوق وجودة العقل ، وقد بدت تباشير هذه الصفات فيه من نعومة أظفاره

وفي سنة ١٧٧٧ أدخل في مدرسة بريان ، فأكب بنوع خاص على دراسة

التاريخ والجغرافية والرياضيات ، فكان ييشغرو معلمه ودي بوريان رفيقه ، ونال خصل السبق على أقرانه في الرياضيات ، وأبدى ميلا شديداً الى الشؤون السياسية ، وولوعاً عظيماً بتحرر وطنه واستقلاله ، وأحب باولي محبة تقرب من العبادة ، ودافع عنه دفاعاً قوياً مخالفاً في ذلك ميل والده

وقد أخطأ الذين زعموا ان نابوليون كان في أثناء الأيام التي قضاها في المدرسة ميالا الى الانفراد والصمت والابتعاد عن الأصدقاء والرفقاء ، ولا ينطبق أيضاً على الحقيقة ما قاله عنه دي بوريان حين فقد ثقته به انه كان فظاً في أحاديثه ينفر الناس منه ، ولكن هي رزائته السابقة أوانها وأخلاقه القاسية التي جعلت الناس يخطئون في نسبتهم اليه الابتعاد عن مخالطة معاشر البشر وآثامه بقساوة القواد . على ان الحقيقة كانت خلاف ذلك فقد كان نابوليون لطيف المعاشرة رقيق القلب . ولم يطرأ التعبير على أخلاقه ، ولم يصبح مكفهر الجبين عبوساً إلا عند ادراكه سن البلوغ كما يستفاد من الكلام الذي فاه به عن نفسه في جزيرة القديسة هيلانة

وزعم بعضهم أيضاً ان ميله الى الاعتزال عن الناس ورغبته في فن الحرب جعلاه يؤثر الانفراد في حديقته ويتحصن فيها هرباً من ازعاج أرفاقه له ، الا أن واحداً من أولئك الرفاق كذب هذه الرواية بسرده قصة الحصن الذي بنوه من الثلج وحاصروه ودافعوا عنه بكرات الثلج

« في شتاء سنتي ١٧٨٣ و ١٧٨٤ كثر تساقط الثلج وتجمع في الطرق والشوارع وأفنية المنازل وعلى السطوح ، فألفى نابوليون في ذلك الامر معاكسة لرغائبه اذ لم يبق لديه حدائق صغيرة يهيجها منظرها ، ولم يكن ميسوراً له الانفراد فيها على ما كان يشتهي ويريد وكثيراً ما كان يضطر في أوقات التنزه الى مخالطة رفاقه وترويح النفس معهم في التنزه ذهاباً وإياباً في ردهة كبيرة . وادّرج نابوليون عليهم ان يقصي عنهم الضجر والملالة باستعمال الرفوش لاختراق معابر في الثلج واقامة خنادق وأسوار واستحكامات ومرابط ، وقال لهم حين نفرغ من هذه الاعمال ننقسم الى فرق ونجري حركات الحصار ، ولما كنت أنا مخترع هذا النوع الجديد من اللعب فان أدير حركات الهجوم . فكان لكلامه وقع حسن عند رفاقه الطلبة وحمدوا الى وضعه موضع العمل ، وبقيت هذه الحرب دائرة بينهم خمسة عشر يوماً ، ولم تنف أرحيها

الاحين صارت الحصى والتراب تخالط الثلج المصنوعة منه الكرات المقذوفة .
وكان من نتيجة هذه الحرب اصابة عدد كبير من المحاصرين والمحاصرين بجروح
بالغة . واذكر اني كمت من جملة الطلبة الذين ذاقوا أكثر من غيرهم مرارة
هذا القتال . »

ولا يخفى انه لو كان نابوليون كما يصفه بعضهم فظ الاخلاق شرس الطباع
لما تمكن مع ما كان هو عليه من الميل الى الوحدة من اقناع الجميع باجراء
ما اقترحه لو لم يكن له عندهم كلمة مسموعة

ولم يكن مكثفياً باحراز ميل ارفاقه اليه بل كان نائلاً عطف أساتذته أنفسهم
وكثيرون منهم يزعمون انهم تنبأوا عما سيصير اليه هذا الفتى في مستقبل حياته
وقد أكد المسيودي لغويل استاذة في التاريخ ، بعد صيرورة نابوليون
امبراطوراً ، انهم يجدون في خزانة المدرسة سجلاً فيه مذكرة أودعها ما كان
يتوسعه في تلميذه من مخايل النباهة وعلائم الذكاء ، وقد قال فيها . « ان هذا
الفتى السكورسيكي الاصل والطبع سيبلغ غاية بعيدة من المجد إذا أسعده الحظ »
وكان دومارون استاذة في علم الادب يشبه كتاباته بحجارة الصوان المحماة
في البركان .

وسنة ١٧٨٥ جرت مباراة بين الطلبة نال فيها نابوليون خصل السبق على
أقرانه فاختره الشفاليه دي كيراليو للمدرسة الحربية في باريس غير دبال بما
كانوا يعترضون به عليه من أن هذا الطالب الحدث لم يكن بعد قد بلغ السن
المطلوب ، وانه لم يكن نابغاً إلا في الرياضيات فأجابهم ، أنا عارف ما أنا فاعله ،
وإن كنت أتجاوز في هذا الامر حدود القاعدة الموضوعية فليس ذلك مراعاة
لخاطر أحد ، فأنا لا أعرف أسرة هذا الفتى ، ولم أفعل ما فعلته إلا مكافأة له على
نباهته لاني ناظر فيه شرارة تظل كامنة إن لم يتيسر لها من يقتديها

ولما دخل نابوليون المدرسة الجديدة تعجب وحزن في وقت واحد من
طريقة التعليم الجاري العمل بموجبها فيها ، ولا سيما من معيشة التخضت والرخاوة
التي يعيشها شبان يعدون لتحمل شظف معيشة الجندي الشاقة . وكانت هذه
الملاحظات موضوع رسالة كتبها لرئيسه المسيو برتون ، وهذه خلاصتها .
« ان تلامذة الملك الذين من أهل الناقة لا يستطيعون أن يحرزوا الاحب

الجاه أو عواطف المجد الباطل بدلا من صفات القلب ، فانهم حين يعودون الى منازلهم يحتقرون علة وجودهم في هذه الدنيا ويأنفون من مساكنهم . فبدلا من تعيين خدام عديدين لخدمتهم يحسن ان يقدم لهم الطعام في كل يوم لوتين ، وان يقتصد بما يمكن اقتصاده ان من جهة الخيل وان من جهة المعينين لخدمتها . أفلا يحسن ان يكونوا قادرين على قضاء حاجاتهم بأنفسهم من دون ان يقطعوا مجرى دروسهم ؟ وحيث أنهم ليسوا من اصحاب الغنى وحيث ان جميعهم معدون للخدمة العسكرية ، أفلا يكون هذا النوع من التهذيب والتربية أفضل من سواء ؟ ومتى تعودوا هذه المعيشة الاجبارية والعناية بشؤونهم الشخصية أصبحوا أشداء وصاروا قادرين على احتمال التقلبات الجوية ومشاق الحروب ، وصيروا الجنود الخاضعين لهم يحترمونها احتراماً يقرب من العبادة ويطيعونها طاعة صمياء »

وعلى هذه الصورة كان نابوليون وهو حدث يضع أساس نظام وضعه موضع الاجراء لما قبض بيده على أزمة السلطة العليا . وكان في الامتحانات التي اطاها في باريس يتفوق على أقرانه كما كان شأنه معهم في بريان . وسنة ١٧٨٧ خرج من المدرسة الحربية برتبة ملازم ثان وانتظم في سلك فرقة مدفعي لافير حامية غرينوبل



الفصل الثاني

— من دخول نابوليون بونابرت الجندية حتى حصار طولون —

وتعرف نابوليون بونابرت في أثناء اقامته بباريس وهو في الثامنة عشرة من عمره بالأب رينال ، فكان يجاذبه أطراف البحث في المسائل التاريخية والقضايا الشرعية والشؤون السياسية بأسلوب يدل على تعمقه في هذه العلوم وطول باعه فيها .

ولما أرسل الى فالنسه للانضمام الى احدى فصائل فرقته تعرف بأكرم أسرها وأفضل بيوتاتها ولا سيما أسرة عقيلة دي كولومبيه ، وهي سيدة ممتازة بأدائها ولطف أخلاقها ، ومعروفة بأحيائها روح الالفة الاجتماعية . وتعرف في منزلها بالمسيو دي منتاليفه الذي جعله وزيراً للداخلية عند صيرورته امبراطوراً . وكان لعقيلة كولومبيه ابنة متناهية في اللطف وآية في الجمال ، وهي أول من أضرمت في قلب نابوليون بونابرت نار الحب ، وشاطرته هذه العواطف الطاهرة . فسكنا يجتمعان في الخلوة ويتشاكيان لوعة الغرام ، وقد قال نابوليون فيما بعد ان أكل الكرز كان كل ما فعلاه في خلوتهما

ولم يفتكر أحد من القرينين بالاقتران بالآخر حتى أن ألام نفسها مع ما كانت تبديه من العطف نحو هذا الشاب الذي كانت تقدره حق قدره لم يخطر في بالها البتة أمر زواج ابنتها به خلافا لما زعمه بعضهم . وقد تنبأت هذه المرأة عن مستقبله المجيد ، وحين كانت على سرير الموت تجود بنفسها جددت هذه النبوءة لما أطلق عقل الثورة الفرنسية الكبرى وانفتح في وجه نابوليون طريق لاجب يستطيع المسير عليه لالتهاء الى انفاية التي كان يرمي اليها .

الا أن مشاغل بونابرت القلبية ونجاحه في الالفة الاجتماعية لم تحل دون استئنافه مزاولة دروسه الجدية والتعمق في البحث في قضايا الاقتصاد الاجتماعي المهمة . وقد زعم بعضهم أن بونابرت نال باسم مستعار الجائزة التي عينتها ندوة ليون العلمية للمسألة التي اقترحها الأب رينال وهي : « ما هي المبادئ والقوانين التي يجب غرسها في أفئدة البشر ليصيبوا أعلى درجة من السعادة ؟ »

فأجاب بونابرت على هذه المسألة جواب تلميذ من تلامذة القرن الثامن عشر ، على أن الحقيقة هي أن القائلين انه نال تلك الجائزة قد ضلوا عن جادة الصواب . وفضلا عن ذلك لم يكن يسر في المستقبل بتلك الذكرى . فذات يوم في عهد الامبراطورية قدم له المسيو دي تاليران دفتراً منسوخاً فيه جوابه الاكف الذكر فبادر في الحال الى تمزيقه وطرحه في النار

ولما أصلت سيف الفتنة الفرنسوية الكبرى كبر لها جميع الشبان المتنورين ، ولم تكن هذه الفتنة سوى ابراز المبادئ الفلسفية المشربة منها أدمغة دهاة ذلك العصر الى حيز العمل ووضعها موضع الاجراء . إلا أن النبلاء المفكرين بامتيازاتهم والمتباهين بألقابهم ، وهم كثيرون في الجيش ، لم يكونوا يرون ذلك الرأي ، على أن ذلك الروح أي روح الافتخار بالعظم الرميم لم يسمعه أن يجرم ذلك العصر دهاء شاب كان باولي قد أصاب في وصفه بقوله عنه . « انه مجبول من طينة الأقدمين وانه من أمثال الرجال الذين يصنعهم بلوطرخوس »

ولم يجر بونابرت مجرى السواد الاعظم من رفقاءه الذين شخصوا الى البلدان الاجنبية وأقاموا النكر على مريدي اصلاح شوءون وطنهم . على أن اعتبار حالة ثروته ومجده ساعد نفوذ آرائه ومبادئه ، وقد قال لرئيسه عند انضمامه الى حزب الاصلاح « ان الفتنة من أفضل الذرائع التي يتذرع بها الجنود الحاصلون على الحزم والاقدام » ولكن هل يكون هذا الكلام داعياً لنا لأن نجرد من كل غاية سياسية نبيلة محبته الشديدة لوطنه التي أظهرها قبل انفجار بركان الفتنة في أحاديثه وكتاباتاته ؟ ومن شاء التسلط على عواطف البشر والعمل على تحسين حظوظ الناس وجب عليه الا يباشر الشوءون العامة كما يباشرها أصحاب المذهب الفكري المجرد أو النساك المعتصمون بأهداب الزهد ونكران الذات . ولا يستطيع الانسان اتيان المشاريع الخطيرة وتحريك عوامل الهيئة الاجتماعية بتسببه بأسباب التجرد المطلق المبني على قواعد المعجز . وقد أسعد الحظ فرنسا ان وجد فيها بين الشرعين والجنود المخلصين لاصلاح سنة ١٧٨٩ نفوس طامعة الى المجد الذي لا يقتنى الا بالخدم الجليلة ، وقلوب طامعة بالسلطة التي تسهل للدهاء تحقيق المقاصد . وقد أسعد فرنسا الحظ أيضا بأن يكون بين أولئك الطامعين الذين لا تكون بدونهم مأساة الثورة المجردة عن الحركة والمعراة من الحياة سوى

اجتماع من اجتماعات السكويكرس أو احتفال من احتفالات الجنسينيست جندي
مشرع قادر على نيل الشهرة والسلطة الساميتين بأجرائه أعمالا كبيرة تعود بالخط
الجليل من المنعم على المدنية الاوربية .

ولما انتصر بونابرت للحزب الشعبي كان يجري بموجب اعتقاده وبحسب
ما كان يتوسمه في المستقبل من يمن طالعه ، الا أن محبته الشديدة لوطنه لم تكن
تحول دون نفوره الغريزي من الفوضى ، فكان يشهد والحنق يغلي في صدره
الاجتماعات المقامة لمناوأة السلطة التي كان مقدرآ له أن يرثها يوماً من الايام .
وقد حدث في ٢٠ يونيو سنة ١٧٩٢ أنه كان في قصر التويلري على السطح
المشرف على النهر ، فابصر رجلاً من سوقة الناس يدنو من الملك لويس السادس
عشر ويقنع على رأسه القبعة الحمراء ، فاحتدمت في بونابرت نار الحمية وصاح
بصوت عال . وكيف أباحوا لهذا الوغد دخول هذا المكان ، أما كان يجب أن
تطلق المدافع على أربع مئة أو خمس مئة من نظرائه فنكفي شر الباقين ؟

وشهد بونابرت حوادث اليوم العاشر من شهر أوغسطس ، وقد كان يتوقع
حدوثها كنتيجة مقررة لحوادث اليوم العشرين من شهر يونيو الآنف الذكر ،
ومع أنه كان من أحلاف الثورة ظل ميالا الى المحافظة على النظام واحترام
السلطة ، ففصل عن عاصمة فرنسا ميمما جزيرة كورسيكا ، فوجد باولي يعيث
فيها فساداً وبمخروق مدفوعاً الى ذلك بدسائس بريطانيا فاستاء من ذلك الأمر
كل الاستياء ولم يحجم من ذلك الحين عن السعي لتحطيم المعبود الذي كان
يحترمه كل الاحترام . فتولى زعامة احدى الفرق في الحرس الوطني وأصلى ذلك
الشيخ الذي كان يعلن له الاكرام حرباً عواناً

ولما فاز الحزب البريطاني وختم فوزه بحريق مدينة أجاكسيو اضطرت
أسرة بونابرت بعد التهام النار لبيتها أن تهاجر الى فرنسا ، واتخذت مدينة
مرسيليا محلاً لاقامتها . ولم يطل بونابرت مكثه في هذه المدينة بل أسرع في
العودة الى باريس حيث كانت الحوادث تجري تباعاً بعنف وسرعة ، وكانت كل
يوم بل كل ساعة تبسدو علام لمعضلة جديدة . وجاهرت الانحاء الجنوبية
بالتحالف وأسلم الخونة مدينة طولون للبريطانيين . ففوض الى القائد كارتو



نابوليون بوناپرت في مدرسة بريان
ولد في اجاكسيو ١٧٦٩ و توفي في جزيرة القديسه هيلانه ١٨٢١

أن ينطلق إلى البروفانص ويعيدها إلى الحكومة الجمهورية منزلاً أشد العقاب
بالعصاة المارقين

ولما دخل هذا القائد مدينة مرسيليا يجر ذلال التيه والخيلاء أمر
بمحاصرة مدينة طولون ، فضى إليها بونابرت بصفة قائد المدفعيين . ونشر في
أثناء ذلك الحين كتيباً تحت عنوان «عشاء بوقير» لم يذكر شيئاً عنه في «مفكرة
القديسة هيلانة» ولكن المسيودي بوريان يقول أنه تلقاه من بونابرت عينه
عند رجوعه من طولون . ويحتوي هذا الكتيب زبدة آرائه التي كان يهاجر بها
كوطني شديد الصرامة وجندي باسل ، ويتضمن أيضاً حكمه على الاضطرابات
والقلاقل الجارية في الجهات الجنوبية ، وعلى مسألة التحالف المار ذكره ،
مما يدل على ما كان عليه هذا الضابط الشاب من قوة المعارضة وسلامة
الدوق وهما الخلتان اللتان ظهرتتا في بونابرت بمظهر جلي عند ارتقائه إلى
عرش الامبراطورية



الفصل الثالث

حصار طولون وفتحها - ابتداء حروب إيطاليا - العزل

ولما وصل بونا برت الى أمام اسوار طولون وجد جيشاً مؤلفاً من المتطوعين الاشداء ولسكنه لم يجد قائداً هماً يليق بأن ينهض بإعباء الرطامة عليهم ، فان القائد كارتو المتظاهر بالابهة والعظمة اللتين لا تنطبقان على مبادئ الجمهورية كان على غاية الجهل ، وقد كان فتح طولون يفوق طاقته ، بيد أنه لم يكن يفقه هذا الامر . وكان بعكس ذلك يدعي انه ذو فكر سام ومقدرة عظيمة على اجراء مائة تضحية الاحوال وهذه الدعوى جعلته يدبر خطة حربية قضت بان دعتة السلطة الى باريس ودونكم خلاصة هذه الخطة :

« مواظبة قائد المدفعية على اطلاق المدافع على مدينة طولون ثلاثة أيام ، والهجوم بعد ذلك على المدينة من ثلاث جهات وفتحها »
 وكان من حسن حظ ذلك القائد ان قد وجد الى جانبه ضابط أدنى منه منزلة بيد أنه يفوقه في الدهاء وفن الحرب . وكان هذا الضابط في الرابعة والعشرين من العمر . ولم يكن هذا الشاب يستطيع مع خمول ذكره وبساطة مركزه كتمان ما يشعر به من الاحتقار لمعظم الذين يقضي عليه النظام العسكري بأن يعتبرهم زعماء مع ما كان في بلاهتهم من وخامة المغبة على الجمهورية . وقد جراه ذلك الاحتقار وشعوره بأفضليته على جميع المقيم هو بين ظهرانهم على مفاوضة زعمائه أنفسهم وتبصيره اياهم بسوء عواقب الأعمال التي يبتغون اتيانها . وكان من نتيجة مفاوضاته اليومية للقائد كارتو وانكاره الخطة التي رسمها قول زوجة القائد لرجلها . « دع هذا الشاب يعمل ما يرى عمله ملائماً فهو أوسع خبرة منك في الشؤون الحربية ، وهو لا يتقاضاك شيئاً ، ومرجع الفخر كله اليك »

وكان بونا برت من وصوله الى المعسكر أمام مدينة طولون قد فهم بما أوتيته من سرعة الخاطر وبعد النظر في الشؤون الحربية أن طولون لا تؤخذ الا من جهة مدخل الميناء . فقال وهو يشير بيده في المصور الجغرافي الى هذا المدخل

« هذه طولون » . ولكنه حانى مشقة عظيمة لاقتناعهم بالعمل برأيه ، ولم يكن أحد يرى رأيه سوى قائد فرقة المهندسين ، ومع ذلك لم يكن هذا الامر كافياً لاقتناع القائد الاكبر واتفق أنه كان بين نواب الشعب رجل ذكي الفؤاد رأى بمقالة فطنته تحت شكل قائد المدفعية البسيط قائداً هماماً يركن الى رأيه ويعول على معارفه الحربية الواسعة . وكان من نتيجة ميل النائب الى قائد المدفعية البسيط وتقديره أهليته حق قدرها منح بونابرت سلطة واسعة كان محتاجاً اليها لضمان نجاح خطته ، فدعي كارتو الى باديس وطرده الاجنبي من طولون . وتذكر الظافر فيما بعد أن مرجع الفضل في القسم الاكبر من ظفوره هذا الى النائب الشعبي ، وقال ان غسباران (اسم النائب) هو الذي فتح في وجهه باب المستقبل

وكان بونابرت في أثناء الحصار مثلاً لرباطة الجأش والاقدام ، فلم يكتف باظهار معرفته وبراعته في المجالس بل كان يعم بها في ساحة القتال حتى أن الجنود كانوا يعجبون ببسالته وصلابة عوده بقدر ما كان القواد يعجبون بحدة ذهنه وقوة عارضته . وكانت جرأته تحمله على خوض غمرات الحرب حتى أنه قتل تحت عدة جياد ، وقد جرح في فخذه اليسرى جرحاً بالغاً خيف بسببه على ساقه من البتر

وكان طبيعه ينفر من معالجة القضايا العامة المجردة ، ويعتبر تصور الشيء ووضعه في موضع الاجراء أمرين متلازمين ، ولو لم تكن له نفس كبيرة وصدر رحب وذراع متينة تعينه على قضاء حاجاته لكانت فكره الواسع يثقل حاذه ويضيق صدره ويغل يده . وكان أنى سار يشعر بالحاجة الى العمل ، وقد بدأ من حدائته يشعر بهذا الأمر ، وظل يشعر به في جميع أدوار حياته . ولما خانه الحظ في ابراز هذا الشعور من حين الفكر الى حين الفعل فارقت الحياة ، ولما ألقي ذاته مضطراً الى حصر تلك القوة الفكرية في دائرة ضيقة بعد ما كان قد ملأ أوربا بآثارها الهائلة قال على الدنيا السلام

ولم يكن عمل تلك الهمة النهاضة مقصوراً على مزاولة الشؤون الكبيرة بل كان يمد يده الى الشؤون الصغيرة نفسها حين كانت الأحوال تقضي عليه بذلك من دون أن يأنف من تمرسه بمثل هذه الأمور . فكان ذات يوم في ابان حصار

طولون واقفاً بين بطاريات المدافع يلاحظ بنفسه اجراء حركاتها فحدث أن أحد المدفعيين قتل ، ولما لم يكن على مقربة منه من يقوم مقام القتييل عمد بذاته الى اطلاق اثنتي عشرة قنبلة من المدفع ، وقد سرت اليه في ذلك الحين عدوى داء الجرب الذي كان المدفعي مصاباً به . وبعد ما جعل هذا الداء حياة نابوليون في خطر سبب له هزالا ظل ملازماً له في خلال البعثة الى مصر وحروب ايطاليا ولم يبرأ منه إلا على يد كرفيزار بعد صيرورته امبراطوراً

ولم يكن جميع رؤسائه حسداً وبلهاً نظير كارتو ، فان القائدين دوتاييل ودوغوميه اظهرا له احتراماً شديداً واكراماً عظيماً لم يتعودا اظهارها للأدنى ، وقد كان ذلك نتيجة معارفه الواسعة ودهائه الممتاز وتعجب دوغوميه من سماعه إياه يقول له بثقة تامة بعد فتح « جبل طارق الصغير » . « اذهب وخذ قسطك من الراحة ، فقد أصبح سقوط طولون في أيدينا أمراً مقرراً ، وسيتسنى لك الرقاد فيها بعد غد »

وحل الدهش محل التعجب لما تمت بالتدقيق هذه النبوءة ، وقد تذكر بونابرت في وصيته القائدين دوتاييل ودوغوميه كما تذكر غسباران . وطلب دوغوميه من لجنة الأمن العام ترقية الضابط بونابرت الى رتبة أمير لواء ، ومن جملة ما كتبه في الرسالة التي سيرها الى اللجنة المذكورة « كافئوا هذا الشاب وقدموه ، فاذا عاملتموه بنكران الجليل استغنى عنكم وتقدم من ذاته . »

ونظر نواب الشعب بمقابلة الاعتبار الى هذا الطلب ورقوا بونابرت الى رتبة أمير لواء . فانضم بونابرت الى القائد دومربيون زعيم البعثة الفرنسية في ايطاليا ، وأبلى بلاء حسناً في فتح ساورجيو وفي انتصارات طانارو وأوناييل . ان بونابرت مع اعتصامه باهداب مبدأ الجمهوريين المتطرفين الذين كانوا يعملون في ذلك الحين على خلاص البلاد بصريمة مقرونة بالعنف والارهاب ، كان ينظر بطرف دهائه الى العواطف والآراء المتصادمة ويسعى للتسلط عليها ، ومن ثم لم يكن يستعمل نفوذه وثقة القوم به الا لوقاية خصومه السياسيين من الاضطهاد ولانقاذ المهاجرين الذين ألقتهم العاصفة على سواحل فرنسا ، وكان من حملتهم أسيرة شاربيليان . ولما انزلت حكومة الكنفنسيون انتقامها بمخلفاء الجنوب وضربت عميد تجار مرسيليا وأوسعهم ثروة وهو الميسيو هوغ ذلك

الشيخ الجليل البالغ من العمر أربعاً وثمانين سنة بات بونابرت كالمنزول به وصاح قائلاً . « ظننتني بأزاء هذا الحادث عند انتهاء العالم »

وكان بونابرت مع استغفائه لتلك الأعمال الهمجية يبرز أحكامه بكل سكينته وترو على أعمال المتسلطين في ذلك العهد لانهم لم يكونوا يرتوون من شرب الدم . وجاء في « مفكرة القديسة هيلانة » ان الامبراطور كان قد جعل روبسبيار يقول انه اطلع على رسائل ضافية الأذيال أنفذها نابوليون الى أخيه روبسبيار الشاب في جيش الجنوب ، وفيها ينكر بحدة تلك الأعمال الخارجة عن حد الاعتدال ويزعم أنها تسود صحيفة الثورة وتخنقها

وكان روبسبيار الشاب قد عرف كما عرف غسباران من قبله ذلك الرجل العظيم الحديث النشأة واعجب به كل الاعجاب ، وبذل المجهود عند دعوته إياه الى باريس ليقنعه بالمجيء معه اليها ، وكانت ذلك قبل ٩ ترميدور بقليل من الحين . وقد قال بونابرت فيما بعد . « لو لم انبذ طلبه فمن كان يعلم المصير الذي قبيض لي المصير اليه بعد الخطوة الأولى ، والحظ الذي كان يتوقعني ؟ »

وتعرف في حصار طولون بدوروق وجونو وجعلهما يتعلقان به . ففتح الأول من ذات نفسه ، وأحب الثاني للحادثة الآتية :

كان أول شيء فعله قائد المدفعيين فور وصوله الى طولون تشييد طابية ، وكان يضطر الى الكتابة وهو في العراء قائم على ملاحظة مجرى الأعمال . فطلب سرجاناً أو كابورالاً ليكتب له ما يعليه عليه ، فجاءه أحد الجنود لاجراء ما يبتغيه ، ولم يكده يفرغ من كتابة الرسالة حتى سقطت على مقربة منه قنبلة أطلقتها العدو فحشت التراب على الورقة فقال ذلك الجندي برباطة جأش وثغر بسام . « لقد كفتني مؤونة تجفيف هذا المكتوب بالرمل . » وكان هذا الجندي يدعى جونو ، وقد كان ثبات جنانه كافياً لتوصية القائد به . ولم يكن فتح مدينة طولون وقد تم على يد بونابرت ليجعله بمعزل عن القلق الذي كان رجال الجندي يشعرون به من جراء تحامل رجال الكنفنسيون عليهم .

وكان قد صدر أمر بدعوة بونابرت واستجوابه عن بعض أعمال أجزاها في تعزيز حصون مرسيليا ، الا أن هذا الامر لم يعمل بموجبه . وكان أحد نواب الشعب مستاء من طباع بونابرت فقد كانت تأتي الخضوع لنير الضيم ،

ومنكرًا انفته من الانقياد لاهوائه وأمياله ، فأصدر بحقه تلك الكلمة القتالة التي كان صدورها في ذلك العهد كافيًا لاهلاك الصادرة بحقه أي رفع حماية القانون عنه ، ولسكن هذه الكلمة بقيت هذه المرة باطلة وخالية من المعنى .

وكان جميع أركان الجيش يميلون الى خطب مودة بونايرت حتى أن أحدهم ، وهو مقترن بامرأة ذات جمال رائع وأخلاق لطيفة أبدى له تعلقًا شديدًا وعامله في منزلة معاملة ذوي القربى . ويقال أن بونايرت هام بحب هذه المرأة الحسنة وكان بينه وبينها شأن يذكر حتى أنها كانت أول من لفتت أنظار حكومة السكتفنسيون الى أهلية فاتح طولون في ١٣ فندمييار .

ولقي بونايرت بعد ارتقائه الى عرش الامبراطورية هذه السيدة وكانت الاحداث والنكبات قد ذهبت بتلك المسحة من الجمال التي استهوت نابوليون في ماضى ، فقال لها الامبراطور . لماذا لم تستغني الفرصة من تعرفنا في نيس لتأتي اليّ ، فلي أصدقاء كثيرون أنرفهم من عهد بعيد ، وقد أصابوا جميعهم منزلة رفيعة ولم يقطعوا علاقاتهم بي . فأجابته « واحسرتاه يا مولاي ، لم يبق بيننا معرفة منذ حللت في المركز الاسمي ، ومنذ صرت منكودة الطالع . » وكانت قد فقدت بعلمها وباتت في حالة من الشقاء يرثى لها ، فنجحها نابوليون سؤلها . ولما كان نابوليون يتذكر تلك الايام كان يقول . كنت في عنفوان الشباب وكنت أتباهى باستمالة تلك الحسنة اليّ ، ولذلك كنت أحب أن أظهر ذلك بكل ما يمكنني اظهاره وستعلمون مما سأرويه لكم ما يكون من العواقب الوخيمة لمن يسيء استعمال السلطة وما يكون من حظ البشر . كنت ذات يوم اتزده معها في الموضع المبذية فيه استحكاماتنا في ضواحي مضيق طنند بغية تفقد الاحوال . فخطر لي بغية أن أجعلها تشهد صورة حرب صغيرة ، وأمرت بالهجوم على المقدمة . فانتصرنا ولسكن لم يكن لنا من وراء هذا الامر من نتيجة ، فقد كان الهجوم هوى من الأهواء ومع ذلك قتل في أثنائه بضعة جنود ، وكلما كنت أذكر هذا الحادث فيما بعد كنت احيل على نفسي باللائمة لاجراي اياه »

ان حوادث ٩ ترميدور أوقفت بونايرت وقتيًا في الطريق الذي كان قد تخير انتهاجه وأصاب فيه بعض النجاح . وسواء أكانت علاقاته مع روبسبيار الشاب قد جعلت بعض الناس يسيئون الظن به أو أن حاسدي مجده التلبد قد

تذرعها بهذه الذريعة أو بغيرها ليهلكوه ويتخلصوا منه فقد كنت يده عن العمل وألقي القبض عليه بأمر أصدره ألبيت ولا بورت وساليسي فانهم اعتبروا رحلته الى جنوى جرمًا كبيراً بحسب الانباء التي وردت اليهم من رصيفهم ريكور .

ولما أعلن أن القائد بونا برت غير جدير بثقة الجيش به وتقرر مشوله أمام لجنة الامن العام لم يذعن بونا برت لهذا الاعلان وهذه التهمة ، فحبر في الحال مذكرة رفعها الى النواب الذين أصدروا الأمر بالقبض عليه ، وكانت هذه المذكرة مكتوبة بعبارة مقتضبة يشتم منها رائحة الانفة والشدة ، وهي تعتبر توطئة للخطب والكتابات التي عود نابوليون الناس سماعها وقراءتها فيما بعد . ودونكم بعض فقرات من المذكرة .

« كفتم يدي عن العمل ، والقيتم القبض علي ، وقد فتّموني بالتهمة »
« وهاءنذا أصبحت ملطخ بردة الشرف من دون أن أمثل أمام القضاة للمحاكمة ، وقد حكم علي من دون ان تسمع مدافعاتي »
« في البلاد المنفتحة فيها أبواب الثورة فئتان من الناس . المشتبه بهم والوطنيون . . . فمن أي فئة تريدون أن تعتبروني ؟ »
« أولم أكن شديد الاعتصام بمبادئ الثورة من نشأتها ؟ »
« أولم يروني دائماً في ساحة القتال أواقع الاعداء الداخلين وأنازع الاعداء الخارجيين ؟ »

« ضحيت بلذة المقام في مسقط رأسي ، وهجرت مقتنياتني ، وفقدت كل شيء في سبيل الجمهورية . »
« وخدمت بلادي من ذلك الحين أمام مدينة طولون خدمة جرت اليّ أسباب الافتخار ، واستوجبت في جيش ايطاليا شطراً من غار المجد المحرز في فتح ساورجيو واونايل وطانارو . . . »
« ولما حصر القناع عن مكيدة روبسبيار سلكت مسلك رجل لا يجري الا الى غاية مبادئه . »

« فلا يستطيع أحد والحالة هذه أن يضمن علي بلبق « وطني »
« فلماذا اذن يعلنون أنّي من المشتبه فيهم قبل أن يسمعوها مدافعاتي ؟ »

« انا بريء ووطني وموشى بي ، وكيفما كانت التدابير التي تتخذها للجنة بحقي لا يسعني الا التظلم منها .
« فاذا شهد ثلاثة شهود بأني أثيت جناحاً فلا أستطيع الشكوى من القضاة الذين يبرزون الحكم عليّ
« وهل يليق بنواب الشعب أن يسوقوا الحكومة الى ارتكاب المظالم والجنوح عن الخطة السياسية المثلى ؟
« انصتوا اليّ ، وحطموها قيود الحيف التي تكبلني ، وأعيدوا الي احترام أبناء واطنى .

« واذا طلب الاشرار حياتي بعد ذلك بساعة من الزمان بذلتها لهم مرتاحاً ولم أعتبرها شيئاً مذكوراً ، وقد سبق لي في مواقف عديدة أن غررت بها . . .
على أن التصور الوحيد الذي يجعلني أعتقد بأن الوطن لا يزال محتاجاً اليها يحملني على تحمل عبئها بالشجاعة والصبر الجميل . »
وكان ان هذا الاحتجاج المبني على قواعد الأنفة والنبالة مع ما هو مقرون به من البساطة جعل النواب يتأملون ويعلمون أنهم تفرسوا برجل راجح الحصة شديد الصرامة ، وانهم لا يتسنى لهم اخضاعه لئير الاستبداد والاضطهاد من دون أن يستهدفوا لنبال مقاومة شديدة منه . وحينئذ أهاب التعقل بألبيت وساليسي بالاتفاق مع الجنرال دومريون الى إلغاء قرارهم وقتياً واصدار الأمر باطلاق سراح الجنرال بونابرت المأمول أن يكون من وراء معارفه الحربية والوطنية فائدة للجمهورية .

وألقت حادثة ترميدور في أثناء ذلك بمقاليذ ادارة الشؤون الحربية الى قائد من قواد المدفعيين يقال له أوبري ، ففوض الى بونابرت قيادة المشاة المعينين للخدمة في الفندم . فاستاء بونابرت كل الاستياء من هذا الأمر وبادر عند وصوله الى باريس الى رفع ظلامته الى اللجنة الحربية باسطقاً لها شكواه بكلام شديد اللهجة ، الا أن أوبري أصر على رأيه وقال لبونابرت انه لا يزال شاباً وانه يجب عليه أن يجعل القدماء يتقدمونه من باب « ان الفضل للمتقدم » فأجابه بونابرت . ان الانسان يشيخ في وقت قريب في ساحة القتال وانه قد أدرك هذا الأمر . ولم يكن رئيس اللجنة الحربية قد شاهد نيران الحرب في حياته .



نابوليون بوناپرت ملازم في المدفعية في التويلري « ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٢ »

الا ان هذا الاحتجاج العنيف لم يجعل أوبري يرعوي عن غيه بل جعله يزداد تشبثاً برأيه . وحينئذ لم ير الشاب الثابت العزم مندوحة عن الاستقالة ، فأثرها على الاذعان لمقتضيات الظلم .

الفصل الرابع

— الاستقالة — ١٣ قنديمار — جوزفين — الزواج —

انه لأمر غريب أن نرى هذا المرء الذي دوخ فيما بعد أوربا يثبط عن مواصلة السير على المنهج الذي اختطه لنفسه ، وأن يضطر الى الاستقالة فيحذف اسمه من جدول القواد الفرنسيين العاملين بموجب قرار وقعه مرلين ودواي وبرليه وبواسي دانغلا وكباساريس الذين صاروا فيما بعد يتزاحمون على نيل ابتسامة رضى من هذا الضابط الشاب الذي أساءوا معاملته .

إلا أنه كان بين مدبري حوادث ترميدور رجل لم يشأ أن يدع الدهاء الذي أظهره بونايرت في طولون يذهب سدى ، وكان اسم ذلك الرجل بونتيكولان وقد خلف أوبري في منصبه ، فانه من دون أن يبالي بملامة الحزب السائد وانكاره عمله فوض الى بونايرت وضع الخطط الحربية .

وكان ذلك المركز الخامل الذي لا يلائم أخلاق جندي يري الحركة والمجد والضوضاء شروطاً لازمة لوجوده معتبراً مركزاً عالياً لذلك الضابط الشاب الذي شأوا الوقوف في وجه حظه رغبة في تثبيطه عن المسير في جادة العلياء . وحدث بعد ذلك أن جعل ليتورنور دي لامانش خلفاً لبونتيكولان في رئاسة اللجنة الحربية ، وكان هذا الرئيس الجديد يبغض بونايرت بغضاً شديداً ، حينئذ فقد بونايرت مركزه ، وقنط من التغلب على ما كانوا يظهرونه له من الحسد والبغض ، فحول أنظاره عن الأرض الأورباوية الى الشرق مؤملاً أن يلتقى فيه مجالا فسيحاً لدهائه وأهليته .

ونظم مذكرة بين فيها للحكومة الفرنسية انه من مصلحة الجمهورية عضد الباب العالي وتوفير وسائل الدفاع لديه ليتمكن من الوقوف في وجه مطامع

دول أوروبا ، وكان من جملة ما قاله في هذه المذكرة . « ان الجنرال بونايرت خدم المدفعية من حداثته وتولى شؤونها في حصار طولون وفي معركتين في ايطاليا وهو يقدم ذاته للحكومة لينطلق الى بلاد الدولة العثمانية بمهمة من لدن حكومته

وسيكون من وراء عمله هذا جر مغنم لوطنه ، واذا تمكن من تعزيز قوة الترك واحكام الدفاع في حصونهم المنيعة ، وبناء قلاع جديدة فيكون قد أدى « خدمة جديدة لبلاده » .

وقال المسيودي بوريان . « لو كان أحد كبار رجال الجندية قد ذيل مذكرة بونايرت بكلمة « فليعمل بموجبها » ، لسكانت هذه الكلمة قد غيرت وجه أوروبا . ولكن لم تذيل المذكرة بالكلمة المذكورة ، فان مشاغل الاحزاب السياسية الداخلية وتطاحناتها حالت دون اهتمام الحكومة بهذه الخطة الحربية لانها لم تكن على ثقة من نجاحها . فلم يحمد بونايرت بدءاً من البقاء في باريس بلا عمل .

الا أن الثورة لم تجعله ينتظر مدة طويلة ، فان الحزب الملكي هب من سباته وقد جرأته حوادث ترميدور ، فتدخل مع الاحزاب الباريسية محرضاً اياها على التمرد على حكومة الكنفنسيون فأصاب الثائرون الظفر في بدء الامر لان الجنرال مينو المتهم بالخيانة والمعجز عن النهوض باعباء مهمته سهل للثائرين سبيل الفوز وقد كان مفوضاً اليه أمر مقاتلتهم وتمزيق ثملهم . وتذكر رجال حكومة الكنفنسيون أنهم أبعدوا عدداً كبيراً من الوطنيين المتهمين بئثار الغيرة الوطنية ، وفصلوا من مناصبهم فريقاً آخر منهم ، والقوا في ظلمات السجن جماعة أخرى منهم ، ومع ذلك لبي الجمهوريون المضطهدون نداء مضطهديهم وهبوا الى حمل السلاح لدفع الخطر العام ، ولكن كان الجيش المتألف فجأة يعوزه قائد بعد اخفاق مينو والقاء القبض عليه . فاختر باراس قائداً الا أنه لم يكن قادراً أن يتولى الا قيادة اسمية ، وكان هو نفسه يدرك هذا الامر ، فاتخذ له معاوناً قائداً خبيراً بفن الحرب ، وكان هذا القائد نابوليون بونايرت . فاجاز الكنفنسيون هذا الاختيار باصداره قراراً سمعه بونايرت وهو قاعد في المجلس في الموضع المخصص لعامة الناس . وجاء في « مفكرة القديسة هيلانة » ان بونايرت

بقي نحواً من نصف ساعة يفكر في أمر قبوله أو رفضه المنصب الذي انتدبهوه اليه . فلم يكن ميالاً الى مقاتلة رجال الفنده أو عاقداً عروة عزمه . بلا تردد على محاصرة الباريسيين ولكنه قال في نفسه . لو سقط الكنفنسيون فإذا يكون من أمر مبادئ ثورتنا الكبرى ؟ فان انتصاراتنا العديدة ودماءنا الغزيرة المسفوقة في معارك كثيرة لا تبقى معتبرة سوى أسباب تجر إلينا الذل والعار ، فالأجنبي الذي ظفرنا به غير مرة ينتصر في نوبته ويجرعنا كؤوس المهانة والاحتقار . . . وعليه فان فشل الكنفنسيون ينيل الاجنبي فوزاً مبيناً ويكمل الوطن بأداهم العبودية والصغار . وحيثئذ صمم بونايرت على خدمة الكنفنسيون مدفوعاً الى ذلك بعوامل شبيبهه وثقته بنفسه واستسلامه الى حظه

وكان عزم بونايرت على الانتصار للحكومة وخيم التبعة على مثيري القلاق ، فتقطع نظام الجيش الباريسي بعد عراك دام بضع ساعات وأخذت نائرة الفتنة

وكافأ الكنفنسيون مخلصه بتسميته اياه قائداً أكبر للجيش الداخلي ومن ذلك اليوم صار بونايرت يرى ان القوة الجنديّة في فرنسا أصبحت في قبضة يده وانه ابتداء يصعد أول درجة من السلم التي ارتقى عليها الى العرش بتوليّه لقيادة العليا في العاصمة

فما كان أعظم ما طرأ على حظه من التغير في أربع وعشرين ساعة ! فقد كان في ١٢ فنديميار من المغضوب عليهم وقد ألم به القنوط لاضطراره الى حصر قوة عقله في داخله ، وجعلته المضاعب والعراقيل يشك في أمر مستقبله . ورزح تحت انقال المتاعب السياسية فاستهوته راحة الحياة البيتية ولذتها . ولما انتهى اليه نبأ اقتران أخيه يوسف بكريمة أكبر تاجر في مرسيليا قال . هنيئاً ليوسف !

وفي ١٤ فنديميار تغلبت قوة ارادته على ضعفها وثابت اليه شدة صميمته ، فان المغضوب عليه بالامس أصبح صاحب الامر والنهي في الغد ، وصار النقطة المركزية لجميع الدسائس والمطامع كما كان روحاً لجميع الحركات . ولا يخفى ان الظافر بالاحزاب الباريسية كانت فرنسا الجديدة ترفع رايته ، وحيث لم يكن فوقه سوى جماعة شاخ أفرادها بسرعة باتيان الحركات الخطيرة وتسخير المقصلة

لا هوأهم وأميالهم علق على طامعه الميمون حظ الثورة التي لم يبق نجم الكنفنسيون المائل الى الافول يهديها بمثل البهاء الذي كان يهديها به في صدر عصر الحرية وكان أول أمر باشره بونايرت انقاذ حياة مينو وقد كانت الاحزاب تريد اهلاكه. ومع ما كان عليه بونايرت من الاعتدال في أعماله لم يستطع المغلوبون ان يغيضوا النظر عن فشلهم ويصفحوا عنه لانه كان المسبب لخذلانهم ، وقد اقتصر انتقامهم منه على اطلاقهم عليه تهكبا لقب « المدفعي »

وكان الشعب الباريسي قد جرحت عواطفه وأصابه ذل شديد وتلت تلك الحوادث مجاعة زادت في طنبور استيائه نعمة وجعلته ينفر من رجال الجندية لأنهم أوصلوه الى هذه الغاية . وروى المسيودي لاس كاس انه حدث ذات يوم ان توزيع الخبز قل عن العادة المألوفة فتجهم القوم على أبواب الافران ، وكان بونايرت ماراً ومعه بعض نفر من أركان حربه تفقداً للراحة العامة ، فاحتشد حوله جمع غفير ومعظمه من النساء ووقفوا في طريقه طالبين منه الخبز ، وكان الهياج يزداد والجهالير تكثر وفي الافواه الفاظ التهديد ، فحسب بونايرت لذلك الامر الف حساب ، وقد استازت من بين تلك الجوع امرأة بصخبها وبذاءة لسانها ، وكانت على جانب عظيم من السمن فجعلت تصيح بملء شديها وهي تشير بيدها الى بونايرت ورجاله وتقول « ان جميع هؤلاء الجنود يهزأون بنا . فحسبهم ان يأكلوا ويشربوا ويتنعموا ويسمنوا ولا يهمهم شيء سواء أعاش الشعب أو مات من الجوع » فانهزها بونايرت قائلاً لها « ياخاله انظري الي ، من من الاثنين أسمن من الآخر ؟ » وكان بونايرت هزلاً عاري الاشاجع ، وقد قال هو عن نفسه « انه لم يكن فيه سوى الجلد والعظم . » ولما سمع القوم كلام بونايرت قهقهوا ضحكاً وتفرقوا ، واستأنف بونايرت ورفاقه مسيرهم

وكانت خطورة الحركات الثورية في شهر فنديميار ووفرة التذمر الذي كان يرتفع من كل جهة من جميع الاحزاب ضد حكومة الكنفنسيون داعياً الى نزع السلاح من القوم . وبينما هذه الامور تجري جاء فتي في نحو الثانية عشرة من عمره والنمس من القائد الاكبر ارجاع سيف أبيه اليه . وكان أبوه من قواد جيوش الجمهورية . واسم الفتى أوجين دي بوهارنه فأجاب بونايرت طلبه وأحسن معاملته . فبكى الفتى من فرط سروره وأخبر والدته ما كان من صنيع

ذلك القائد معه ، فرأت من باب اللياقة أن تمضي اليه وتسدي فروض الشكر له . وكانت عقيلة دي بوهارنه فتية وحسنة . فلم تخفى في تلك الزيارة المحاسن التي كان القوم يقدرونها حق قدرها في جميع الاندية الباريسية . فكان لتلك الزيارة وقع عظيم في قلب بونابرت حتى انه صمم على توثيق عرى المودة بينه وبين تلك السيدة ، فكان يقضي عندها جميع سهراته ، ويجتمع في ناديهما بكثيرين من بقايا النبلاء الذين كانوا يسرون كثيراً بمعاشرته ذلك الشاب ، ويلقبونه بالمدفعي الصغير . ولما كان الساهرون يبرحون منزل عقيلة دي بوهارنه ويبقى فيه بعض الاصدقاء الحميمين كالمسيو دي منتسكيو الشيخ والدوق دي نيفرنه كانوا يديرون رحي الحديث سراً على البلاط القديم وينتقلون بالفكر الى فرسايل . ومن الغريب أن يكون بينهم ذلك الشاب ، ولكن يتعجب الذين لا يعلمون ما كان يجريه منذ ذلك الحين من جهة الرسميات مع أنه لم يكن قد تغير عما كان يشعر به من الاحتقار الذي أوحته اليه الفلسفة لمثل تلك الاشياء ، وكان يقذف الذعر على فؤاد الارستوقراطية الاوربية بصفة كونه ممثل الثورة الفرنسية الكبرى .

ولم تكن علاقة بونابرت بجوزفين دي بوهارنه علاقة صداقة محضة ومعرفة بسيطة ، فقد دخل على قلبه حب شديد لتلك السيدة ، واعتبر زواجه بتلك المرأة التي كانت يحبها مجلبة للهناء اليه . فاقرن بها في ٩ مارس سنة ١٧٩٦ . وكانت احدى الزنجيات قد تلبأت لجوزفين بأنها تصير ملكة ، وهذا ما كانت جوزفين تحب دائماً أن ترويه من دون أن تظهر أنها لا تعتقد صحته . وكان اقترانها ببونابرت خطوة أولى أدنتها من تكميم تلك النبوءة .



الفصل الخامس

— حرب إيطاليا الأولى —

وكان شيرار القائد الاكبر لجيش إيطاليا قد عرض قوة الجمهورية وشرفها للنفسل بما أبداه من سوء الادارة والضعف في ميدان الحرب ، فهلك ما كان عنده من الجياد لنفاد العلف ولاحتياج الجيش الى كل شيء ، ولم يبق قادراً على البقاء في جنوى . فعمد الديركتوار الى اصلاح ذلك الخلل بارساله اليه قائداً جديداً يغنيه عن المؤونة والمال وكثرة الرجال ، وكان ذلك القائد نابوليون بونابرت ، فسد دهاؤه مسد كل شيء

وخرج بونابرت من باريس في ٢١ مارس سنة ١٧٩٦ تاركا قيادة جيش الداخلية لقائد طاعن في السن يقال له هاتري

وكانت خطته الحربية مدبرة ، فأزمع دخول إيطاليا بطريق الوادي الفاصل بين جبال الالب وجبال الابنين ، والتفريق بين الجيش النمساوي السرديني باكراهه الجنود الامبراطورية على الدفاع عن ميلانو ، والعساكر البيامنتية على اللدود عن حاصمتهم . ووصل الى مدينة نيس في آخر شهر مارس ، فنقل الى البنغا مركز أركان الحرب العام الذي كان في نيس منذ ابتداء القتال . ولما عرض بونابرت الجيش للمرة الاولى خاطبه قائلاً .

« أيها الجنود ، أنتم عريانون وجائعون ، الوطن مدين لكم بأشياء كثيرة ولكنه عاجز عن امدادكم بشيء . فصبركم وما أظهرتموه من البأس بين هذه الصخور يقضيان بالعجب العجيب ، الا انهما لا يستطيعان ان يحجرا اليكم شيئاً من الفخار . وقد أثبت لامضي بكم الى أخصب أرض في المعمورة ، وستقع في أيدينا أقاليم غنية ومدن طامرة فتصيبوا فيها ثروة واسعة وشرفاً سامياً ومجداً أتميلاً . فياجنود إيطاليا هل تموزكم البسالة والشجاعة ؟ »

فكان لذلك الكلام هزة طرب ورنه ابتهاج في الجيش ، وأحيا موات الامل في الافئدة . فاغتنم نابوليون الفرصة من تلك الحماسة ليخاطب مجلس الشيوخ في جنوى بلهجة غنيقة طالباً منه الترخيص لرجاله بعبور البختا وتسليم مفاتيح غاني . وفي ٨ ابريل كتب الى الديركتوار ما يأتي :

« لم أجد الجيش محتاجاً الى كل شيء فحسب بل وجدته خالياً من روح النظام ومتمرداً على رؤسائه . وقد بلغ منه الاستياء مبلغاً عظيماً جعل بعض الاوشاب يدخلون عليه مبادئ مخالفة لمبادئنا . فانشئت بينهم فصيلة سميت باسم ولي العهد ، وصاروا يتغنون بأناشيد مخالفة للروح الجمهوري . . . وثقوا الآن بأن السلام والنظام سيعودان الى مجراها . وحين يصل اليكم هذا الكتاب نكون قد أصلينا نار الهيجاء . »

وجرى كل شيء على ما زعمه بونابرت وجاهر به ، وكان جيش الاعداء يقوده بوليو وهو قائد همام أصاب شهرة بعيدة في حروب الشمال . فلما انتهى اليه أن الجيش الفرنسي الذي كان حتى ذلك الحين قد لازم بجهد وعناء خطة الدفاع انتقل فجأة الى خطة الهجوم ونهياً للمعبور بجرأة بداخل ايطاليا ، بادر الى مغادرة ميلانو والاسراع الى نجدة جنوى . فنزل في نوفي حيث أقام أركان حربه ، وقسم جنوده الى ثلاثة فيالق . وأذاع نشرة أرسل القائد الفرنسي نسخة عنها الى الديركتوار قائلاً انه سيجابو عليها في غد اليوم الذي تنشب فيه المعركة بين الجيشين .

ووقعت تلك المعركة في ١١ ابريل في منتنوت ، ونال فيها القائد الجمهوري انتصاره الاول المنتمي اليه أصل شرفه .

ولم تكن المعارك الاخرى التالية سوى سلسلة انتصارات باهرة . ففي ١٤ ابريل انتصر في مليسيمو ، وفي ١٦ منه في داغو ، وقد أصاب ثلاثة انتصارات في أربعة أيام ، ونظم في مساء اليوم الذي جرت فيه واقعة داغو تقريراً بين فيه للديركتوار وقائع أعماله المجيدة والسريعة منوهاً بالأعمال الخطيرة التي أتاها رفاقه كجوبير وماسينا وأوجرو ومينار ولاهارب ورامبون ولان الخ ، ومن جملة ما جاء في ذلك التقرير الفقرات التالية .

« أسرنا في هذه الموقعة ٧ آلاف الى ٩ آلاف مقاتل بينهم ليوتنان جنرال وعشرون أو ثلاثون كولونيل أو ليوتنان كولونيل .

« ويتفاوت عدد قتلى العدو بين ألفي محارب وألفين وخمسة مئة محارب .

« وسأبسط لكم في أول فرصة تفصيل حوادث تلك الموقعة المجيدة ذاكراً أسماء الابطال الذين امتازوا فيها »

« وأنفذ الجنرال كولي قائم ميمنة الاعداء كتاباً الى بونابرت يطلب به منه اطلاق سراح سفير كان قد أرسله اليه ، وهو مهاجر فرنسوي يدعى مولان ، وتوعده بأن ينتقم لذلك المهاجر من الضابط برتلمي الذي سقط أسيراً في أيدي النمساويين . فأجابه الجنرال الفرنسوي قائلاً . « ان المهاجر يعتبر مرتكباً جناية القتل بحق أبيه الذي هو وطنه ، وعليه فلا تدفع عنه العقاب أدنى صفة من الصفات ولعمر الحق ان من أنفذ المسيو مولان سفيراً له يكون قد خالف أصول الشرف . ولم يرع حرمة الشعب الفرنسوي . فأنت خير بقوانين الحرب ، ولا أعتقد انك تضع موضع الاجراء تهديدك إياي بالانتقام من الضابط برتلمي أسيركم . وان أنت تجاوزت من هذه الجهة حدود الشرائع المسنونة للحرب أنزلت أنك العقوبة بجميع النمساويين الاسرى عندنا ، وإن أكن أحترم جميع ضباطكم احترامى للجنود الشجعان »

ولم يكن تهديد بونابرت كلمات فارغة ، فقد كان في حوزته عدد كبير من النمساويين الاسرى . وكان جوابه لكولي في ١٨ ابريل

وكان من نتيجة الاعمال الباهرة التي اشتهرت فيها للمرة الاولى اسماء جوير وماسينا وأوجرو تقطيع نظام مؤخرة الاعداء التي يتولى قيادتها بروفيرا واجبارها على التسليم ، والحيولة دون انضمام النمساويين الى البيمنتيين ، وفتح طريقي ميلانو وطورينو في وجه جنود الجمهورية

ولما بلغ القائد الفرنسوي الاكبر مرتفعات منتزيموتو التي احتلها أوجرو في اليوم نفسه الذي اضطر فيه سروريه القائد كولي الى مغادرة سيفا التي كان قد اتخذها معسكراً له ، دل جيشه من ذلك المكان على القمم الشاخطة المغطاة بالثلج والمشرقة على سهول البيامنت الخصيبة ، وقال وهو يشير بيده الى تلك القمم . « حنيبعل اجتاز جبال الانب ونحن درنا حولها . »

وفي ٢٢ ابريل انتصر بونابرت انتصاراً جديداً ، فعبر نهر طانارو واستولى على حصن بيكوك وغنم مندوفي ومخازنها . وفي ٢٥ منه سقطت شيراسك في أيدي الجيش الفرنسوي ، وكان فيها مدافع فعززوا حاميتها . وفي ٢٨ منه تم توقيع هدنة حربية

وكان الجنرال بونابرت قد جاب في ٢٤ منه الجنرال كولي بهذا الكتاب :



نابوليون بوناپرت قائد جيش ايطاليا

« ان حكومة الديركتوار الاجرائية قد احتفظت لنفسها حق عقد الصلح ،
غبناء عليه يجب على المندوبين المفوضين من لدن الملك مولاك ان ينطلقوا
الى باريس أو ان ينتظروا في جنوى وصول المندوبين الذين ترسلهم اليها
الحكومة الفرنسية »

« ان موقف الجيشين الحربي والأدبي يجعل توقيف رحي القتال توقيفاً
مجرداً وبسيطاً في حكم المستحيل ، وأنى مع اعتقادي بأن حكومتى تمنح ملككم
شروطاً شريفة للصلح لا أستطيع توقيف زحني بجنودي استناداً الى مخمينات
مبهمة . ومع ذلك لدينا واسطة تمكننا من الانتهاء الى غايتك وهي ملائمة لمصلحة
حكومتك ومن شأنها حقن الدماء التي أصبح سفكها على غير جدوى وصار مخالفاً
لاسباب الحرب وقوانينها . وذلك بأن تسلمني حصنين من الحصون الثلاثة وهي
حصون كوني والاسكندرية وطرطون ، ولك الخيار في ذلك . »

وكان بعد ذلك ان قد أسلم حصنا كوني وطرطون للجمهوريين وأضيف
اليهما حصن سيفنا ، وحينئذ عقدت الهدنة .

ما أكثر الحوادث التي جرت في خلال شهر من الزمان ! فلم تبقى الجمهورية
خائفة على ثغورها وحدودها ، بل صارت تقذف الذعر على الملوك الذين كانوا
يهددونهم في ماضي الحين . وسأقت اليهم العرب وهم في عواصمهم . وقد تم ذلك
التغير بسرعة عجيبة من دون ان يمد بونايرت بنجندات جديدة ، فانتصر بذلك
الجيش الذي كانت المشقات قد أنهكته والذي لم يكن عنده مدافع وفرسان
وذخائر ومؤن كافية . وكان ذلك الامر بمثابة معجزة أتاها دهاء ذلك الرجل
العظيم ، وحسنة من حسنات الحرية التي قدمت له جنوداً وقواداً جديرين به

وبهت الا جانب عند رؤيتهم تلك الأعمال الكبيرة . وكان الجيش الفرنسي
المعجب بقائده الشاب قلقاً من جهة مستقبله مع جره ذلال الانتصار الذي
لم يسبق له نظير ، وقد فكر بضعف الوسائل التي لديه والتي يقضى عليه باتخاذها
لاستئناف المسير على الطريق الذي خطه له الحظ ، ومعالجة فتح ايطاليا مع
ما يصحب تلك الحال من المصاعب التي لاتذلل . فعمد بونايرت الى ازالة تلك
المخاوف واضرام نيران الحماسة في قلوب رجاله ، فأذاع وهو في شيراسك
النشرة الآتية .

« أيها الجنود ، لقد أصبتم في خمسة عشر يوماً ستة انتصارات ، وغنمتم احدى وعشرين راية وخمسين مدفعا ، وفتحتم مواقع عديدة حصينة ، واستوليتم على أخصب بقعة من قطعة البيامنت ، وأسرتم خمسة عشر ألف جندي ، وقتلتهم وجرحتم أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، ولكنكم لم تحاربوا حتى الآن الا لاحراز صخور صماء لا تفيد الوطن شيئا ، وقد ضارعتكم ببسالتكم الجيش الذي دوخ هولندا وأنحاء الرين . ومع احتياجكم الى كل شيء استغفنتم بجهراتكم عن كل شيء . انتصرتم في المعارك ولا مدافع معكم ، عبرتم الانهار وليس عليها جسورة ، جريتم مسافات طويلة وأنتم حفاة ، نزلتم المعرّس وليس عندكم خر وفي غالب الأحيان لم يكن عندكم خبز ، ولا يستطيع اني يحتمل مثل هذا النوع من شظف المعيشة إلا جنود الجمهورية وجيش الحرية

« الوطن المعترف بالجميل مدين لكم بشطر من هنائه وراحته . وان كنتم عند فتحكم مدينة طولون قد أملتكم نيل انتصار باهر كالذي اصبتموه في معركة سنة ١٧٩٣ وقد خلدت اسمكم ، فانتصاراتكم الحالية تجعلكم تعملون النفس بأمل الحصول على انتصارات أعظم وأكبر

« ان الجيشين اللذين كانا في ماضي الحين يقاتلانكم بكل جرأة وبسالة يهربان الآن أمامكم وهما لا يلويان على شيء . وان اللثام الذين كانوا يهزأون بشقائكم ويسرون في قلوبهم بانتصار اعدائنا خذلوا وباتوا والرعب ملء جلودهم ولكن اعملوا أيها الجنود أنه لا ينبغي لي أن أكنتم عنكم شيئا ، فأقول لكم انكم لم تفعلوا شيئا حتى الآن ، فقد بقي أمامكم أشياء كثيرة لاندحة لكم عن قضائهم . فلاطورينو ولا ميلانو تخصانكم . ولا يزال سفاحو باسفيل يدوسون بأقدامهم رفات قاهري تركينوس

« وقد كنتم في بدء هذه الحرب مفتقرين الى كل شيء ، فأصبح الآن كل شيء متوفرا عندكم ، فالتخازن التي غنتموها من أعدائكم كثيرة ، وقد وصلت اليكم مدافع الحصار ومدافع القتال . أيها الجنود يحق للوطن أن ينتظر منكم أمورا خطيرة ، فهل تحقّقون انتظاره ؟ أجل . ان اعظم المصاعب ذلت ، ولكن بقي عليكم معارك عديدة لا بد لكم من خوض غمراتها ، ومدن كثيرة يجب عليكم فتحها ، وانهار يقضى عليكم عبورها . فهل بيننا من يرق جانبه ، وهل بيننا

من يؤثر الرجوع الى قعم الأبنين والالب لتجرع كؤوس المذلة من ايدي أولئك الجنود الاجلاف ؟ لا لعمرى ، ما من احد من مثل هؤلاء بين المنتصرين في معارك منتنوت ومليسيمو وداغو ومندوفي . فالجميع على السواء ملتهبون بنار الرغبة في حمل مجد الشعب الفرنسوي الى الاقاليم البعيدة المزار ، والجميع يميلون الى تحقير أولئك الملوك المتغطرسين الذين تجرأوا على التفكير باعداد قيود العبودية لنا ، والجميع يريدون أن يجبروا العدو على ابرام أسباب صلح مجيد يكون فيه تعويض لوطن مما ناله من فادح الخسارة . أيها الاصحاب اني اعدكم بنيل هذا الفتح المبين ، ولكن تحت شرط لا بد لكم من التقيد به . وهو ان تحترموا الشعوب التي تنقذونها من نير العبودية ، ولا تأتوا شيئاً من السلب والنهب شأن الاوشاب الذين يحرشهم اعداؤكم على اتيان مثل هذه الاعمال المنكرة وان انتم فعاتم غير ذلك لا تكونون مخلصين لأولئك الشعوب بل تكونون ضربات شديدة عليهم ، ولا تكونون فخراً للشعب الفرنسوي بل تجعلون هذا الشعب يتبرأ منكم فنفقد جميع ثمار انتصاراتنا الباهرة وبسالتنا المشهورة ونجاحنا الممتاز ودماء اخواننا المسفوكة في ساحة الوغى وشرفنا وفخرنا اللذين نضن بهما . وانا والقواد الذين أحرزوا ثقتكم نحمر وجوهنا خجلاً من تولي قيادة جيش نبذ النظام وراء ظهره ولم يعرف له حدا يقف عنده وقانوناً يسير عليه غير قانون القوة . وسأندرع بالسلطة الوطنية واستمد القوة من العدالة والشرعية واجعل تلك الفئة الصغيرة من الناس الخالين من الشجاعة ونبالة المقاصد تحترم شرائع الانسانية وقوانين الشرف التي كانت تدوسها بأقدامها . فلا طيق ابدا ان اشاهد الاوغاد تدنس غبار المجد الذي اصبتموه ، ولا اتردد عند مسيس الحاجة في وضعي موضع الاجراء القانون الذي سننته . فالتهايون ينصبون هدفا لارصاص وقد اجريت حكم هذا القانون بحق اشخاص جنحوا عن الطريقة المثلى ، فتسنى لي ان لاحظ والبهجة تفيض من فؤادي ان الجنود الابل كل كانوا يتسابقون لاجراء الاوامر الصادرة لهم بهذا الشأن

« يا شعوب ايطاليا ، قدم اليكم الشعب الفرنسوي لتحطيم الاغلال التي ترسفون بها . فهو صديق لجميع الشعوب نخفوا بكل ثقة لملاقاته واكرام وفادته ، فتمحترم املاككم وديانتكم وعاداتكم . ونحن نحارب كاعدا كرام ولا نتعمد الاذى الا

للطغاة الذين يستعبدونكم ويستذلونكم»
وكانت هذه اللهجة تدل على ان بونابرت كان اكثر من قائد عظيم فانه
كان داهية من دهاة السياسة المحنكين يشعر بانه مقدر له ان يكون فاتحاً
ومشترطاً ، وان يبذل الجهود لاستثارة الميل اليه في أفئدة الشعوب بمقدار
ما كان يستثير فيها من التعجب منه والاعجاب به ، وذلك بأن يذيع ان جلّ
غايته من تلك الحرب انتقاذه اياهم من أيدي الظلام ، ومعاقبته العتاة ، واحترامه
لديانتهم وعاداتهم

وكان بونابرت على بعد عشرة فراسخ عن مدينة طورينو حين كان يتكلم
بمثل هذا الكلام المعتبر بمثابة مفتاح فتح في وجهه أبواب ايطاليا . فأثر في
فؤاد ملك سردينيا حتى انه فاوضه مفاوضة علنية بعقد الصلح ، وقد ابتدأت
تلك المفاوضة عند ساماطوريس قيم قصر الملك . ولما صار نابوليون امبراطوراً
جعل ساماطوريس قيماً لقصره . وعقدت في شيراسك الهدنة التي مر الكلام
عليها ، ومن جملة شروطها ان ملك سردينيا ينسحب في الحال من المحالفة
ويرسل الى باريس سفيراً مفوضاً اليه ابرام أسباب الصلح النهائي . فأجرى ملك
سردينيا ذلك الشرط بالحرف ، لان جيش الجمهورية كان يضايقه عن كسب
ولا يدع له مجالاً للاخلاف بوعده . فأنفذ الكونت ريفل الى باريس مزوداً
اياهم تعليقات سلبية . وأمضى بونابرت من قبله الضابط مورات الى باريس مفوضاً
اليه ابلاغ أخبار الانتصارات المعتبرة مقدمة للحرب . وكتب الى الديركتوار
« اعقدوا الصلح مع ملك سردينيا بشروط الغالب على المغلوب . . . فان
نويتم خلعه عن العرش فألهوه عدة أيام توقفوني في أثناءها على ما تكونون
قد صممتم على اجرائه ، وأنا أفتح فالفه وأزحف الى طورينو . وحين أظفر
يبوليو أسير اثني عشر ألف مقاتل الى رومية . . . »

واستقبل نواب الأمة هذه الرسالة بمنتهى الابتهاج والارتياح ، وقرروا
للمرة الخامسة في خلال ستة أيام ان جيش ايطاليا استوجب الشكر والمنة من
الوطن . وزاد في الفرح العام عقد الصلح مع ملك سردينيا في ١٥ مايو بشروط
ملائمة كل الملائمة للمصالح الفرنسية
ولما لم يبق أمام بونابرت سوى الجنود الامبراطوريين ليصلهم الحرب

راجع رأيه فيما اذا كان يجب عليه ان يحفظ خط تيزين أو ينتقل الى الادبج
بالسرعة والجرأة اللتين القتا اليه بمقاليد أفضل المقاطعات في مملكة سردينيا في
بضعة أيام وقد ذكر في «مفكرة القديسة هيلانة» الاسباب التي كانت عواملها
تتجاذبه من كل جهة من الجهتين المذكورتين . فالرأي الاول مع انبثائه على
قواعد الحكمة والتعقل لم يكن ملائماً لموقف الجمهورية الحديثة النشأة التي لم
تكن تلقى منتدحاً عن التهويل على المحالفة الا بضربات متوالية ، واثيان
معجزات حربية متواصلة ، ولا لموقف القائد الشاب الذي كانت أخلاقه ومطامعه
تجعله يعقد عرى العزم على اتيان أمور تقتضي همة عالية واقداماً شديداً ،
وتسهل له تمهيد العقبات القائمة في وجهه . وزحف بونابرت بجنوده الى الامام
بعد ما كتب للديركتوار ، « غدا سأزحف لمقاتلة بوليو ، وسأضطره للعودة
على أعقابهِ واجتياز نهر البو ، وسأعبره على أثره ، واستولي على لمبارديا كلها .
والامل اني سأصل الى جبال الطيرول قبل شهر من الزمان للانضمام الى جيش
الرين والعمل معه على محاربة بافاريا . »

وكتب في ٩ مايو الى كارنو أحد أعضاء الديركتوار

« عبرنا نهر البو ، وبأشرنا الموقعة الثانية ، فتوزعت بوليو المخاوف وصار
يخطيء في حسابه ، وينشب اني سار في الفخاخ المنصوبة له . وقد يكون ان هذا
الرجل يريد ان يوقد سعير معركة جديدة ، لان لهذا الرجل جرأة الحق وليس
جرأة الدهاء ومتى أوتينا النصر هذه المرة أيضاً نكون قد استولينا
على جميع ايطاليا . . . وما غنمناه من العدو لا تحصى قيمته ولا يحصر ثمنه . . .

وهاء نذا مرسل اليك عشرين صورة من صنع الكورييج وميكال انجلو
« أسدي لك الشكر على عنايتك الخاصة بزواجتي ، فانا أوصيك بها لانها

معروفة بصدق وطنيتها واخلاصها ، وأنا أحبها محبة تقرب من الجنون . »
وأصاب بونابرت في غد اليوم الذي خط فيه هذه الرسالة الانتصار الذي
كان يتوقعه والذي كان ينتظر من ورائه امتلاك ايطاليا . وقد صير هذا

الانتصار اسم لودي أشهر من نار على علم
وكان هذا الانتصار بمثابة مقدمة لفتح لمبارديا . فسقطت في بضعة أيام في

أيدي الجنود الفرنسيين بتزييفيتون وكرمونا وجميع المدن الكبيرة في مقاطعة ميلانو.

وكان بوناپرت وهو يسمع في معسكره قعقة السلاح يهتم بالفنون من دون أن يرزح تحت أثقال الأعمال الحربية والسياسية ، ويطلب من الديركتوار ارسال مفوض من الصناع ليسلمه الكنوز الفنية الثمينة التي دخلت بالفتح في حوزته . وقد نبذ فيما بعد هذه الكنوز التي كان يستطيع الاستئثار بها .

ولم يقصر اهتمامه على الفنون وازدهارها بل كان يعنى أيضاً بكل ما يتعلق بنتاج العقل ومزاولة الآداب والعلوم ، ويعزز العمران الحديث وبعد عبوره نهر البو بخمسة عشر يوماً بين دوي مدافع لودي ودخان معركة مانطو انسحب من بين جنوده الذين كانوا يتزاحمون على تهنئته واكرامه في ميلانو وكتب للعالم أورياني المشهور بمعارفه الهندسية الرسالة التالية :

« الى الوطني أورياني ،

« يجب أن يخصص محل في الحكومات الحرة للعلوم التي تشرف العقل البشري والفنون التي تزين الحياة وتنقل الأعمال العظيمة من الساف الى الخلف . فيعتبر جميع أصحاب الدماء ، وجميع الذين أصابوا مكانة في جمهورية علم الادب اخواناً بقطع النظر عن البلاد التي نشأوا فيها

« لم يكن العلماء في ميلانو متمتعين بما يستوجبونه من الاكرام بل كانوا معززين في مخبراتهم ، وكانوا يعدون أنفسهم سعداء حين كانوا ينجون من شر الملوك وخدام الدين . وقد تغيرت الاحوال الآن وأطلق الفكر من عقاله في الديار الايطالية ، وأصبح ديوان التفتيش والاستبداد والتعصب الديني أثراً بعد عين . فادع العلماء الى الاجتماع وبسط آرائهم في الذرائع المقضي عليهم التذرع بها ، أو الحاجات التي يفتقرون اليها لاهياء موات العلوم والفنون الجميلة ولينهجوا منهاجاً جديداً . وجميع الذين يميلون منهم الى انتجاع فرنسا تستقبلهم حكومتها على الرحب والسعة ، فالشعب الفرنسي يؤثر نيله عالم رياضيات ومصوراً بارعاً ورجلاً ممتازاً مهما كانت الحرفة التي يزاولها على امتلاكه مدينة مشهورة بالعمران وكثرة السكان .

« فكن يا حضرة الوطني ترجانا لهذه العواطف للعلماء الاعلام الذين في مقاطعة ميلانو — بونابرت — »

وكان القابضون بأيديهم على أزمة الشئون في الحكومة الجمهورية ينظرون بمقلة التحذر الى ما كان بونابرت قد أوتييه من الحكم الصائب والذوق السليم والاستعداد الطبيعي الممتاز والهمة العالية مما يتناول كل شيء ويدل على دهاء واسع ، مع ان أصدقاء فرنسا كانوا ينظرون الى تلك الصفات بطرف الاعجاب وأعداءها بعين التعجب . وكان الديركتوار يرى خلفاً له في ادارة الاحكام في شخص المنتصر في منتنوت ولودي ، ويبذل المجهود لا بعد العهد الذي يتم فيه ذلك الامر وجرى في وهم الديركتوار انه يدرك غايته بضمه قائداً ثانياً الى ذلك القائد الداهية الذي برهن بسلسلة انتصارات غير منتظرة انه يستطيع العمل والانتصار وحده . ولم يخطئ ظن بونابرت في ما كان الديركتوار ينويه بتعيينه كارمان معاوناً له ، وقد جاهر باستيائه من هذا الامر بكتاب سيره الى عضو من أعضاء الديركتوار كان هو يحترمه ويقدر أخلاقه وخدمه ومعارفه حق قدرها . ومن جملة ما كتبه في هذا الكتاب الذي أنقذه الى كارنو ما يأتي . « لا أم تري البتة في أن ضم كارمان الي في ايطاليا يفضي الى فقدان كل شيء ، فلا أستطيع أن اضطلع بالخدمة مختاراً بالاتحاد مع رجل يزعم أنه أول قائد في أوروبا ، وفضلاً عن ذلك اعتقد أن قائداً واحداً ضعيفاً يفوق قائدين محنكين فالحرب كالحكومة مسألة حكم صائب وذوق سليم »

وظل بونابرت بعد ارساله هذه الرسالة يعمل بما توحى اليه افكاره ، ويجري ما يرى اجراءه ملائماً . ودخل مدينة ميلانو في ١٥ مايو باحتفال باهر نادر المثال حين كانوا يوقعون في باريس وثيقة الصلح التي أكرهت حكومة سردينيا على عقدها بعد معارك منتنوت وداغو ومليسيمو ومندوفي

ولم يجرؤ الديركتوار على وضع مقاصده موضع الاجراء بضم كارمان الى بونابرت في تولي قيادة الجيش بل سمى كارمان حاكماً للاقاليم التي ضمت الى فرنسا بالوثيقة المبرمة بين الجمهورية الفرنسية وملك سردينيا وبقي بونابرت وحده مستقلاً بقيادة جيش ايطاليا

وكان اول أمر صرف بونابرت العناية اليه نقل مركز الحركات الحربية الى

الآديج واقامة الحصار حول مانطو . ولم يكن عدد الجنود الفرنسيين يزيد على ثلاثين ألفاً بيد أن جرأة قائدهم قذفت الدعر على افئدة رجال الحكومة النمسوية ، ففكرت حكومة فيينا في الابعاز الى وزمر بترك ضفاف الرين والانطلاق الى ايطاليا بنجدة قوامها ثلاثون الف جندي من أفضل جنوده

ولم يكن بونابرت يجهل ان المعارك اليومية والامراض المختلفة تؤدي بحياة فريق كبير من جيشه وتقلل عدده وتضعفه ، فكان يبسط بالاسهاب واقع الحال في التقارير التي يمضيها الى الديركتوار طالباً منه ارسال مدد اليه ، واصدار الاوامر الى جيش الرين باجراء حركات حربية خطيرة تلهي النمسيين عنه . وكتب بونابرت بعد انتصاره في لودي الى كارنو . « كنت أظن ان رحى القتال دائرة على الرين ، ولو طال اجل الهدنة لهلك جيش ايطاليا على بكرة ابيه ، فيجدر بالجمهورية ان توقع الصلح في قلب بافاريا او النمسا المدهوشة مع الجيوش الثلاثة المنضمة »

وكان يحق لبونابرت ان يطلب مناصرة جيشي الرين وسامبر وموز له لانهم كانوا قد وعدوه عند مغادرته لباريس بأن ذينك الجيشين لا يقومان بهذه المناصرة في منتصف شهر ابريل ولسكنهما لم يتحركا الا في أواخر شهر يونيو ، على أنه لو أجرى ذانك الجيشان حركاتهما الحربية قبل ذلك الحين لما تسنى لورمسر أن يروح المانيا ويصل الى ايطاليا بالنجدة التي قدمت معه .

ولم يصل الى بونابرت ما طلبه من المدد ، ويعزى السبب في تأخره الى عجز حكومة الديركتوار عنه أو الى سوء نيتها ، وحينئذ لم يلق القائد الفرنسي ندحة عن مقاتلته بثلاثين ألفاً جيشاً مؤلفاً من مئة الف محارب ، وقضت الحال عليه بأن يجد الوسائل التي تمكنه من اضعاف قوة العدو الكثير العدد ، فالتى في دهائه وحظه أكبر نصير في مثل ذلك الموقف الحرج . فتفنن في خطته الحربية من زحف وانسحاب وهجوم وتقهر وحركات تدل على الجرأة والسرعة كان يأمل أن يفرق بها بين الجيوش الثلاثة ثم يضم اليه متفرق شمله ويقا تل كل جيش منها على حدة فيظفر به . وكان الفوز التام نتيجة لتدابير ذلك القائد الكبير وتحقيقاً لآماله . وقد عضده في أعماله القواد والجنود الجمهوريون بما أوتوه من الدهاء والشجاعة . وبينما ورمسر يظنه أمام مدينة مانطو خلى حصار



صورة رمزية للنصر يكل نابوليون بوناپرت

هذه المدينة وانتقل بسرعة البرق من البو الى الاديح ومن الكيازا الى المنشيو ، فسكأنه يتوزع ويوجد في الوقت عينه على التقريب في مصادمة جميع فرق العدو . وقد وفق الى تمزيق شملها والظفر بها ظفراً مبيناً في وقائع متوالية أطلق عليها اسم « حرب الايام الخمسة » وجرت في صالو ولونادو وكستليونه الخ . وكان كوزنادو تشقائداً للنمسيين في معظم هذه الانكسارات ، وقد انكسر ورمسر عينه في وقعة كستليونه

واليك تفصيل هذه الحرب على ما تلخصها القائد الظافر وهو في ساحة القتال وأرسلها الى الديركتوار في ١٩ ترميدور من السنة السادسة (٦ أغسطس سنة ١٧٩٦)

« وصل من أيام العشرون ألف رجل المرسله من جيش الرين النمسي نجدة لجيش ايطاليا ، فأصبح هذا الجيش منيع الجانب بانضمام هذه الجنود اليه والى عدد كبير من الفصائل القادمة من النمسا . وقد قام في ذهن السواد الاعظم من الناس ان النمسيين لا يلبثون أن يدخلوا مدينة ميلانو . . .

« ولما انحدر الاعداء من الطيرول بطريق بريسيا والاديح أحاطوا بي من الجانبين ولا يخفى أن الجيش الجمهوري وان يكن ضعيفاً الى درجة لا يتسنى له معها مصادمة فرق العدو كان يستطيع أن يواقع كلا منها على حدة . فقضت على الاحوال أن يكون مركزي في الوسط . وكان ميسوراً لي بتقهقري بسرعة تطويق فرقة الاعداء النازلة من بريسيا وأسرها والظفر بها ، والعودة من هناك الى المنشيو لمقاتلة ورمسر واجباره على العودة الى الطيرول الا أن اجراء ذلك كان يقتضي رفع الحصار عن مانطو بمدة اربع وعشرين ساعة وكانت هذه المدينة قد اوشكت أن تسقط في حوذتنا ولم يكن من سبيل للتأخرست ساعات . وكان ذلك الأمر يقتضي عبور المنشيو في الحال والحيولة دون تمكين فرق العدو من الاحاطة بي . وآتى الحظ ذلك التدبير فكان من نتيجته معركة دتزنزانو ومعركة صالو ومعركة لونادو ومعركة كستليونه . . .

« والتقىنا بالعدو في ١٦ منه عند الفجر . وتلقى الجنرال غيو في ميسرتنا أمراً بالهجوم على صالو . وكان مقضياً على الجنرال ماسينا في الوسط ان يهجم على لونادو وأوعز الى الجنرال أوجرو في الميمنة بأن يهجم على كستليونه .

وهجم العدو على طليعة ماسينا في لوندو بدلا من ان ينتظر الهجوم عليه . وكانوا قد أحاطوا بها وأسروا الجنرال ديجون وغنموا منها ثلاثة مدافع من البطاريات التي تبحرها الخيل ، فتألفت حينئذ من نصف الفصيلة الثامنة عشرة والفصيلة الثانية والثلاثين كتيبة متلازة ، وبينما نحن نهجم على العدو مبتغيين خرق صفوفه كان هذا العدو يمتد شيئا فشيئا ليكتنفنا ، وقد بانت لي حركاته ضامنا حقيقيا لنيل الغلبة ، وسير ماسينا بعض الرماة الى جناحي العدو ليثبطه عن التقدم ووصلت الكتيبة الأولى الى لوندو وأغارت عليه ، وهجمت الفصيلة الخامسة عشرة من الدراغون عليه واسترجعت منه مدافعنا . وما عثم ان أصبح ممزق الشمل ، فأراد ان ينسحب الى المنشيو ، فأمرت في الحال جونو حاجبي بأن يتعقبه زاحفا اليه بفصيلة الهداة حتى يدركه في دزنتوانو ، فالتقى بالسكولونل بندر وقسم من فصيلته وهجم عليه ولكنه لم يشأ ان يضيع الوقت بالهجوم على مؤخرة العدو بل دار حوله من جهة اليمين وأغار على المقدمة فخرج السكولونل بندر وهم بأسره ولكنه أبصر العدو يحيط به ، فتلقاه بقلب كالجامود وقتل منه بيده ستة جنود ، وخانه الجند فسقط في أحد الخنادق مصابا بستة جروح بالسيف ، وقد أخبرت انه لا يزال حيا يرزق .

« وكان العدو ينسحب نحو صالو ، وحيث ان صالو كانت في حوزتنا تمكنا من أسر تلك الفصيلة الهاهمة على وجهها في الوهاد والآكام . وكان أوجرو في أثناء ذلك الحين يزحف الى كستليونه فاستولى عليها وظل سحابة نهاره يواقع عدوا تفوق قوته ضعفي قوته . وقد قام المدفعيون والمشاة والفرسان خير قيام باعباء الواجب عليهم ، وانكسر العدو شر كسرة في كل جهة في ذلك اليوم المشهور ، وفقد عشرين مدفعا ، والفي رجل الى ثلاثة آلاف رجل بين قتيل وجريح ، وأربعة آلاف أسير بينهم ثلاثة قواد . .

« وكان ورمسر سحابة اليوم السابع عشر مهتما بلم فلول جيشه ، وايصال الجند الاحتياطي ، واخراج ما يمكن اخراجه من مدينة مانطو ، وصف رجاله للقتال في السهل بين قرية سكانلو حيث كانت ميمنته والسكريازا حيث كانت ميسرته

« ولم يكن حظ ايطاليا قد تقرر بعد نهائيا ، فجمع فيلقا قوامه خمسة

وعشرون ألف محارب ، وعدداً كبيراً من الفرسان ، وتوهم انه لا يزال قادراً على التمرس بالبخت . فأصدرت الأوامر بضم متفرق جميع كتائب جيشنا .

« وتوجهت بذاتي الى لوناو لارى ما يمكنني أخذه منها من الجيش . ولشد ما كان دهشي عند دخولي هذا المكان حين وافاني مندوب من قبل العدو يدعو قومندان لوناو الى التسليم مهولاً عليه بالحاطة جيش العدو به من كل جهة . والحق يقال ان ديادبة فرساننا أخبروني ان عدة كتائب من الاعداء كادت تتمرس بخفرائنا ، وان طريق بريسيا عند لوناو كان مسدوداً في جهة جسر سان ماركو . فجال في خاطري على الفور ان أولئك الجنود لم يكونوا سوى فلول الفصيلة المتقطع نظامها وانهم بعد ما تاهوا ضموا متصدع شملهم وعمدوا الى اختراق صفوفنا مجتازين الى الوجهة التي توخوا المسير اليها

« وأبهم عليّ الأمر لانه لم يكن معي في لوناو سوى الف ومائتي رجل ، فأمرت بالمندوب ان يمثل أمامي وعلى عينيه عصابة ، وقلت له . اذا كان قائدكم يطمع بالقبض على قائد جيش ايطاليا فما عليه الا أن يسرع في التقدم وبمجب عليه ان يعلم اني أنا الآن في لوناو لان جميع الناس يعلمون ان جيش الجمهورية فيها ، وان جميع قوادكم وضباطكم مسؤولون عن الاهانة الشخصية التي وجهها قائدكم الاكبر اليّ . وقلت له أيضاً ، اذا لم تسلم فرقتكم سلاحها في خلال ثماني دقائق فلا أشفق على أحد منها .

« فدهش المندوب من رؤيتي في ذلك المكان ، وما كان الا دقائق حتى سلمت تلك الفرقة سلاحها ، وكانت مؤلفة من أربعة آلاف جندي معهم مدفعان وخمسون فارساً ، وقد قدمت من غافاردو باحثة عن معبر تنجو به . ولما لم يتيسر لها العبور بطريق صالو في الصباح تخيرت العبور بطريق لوناو .

« وقابلنا الاعداء عند فجر اليوم الثامن عشر وكانت الساعة السادسة صباحاً ومع ذلك لم يكن أحد يتحرك . فجعلت جميع الجيش يتقهقر رغبة بمجر العدو اليينا ، وجاء في خلال ذلك الحين من مركاريو الجنرال سروريه وكنت أنتظر قدومه ، ودار حول ميسرة ورمسر . وكان من وراء تلك الحركة قسم من النتيجة المنتظرة فكان ورمسر يميل الى ميمنته ليراقب حركاتنا .

« ولما لحنا فصيلة الجنرال سروريه بقيادة الجنرال فيورلا تهجم على الميسرة

أمرت الجنرال فرديار بالهجوم على حصن شيدته العدو في وسط السهل دفاعاً عن ميسرته . وأوعزت الى مرمون حاجي أن يصوب على الاعداء عشرين مدفعاً من المدافع الخفيفة ، ويضطرهم الى ترك ذلك الموقع الخطير . واضطرت ميسرته الى الانسحاب بعد اطلاق القنابل عليهم اطلاقاً عنيفاً وهجم أوجرو على وسط جيش العدو الحامي ظهره ببرج سلفرينو ، وهجم ماسينا على الميمنة ، وزحف الجنرال ككلرك بنصف الفرقة الخامسة لنجدة نصف الفرقة الرابعة .

« وزحف جميع الفرسان بقيادة الجنرال بومون الى الميمنة لنجدة المدفعية الخفيفة والفرسان ، وكان النصر محالاً لنا في كل مكان

« وغنمنا من الاعداء ثمانية عشر مدفعاً ومئة وعشرين صندوقاً من الذخائر ، وتقدر خسارتهم بألفي رجل بين قتيل وأسير . وقد انكسروا انكساراً تاماً ، الا أن جنودنا الازحين تحت أثقال الاعداء لم يتمكنوا من تعقبهم أكثر من ثلاثة فراسخ . وقتل من جيشنا الجنرال فرونتان وهو يبلي بالاعداء بلاء حسناً »

« وانجزنا أيضاً حرباً جديدة في مدة خمسة أيام ففقد ورمسر في أبنائها سبعين مدفعاً وجميع صناديق مشاته ، وأسر من رجاله اثنا عشر ألفاً الى خمسة عشر ألف جندي ، وقتل وجرح منهم ستة آلاف ، وفقد على التقريب جميع الجنود الذين قدموا من الرين وفضلاً عن ذلك تمزق شمل عدد كبير منهم ، ونحن نعثر عليهم في أثناء تعقبنا لهم وقدأبدى جميع الضباط والجنود والقوادشجاعة عظيمة في موقفنا الحزج . . . »

واثارت تلك الحوادث الغريبة دفين الحماسة في قلوب الايطاليين الذين اظهروا ميلاً شديداً الى الثورة الفرنسية . وانخلعت قلوب أنصار النمساويين الذين جاهدوا بالابتهاج عند قدوم ورمسر ، وشاطروا الامبراطورين تشاؤمهم واتكلوا على وفرة عددهم وجعلوا يحتفلون قبل الميعاد بظفرهم واخراج الفرنسيين من ايطاليا . وكان الكردينال ماتاي رئيس اساقفة فراي من جملة اولئك المغترين ، فلم يقف عند حد الابتهاج بقدوم النمساويين وانكساراتنا الوهمية التي كانوا يعللون النفس بها بل جعل القوم الممتدة فوقهم ألوية سلطته السامية يأتون اصحالا عدائية نحو الجيش الفرنسي . وبعد معركة كستليونه امر بونا بربت بتوقيفه وارساله الى بريس يا . ولما أخفقت مساعي ذلك الكردينال الثورية

واندحر أصحابه تذل أمام الظافر وطلب منه الصنح والمغفرة . فمنحه بونابرت
سؤله واكتفى بحبسه ثلاثة أشهر في مدرسة أكليزيكية ، وكان ذلك الكردينال
قد ولد أميراً رومانياً . وخوله الكرهي الرسولي من ذلك الحين سلطة واسعة
في طولنتينو .

ولم يكن كبار رجال الدين في ايطاليا ينظرون الى فرنسا بالعين التي كانت
الامة الايطالية تنظر بها اليها ، وقد لقيت الثورة الفرنسية عدداً كبيراً من
الانصار في البيامنت ولبرديا والايغاسيون ، وأظهر الميلانيون ميلاً شديداً الى
الراية المثلثة الالوان ، فقابل القائد الفرنسي الأكبر ذلك الميل بالشكر وكتب
اليهم ما يأتي :

« لما انسحب جيشنا الى الوراء توهم بعض مريدي النمسا وأعداء الحرية انه
هلك ولم يبق من أمل بنجاته . وحين لم يكن مستطاعاً لكم أن تتوهموا بأن
ذلك الانسحاب لم يكن سوى خدعة حربية أبدتكم تعلقاً بفرنسا وحبا للحرية ،
وغيره ومروءة استوجبنا لكم الاحترام من الجيش والحماية من الجمهورية
الفرنسية ، ويزداد استحقاق شعبكم للحرية كل يوم ، ويقتبس نشاطاً كل يوم ،
وسيفرح يوماً من الايام بمجد عظيم على ملعب العالم . فاقبلوا فائق رضائي
وتمنيات الشعب الفرنسي الصادقة ليشاهدكم راتين في بحبوجة الحرية والغبطة »
ولم يقف بونابرت عند هذا الحد بمجاهرته لهم بالتهاني بل استفاد من
حماسهم وحسن استعدادهم حباً لمصلحتهم ومصلحة الجمهورية الفرنسية ومصلحة
التحرير العام بتنظيمه الثورة في ما وراء الالب وأنشأ جمهوريتين في هاتيك
الاصقاع . ولم تثبطه هذه الانشاءات المهمة التي كان يجريها على عجلة بانتقاله من
ميدان الى آخر عن مواصلة الحرب بشدة عظيمة ، ولم يكذب ينجو من الجيش
الاهام الذي فوضت اليه حكومة فينا طرد الفرنسيين من ايطاليا حتى شدد في
محاصرة مانطو من دون أن يتمكن ورمر من نجاتها بالجنود والدخائر إلا في
اليوم الذي استولى فيه الفرنسيون على لينياغو (في ١٣ سبتمبر) بعدما اندحر
في عشر وقعات . وهي في ٦ أغسطس في بسشيارا ، وفي ١١ منه في الكوروناء ،
وفي ٢٤ منه في برغو فرني وغوفرنالو ، وفي ٣ سبتمبر في سرافالي ، وفي ٤ منه

في روفيريدو، وفي ٥ منه في ترني ، وفي ٧ منه في كوفولو، وفي ٨ منه في باسانو، وفي ١٢ منه في سركا .

وفي غد اليوم الذي دخل فيه ورمسر مانطو تمزق شمل بقايا جيشه في دوي كستلي ، واجهزت معركة ساف جورج في ١٥ سبتمبر على ما بقي من الجيش الامبراطوري .

ولم تهمل حكومة فيينا ورمسر في موقفه الحرج فقد كان العاهل النمساوي يعده من أشد قواده حنكة وأكثرم خبرة ، وكان يعلم أيضاً أن مانطو مفتاح ولاياته ، وبذلوا من جراء ذلك في فيينا منتهى الجهد للتعويض عن النكبات التي توالى على البعثة الاولى ، وأرادوا أن يدبروا بتخليص مانطو ورمسر ما كان يسميه الملوك وأنصار الارستوقراطية في أوربا « خلاص ايطاليا » .

وتألف جيش امبراطوري جديد قوامه ستون ألف مقاتل خف لنجدة مانطو بقيادة المارشال، دالفنزي .

ولما انتهى الى بونايرت نبأ زحف ذلك الجيش جعل يتذمر بمرارة من عدم اكتراث حكومة الجمهورية للعمل بأرائه في جهات الرين حيث كانت قوات الجمهورية كافية لالهاء الامبراطوريين . وكان قد كرر طلب ارسال النجدة اليه من دون أن يستجاب طلبه . ورأى مع دوام ثقته بنفسه وبجنوده أنه يجب عليه أن يوقف الدبركتوار على مخاوفه من نتيجة الحرب الجديدة ليفهم الحكومة الفرنسية بصرح العبارة تقصيرها الفاضح نحو جيش ايطاليا باهمال أمره وهو في عنقوان انتصاراته العديدة :

« من المقضي عليّ أن أؤدي لكم حساباً عن الحركات التي جرت من اليوم الحادي والعشرين من هذا الشهر ، فإن لم تجدوا ذلك على ما تبتغون فلا ينبغي لكم أن تنسبوا سبب التقصير الى الجيش ، ان قلة عدده وهلاك عدد كبير من رجاله الاشداء يحملاني على الخوف عليه ، وقد نكون أوشكنا أن نفقد ايطاليا ، فلم تسافر نصف الفرقة الثالثة والثمانين حتى الآن ، وبقيت جميع النجدة الآتية من الولايات في ليون وخصوصاً في مرسيليا . وهم يظنون انه لا بأس من بقائهم هناك ثمانية أيام أو عشرة أيام ، ولا يعلمون أن حظ ايطاليا وأوربا يتقرر هنا في أثناء الوقت المذكور . فقد تحركت الامبراطورية جميعها

ولا تزال متحركة ، وتجعلنا الهمة التي صرفتها حكومتنا في مفتتح الحرب نتصور ما هو جار الآن في فينا . فلا يمضي يوم الا ويصل فيه الى هنا خمسة آلاف جندي من النمساويين ، وقد بسطت من شهرين حقيقة حالنا وحاجتنا الى المدد ومع ذلك لم يصل اليّ سوى فصيلة واحدة من السكتيبة الاربعين مؤلفة من جنود لم يتعودوا خوض غمار الحرب ، وأما جميع جنودنا الأقدمين الذين أوقدوا سعيهم الهيجاء في ايطاليا فانهم يقضون أوقاتهم في الراحة في الفصيلة الثامنة . أنا أقوم بأعباء ما يجب عليّ ، والجيش ينهض بما انتدب اليه . ونفسي تتوزعها المخاوف بيد ان ضميري مستريح . المدد ، المدد ! أرسلوا الي مدداً . لم يبق من وجهه للاستخفاف بالامر ، فنحن لا نحتاج الى جنود ليس لهم من الجندية سوى الاسم ، بل نحن محتاجون الى جنود تعودوا لقاء الاعداء . تنبئوني انكم مرسلون اليّ ستة آلاف رجل ووزير الحرب ينبيء أيضاً انه مرسل ستة آلاف جندي عاملين وثلاثة آلاف جندي تحت السلاح وسيصبح عددهم عند وصولهم الى ميلانو ألفاً وخمسمائة رجل ، وعليه لا يزيد عدد نجدة الجيش على ألف وخمس مئة رجل .

« الجرحى نخبة الجيش ولم يبق ضباطنا وقوادنا المجرىون قادرين على مباشرة القتال ، وجميع الذين ترسانهم اليّنا متناهون في البلاء ، والجنود الذين عندي غير واثقين بكفاءتهم . وكاد جيش ايطاليا بعد ما نقص عدده نقصاً عظيماً يصير الى القناء ، واغتالت المنية فريقاً من الابطال الذين اشتهروا في لودي ومليسييمو وكستليونه وباسانو فقضوا شهداء في سبيل الوطن ، والفريق الآخر ملئ على الاسرة في المستشفيات ، ولم يبق عندنا منهم سوى شهرتهم وأنفقتهم وقد جرح جويير ولان ولانوس وفكتور ومورات وشارلوت ورمبون ودوبوي وبيجون ومينار وشبران . وتركنا في أقصى ايطاليا ، وكان لي جر مغنم من وراء الدعوى بأننا أشداء ، وينشرون في باريس نشرات رسمية تدل على اننا لسنا سوى ثلاثين ألفاً

« فقدت في هذه الحرب عدداً نزرأ من الناس ولكنهم جميعهم من نخبة الرجال ويتمنر علينا ان نلقى من يسد مسدهم . والذين بقوا من الشجعان ينشرون الموت قادماً اليهم ولا محالة في المعارك المتوالية . نحن انما من القرائن الباردة .

وربما دنت ساعة أوجرو الشجاع وماسينا الباسل وبرتيه و . . . فإذا يلم بهؤلاء الاسود ؟ ويجعلني هذا التصور كثير التحفظ ويثبطني عن التعبير بنفسي ومصادمة الحمام لثلا يكون مصرعنا سبباً لقنوط ونكبة الذين التمس منهم امدادنا بالنيجديات اللازمة

« وسنفرغ بعد أيام مجهودنا في مقاتلة الاعداء ، فإذا افتر لنا ثغر الحظ سقطت في أيدينا مانطو ومعها ايطاليا . ولا أدع شيئاً من الاشياء الا وأعالجه بمعاونة جنودي المحاصرين . ولو كانت الفصيلة الثالثة والثمانون قد وصلت الي وقوامها ثلاثة آلاف وخمس مئة جندي وجميعهم من الرجال المجريين لكنت بلغت بهم غاية أمني ، وقد لا تكفيني بعد أيام قليلة نجدة مؤلفة من أربعين الفاً »
الا ان المخاوف التي كانت تجول في خاطر بونابرت لم تتحقق ، فشاء الحظ ان يخالسه هذه المرة أيضاً

وقد سهل على بونابرت ان يهدم في بضعة أيام صروح الامل التي بنتها المحالفة الجرمانية على شهرة دالفنزي وكثرة عدد جنوده فتسمرت مواقد معركة دامت ثلاثة أيام وانتهت بالانتصار الباهر في أركول ، وقد امتاز الجنود الفرنسيون بشجاعة فشل من توخي فلّ حدها من قواد وجنود النمسا الذين شابت نواصيرهم في ساحة القتال . ورأى بونابرت رجاله في هذه المعركة يترددون هنيهة من الزمان في اقتحام نيران العدو المحتل مراكز منيعة ، فترجل وتناول راية واندفع على جسر أركول المتكدسة فوقه جثث القتلى وصاح بملء فيه . « أيها الجنود أولستم أبطال لودي ؟ الحقوقي ! » وحذا أوجرو حذوه . ولم يكن عمله هذا خالياً من التأثير في جنوده ، فغنموا من العدو ثلاثين مدفعاً وأسروا منهم خمسة آلاف جندي وقتل من رجال دالفنزي ستة آلاف مقاتل . وأجبر داويداش على التقهقر الى التيرول ، وورس على العودة الى مانطو .

وها نحن نبسط كيف كان ذلك الظافر في جميع الحروب الالمانية يبيدي مسرته وابتهاجه بأعماله ، وكيف كان يروح الخطار من متاعبه وعناء انتصاراته باظهاره لزوجه حناناً شديداً . وهذا ما كتبه الى جوزفين وهو في فيرونا

« يا جوزفين المحبوبة ! قد تمكنت أخيراً من الانتعاش ولم يبق الموت نصب عيني بل صار المجد والشرف يفعمان فؤادي ، فقد انكسر العدو في أركول ،



نابوليون بوناپرت علی جسر اردکول

وسنصلح غدا ما أفسده فوبوى بتركه ريفولي . وستصبح مانطو بعد ثمانية أيام في حوذتنا ، وسأبرهن لك عن قريب بأنواع شتى وأنا بين ذراعيك عن محبتي الشديدة لك ولا أنا آخر عن التوجه الى ميلانو حالما تمكنني الاحوال . أشعر بشيء من التعب ، وقد انتهت الى رسالة من أوجين وهورتنس ، فهما ولدان متناهيان في اللطف . وحين ينضم الي أعضاء بيتي المتبدد شملهم أبادر الى ارسالهم اليك »

« لقد أسرنا خمسة آلاف رجل ، ولا يقل عدد قتلى الاعداء عن ستة آلاف . الوداع يا جوزفين المحبوبة ، أكثري من الافتكار بي ، فان أنت لم تحي اخيلك ، وان بردت محبتك له استوجبت النفور وركبت مركب الظلم ، ولكنني موقن بأنك ستظلين خليلتي كما أتي سأظل خليلك . فالموت وحده يستطيع أن يصرم أسباب الاتحاد التي ابرمها بيننا الوداد والحب ولطف العواطف ، واصليني بأخبارك ، واقبلي مني ألف وألف قبلة »

وأنفذ ذلك القائد الطاهر في اليوم عينه وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر برومار (في ١٩ نوفمبر) أي في اليوم الذي نشبت فيه معركة أركول رسالة الى الديركتوار أوقفه فيها على ماجرى في ذلك اليوم المشهور :

« فلن العدو ان مصلحته تقتضي اخلاء قرية اركول ، فتوقعنا عند تبليج الفجر أن يهجم علينا جيشه برمته لتوفر الوقت له لاجراج امتعته ووسائله والرجوع الى الوداء للاتقاتنا .

« واشتباك القتال عند تباشير الصبح في كل جهة بعنف شديد ، فهزم ماسينا الذي كان في الميسرة العدو وتعقبه حتى أبواب كازين . والجنرال روبير الذي كان في الوسط بفصيلته الخامسة والسيرش العدو . لارب وقطع نفاه . بعد ما غطى وجهه الارض بالجثث وأمرت الماجور فيال أن يسير على شاطئه الأديج بنصف فصيلته ليدور حول ميسرة العدو ، ولكن لقينا في هذه البلاد مصاعب يعز تذليلها ، فقد غاص هذا الضابط الشجاع في الماء الذي كاد يضره . حتى العنق من دون أن يجني من وراء ذلك الامر فائدة تذكر ، ومن دون أن يلهي العدو كما كان المأمول منه . وأمرت في ايل ٢٦ الى ٢٧ ببناء جسورة على الترع والمستنقعات ، فعبر عليها الجنرال أوجرو بفصيلته . وانضم شملنا في

الساعة العاشرة صباحاً فكان الجنرال ماسينا في الميسرة ، والجنرال روبر في الوسط ، والجنرال أوجرو في الميمنة . وحمل العدو حملة صادقة على الوسط فتزلزلت أقدام جنودنا ، فأخذت الفصيلة الثانية والثلاثين من الميسرة وأقمتها كميناً في الاحراج . ولما هجم العدو بشدة على الوسط وكاد يحيط بميمنتنا خرج الجنرال غردان من كمينه حاملاً على كشيخ العدو وقتل منه مقتلة عظيمة . وأما ميسرة العدو فانها كانت مستندة الى مستنقعات ، وكانت كثيرة العدد ، فتهيئتها بميمنتنا . فأوعزت الى الوطني هرقل ضابط هداتنا بأن ينتخب خمسة وعشرين رجلاً من فصيلته ويسير على شاطئ الاديج مسافة نصف فرسخ دائراً حول جميع المستنقعات المستندة اليها ميسرة العدو ، ويهجم عليه من الورا شائناً الفارة وناfixاً بأبواق عديدة . فكان من وراء تلك الخدعة نجاح باهر ، فتضعضع المشاة وتمكن الجنرال أوجرو من اغتنام الفرصة من تلك الحركة ، ومع ذلك تآبروا على الدفاع وهم ينسحبون ، وكنت قد سبرت من بورتو ليناغو فصيلة مؤلفة من ثمان مئة رجل الى تسع مئة رجل ومعها أربعة مدافع وأوعزت اليها أن تحتل موقعا وراء العدو ، فأجهزت هذه الفصيلة عليه وهزمته .

« إلا أن الجنرال ماسينا الذي حمل على وسط العدو زحف تواء الى قرية ار كول واستولى عليها ، وتعقب العدو حتى قرية بونيفاسيو ولكن حال دخول الليل دون مواصلة توغلنا

» وأبدى قواد وضباط أركان الحرب إقداماً وبأساً نادرين . فقتل منهم اثنا عشر رجلاً وخمسة عشر رجلاً . وكانت تلك المعركة هائلة جداً ، وقد تمزقت ثيابهم بالقنابل .

وعالج دالفنزي النهوض من كبوته ، فعاد معه بروفيرو بطريق مضايق الطيرول إلا أن هذه الحركة الجديدة لم تكن سوى وسيلة أخرى لانتصار الجيش الفرنسي وقائده . فظل النصر في معركة رينفولي ووقعتي سان جورج والفافوريت موالياً للراية الجمهورية ، فأكره بروفيرو وفيلقه على التسليم أمام عيني ورمسر الذي سلم مدينة مانطو بعد قليل من الحين وخرج منها .

واليك ما كتبه بونابرت بهذا الشأن الى أركان حربه في روفرلو بتاريخ

٢٨ و ٢٩ نيفوز سنة ٥ (١٧ و ١٨ يناير سنة ١٧٩٧) .

« مدت العدو نجاة في ٢٤ نيفوز جسراً على انغياري ، فعبرت عليه طلائعه على مسافة فرسخ من بورتو ليناغو . وأخبرني الجنرال جويبر ان كثيية كثيرة العدد من كتائب الاعداء كانت تزحف بطريق منتانا مبتغية الاحاطة بطليعة فصيلة في الكورونا . وبانت لي دلائل عديدة جعلتني أدرك غاية العدو الحقيقية ، فلم أبق مرتاباً البتة في انه طامع بالهجوم بقواته العظيمة على خط ريفولي ليتمكن من الوصول الى مانطو ، فسيرت في الليل معظم فرقة الجنرال ماسينا وسريت بنفسي الى ريفولي فبلغتها بعد نصف الليل بساعتين . وجعلت في الحال الجنرال جويبر يحتل موقع سان ماركو المنيع ، ونصبت المدافع على بطاح ريفولي ، وهيأت كل شيء يسهل علي عند طلوع النهار الهجوم على العدو هجومًا هائلاً

« والتقت بيمينتنا عند تباشير الصباح بميسرة العدو على مرتفعات سان ماركو فكان القتال عنيفاً . وكانت رحي الحرب قد دارت من ثلاث ساعات ولم يقابلنا العدو بجميع قواته . فزحف توأ الى ريفولي للاستيلاء عليها فيلق من العدو سار على ضفة الاديح تحميه مدافع عديدة ، وهددنا بأن يحيط بيمينتنا ووسطنا ، فأمرت لسكران قائد الفرسان بأن يهجم على العدو اذا تمكن هذا من الاستيلاء على بطاح ريفولي ، وأرسلت لاسال بخمسين فارساً من الدراغون لمهاجمة كشح مشاة العدو وكانوا يقاتلون وسطنا وأنزل الجنرال جويبر من مرتفعات سان ماركو بضع فصائل كانت منتشرة على بطاح ريفولي ، فرأى العدو وقد أوغل في تلك البطاح انهم يهاجمونه من كل جهة ، وانه خسر عدداً كبيراً من القتلى وشطراً من مدفعيته ، فعاد الى وادي الاديح وتهايا في الحين عينه للقتال وراءنا الفيلق الذي كان يزحف من وقت طويل ليحيط بنا ويقطع علينا خط الرجوع من كل جهة . وكنت قد ادخرت الكتيبة الخامسة والسبعين للاحتياط فلم تكتف بالقاء الهيبة في قلوب الاعداء بل هجمت على ميسرتهم لما تقدمت وهزمتها في الحال ووصلت في أثناء ذلك الحين نصف الفصيلة الثامنة عشرة وكان الجنرال راي قد احتل به موقعاً من المواقع خلف الفيلق المحيط بنا . فأطلقت لساعتي على العدو مدافع من عيار ١٢ ، وأمرت بالهجوم ، فأسر ذلك الفيلق المؤلف من أربعة آلاف رجل في أقل من ربع ساعة .

« وكنا في كل جهة نتعقب الأعداء المتضعضع نظامهم ، فكانوا كل الليل

يأتوننا بالأسرى ، وقد هرب بطريق الغاردا ألف وخمسة مئة رجل فالتقاهم
خمسون رجلاً من الفصيلة الثامنة عشرة ، ولما عرفوهم حلوا عليهم بجرأة وأمروهم
ب طرح سلاحهم

« وكان العدو باقياً في الكورونا بيد اننا لم نكن نخشى شره ، وكانت
الحال تقضي علينا بالاسراع في الزحف الى فصيلة الجنرال بروفيرا وقد عبرت نهر
الاديج في ٢٤ عند انغياري . فأمرت الجنرال فكتور بالمسير بالفرقة السابعة
والخمس المشهورة بالبسالة والاقدام ، وجعلت الجنرال ماسينا ينسحب ، وكان
قد وصل في ٢٥ الى روفرلو بقسم من فصيلته

« وأمرت الجنرال جوير عند انطلاقي بأن يهجم عند طلوع الفجر على
العدو حين يرى ان الجرأة تدفعه الى البقاء في الكورونا

« وسرى الجنرال مورات الليل كله ومعه نصف فرقة من المشاة السريعي
السير ليتمكن من الوصول عند الصباح الى مرتفعات منتيمالدو المشرفة على
الكورونا . ودحر العدو بعد عراك عنيف وأسر منه من نجوا من معركة اليوم
السابق ، ولم ينج الفرسان الا باجتيازهم نهر الاديج سباحة ، وقد غرق كثيرون
منهم فيه

« وأسرنا ثلاثة عشر ألف مقاتل في اليومين اللذين أصلينا فيهما العدو
ناراً حامية في ريفولي وغنمنا منه تسعة مدافع »

وأودع برنارت تقريره هذا بيان ماجرى في وقعتات سان جورج وانغياري
والنافوريت مع الجنرال بروفيرا : « وفي معركة انغياري الثانية دنا قائد من
قواد النمساويين من إحدى فرق كوكبة الدراغون التاسعة وجعله التصاف المؤلف
عند بني قومه يخاطب الفرنسيين صائحاً بملء فيه . « ساموا » فأوقف دوفيفيه
جنوده وقال للقائد النمساوي . اذا كنت شجاعاً فادن مني وألق القميص عليّ .
فوقف الجيشان ونزل القائدان للمبارزة ، فجرح القائد النمساوي جرحين بسيف
القائد الفرنسي ، فاشتباك الفريقان ودارت الدائرة على النمساويين فسقطوا
أسرى بأيدي خصومهم . . .

« و هجم الاعداء على النافوريت قبل طلوع فجر اليوم السابع والعشرين
بساعة من الزمان حين كان ورمسهم يهجم على خطوط الحصار من جهة سان انطوان .

وكان الجنرال فكتور وهو في مقدمة نصف الفرقة السابعة والخمسين يبطل بكل من يعثر عليه في طريقه . ولم يكدر رمسه يخرج من مانطو حتى أكره على العودة اليها بعد ما ترك في ساحة القتال عدداً كبيراً من القتلى والأسرى . وأمر سروريه الجنرال فكتور بأن يتقدم بنصف الفرقة السابعة والخمسين ليتسنى له التضيق على بروفيرا في دسكرة سانت جورج وابقاؤه اياه محصوراً فيها . وكان الاضطراب سائداً في صفوف الاعداء فاختلط الفرسان والمشاة والمدفعيون بعضهم ببعض الآخر ، ولم يكن شيء من الاشياء قادراً على الوقوف في وجه نصف الفرقة السابعة والخمسين ، فغنمت من الجهة الواحدة ثلاثة مدافع ، والجأت من الجهة الاخرى كوكبة فرسان هردندي الى التسليم ، حينئذ طلب الجنرال بروفيرا الاستسلام مشكلاً على كرم اخلاقنا ، فلم ينجب ظنه ، وقد رضينا بالتسليم بالشروط المرسلة اليكم صورة عنها . وأصبنا في ذلك اليوم المشهور ستة آلاف أسير بينهم جميع متطوعي فينا ، وغنمنا عشرين مدفعاً

« وانتصر جيش الجمهورية في خلال أربعة أيام في معركتين منظميتين وست وقعت ، واسر نحو خمسة وعشرين الف جندي بينهم قائما جنرال وجنرالان وكولونيل ، وقتل وجرح نحو ستة آلاف رجل

« ولم يلق ورمسه بدأ من التسليم بعد جميع النكبات التي لقيها فعلم أن حصار مانطو سينتهي كما انتهت جميع أعمال جيش الجمهورية
« ولما دار البحث على تسليم المدينة المحاصرة أنفذ القائد النمساوي حاجبه الأول الجنرال كلينو الى مركز الجنرال سروريه في روفرلو ، الا أن الجنرال الفرنسي لم يشأ الخوض في مجال البحث في أمر من الامور من دون استئصال القائد الأكبر عن رأيه فيه

« وشاء بونابرت أن يشهد تلك المفاوضة وهي متنكر ، فجاء الى روفرلو متجلبباً بردائه ، جلس على منضدة وجعل يكتب وقت ما كان كلينو وسروريه يتفاوضان . وكان يكتب الشروط على الهامش مضيفاً اليها اقتراحاته على ورمسه . ولما فرغ قال للجنرال النمساوي الذي كان يظنه كاتباً من كتاب أركان الحرب . اذا كان عند ورمسه مؤونة لا تكفيه أكثر من ثمانية عشر يوماً أو عشرين

يوماً ، وكان يطلب الاستسلام فلا يستوجب والحالة هذه أقل مراعاة في استسلامه
فاليك الشروط التي أضعها له »

« قال بونايرت هذا الكلام وناول سروريه الورقة التي كان يكتب عليها »
ثم التفت الى كليانو وقال له . « ستقرأ فيها أن حريته الشخصية تكون مضمونة
له ، فأنا أحترم شيخوخته ومناقبه ، وأحاذر أن أجعله هدفاً لسهام ذوي
الدسائس العاملين على هلاكه في فينا . فاذا فتحت أبوابه غدا كانت له الشروط
التي كتبتها وإذا تأخر عن ذلك خمسة عشر يوماً أو شهراً أو شهرين كانت له
الشروط نفسها ، وعليه يمكنه من الآن أن ينتظر ريثما تنفذ آخر كسرة من الخبز
عنده فأنا منطلق الساعة لأعبر نهر البو زاحفاً الى رومية . وأنت تعلم اذن
ما صحت عليه عزمي ، فامض واخبر قائدكم بكل ماتدريه من أمرنا »

فدهش كليانو من رؤيته ذاته ماثلاً في حضرة القائد الأكبر ، وأبدى علامات
التعجب ومعرفة الجليل مما سمعه ولم يسعه إلا الاعتراف بأنه لم يبق من المؤونة
عند ورمسر إلا ما يكفيه ثلاثة أيام . ولما أحاط ورمسر علماً بما جرى في مفاوضاته
روفربلو أكبر شهامة القائد الفرنسي وقابل عواطفه النبيلة بالمثل بايقافه
بونايرت على سر مكيدة دبرت لاغتياله في رومانية وتولى سروريه في أثناء
تغيب القائد الفرنسي الأكبر مراقبة اجراء الشروط المقررة لتسليم مانطو ،
وكان ذلك في أول فبراير سنة ١٧٩٧

وطرأت بعد تسليم مانطو بثلاثة أيام أمور جعلت بونايرت يستاء من
تصرف البابا ، فأرسل فيلقاً من جنوده الى رومية . وفي ٦ فبراير سنة ١٧٩٧
أصدر عن بولونيه نشرة بتبديء بالعبارات الآتية :

« ان الجيش الفرنسي مصمم على دخول ممتلكات البابا ، وقد تحرى ان
يرعى حرمة الدين ويصون كرامة الشعب »

« يحمل الجندي الفرنسي باليد الواحدة الحسام الضامن له النصر ، ويقدم
باليد الاخرى السلام والحماية والامن للمدن والقرى ، فالويل لمحتقري تقدمته
والمنخدعين بسلامة قلوبهم بدهاء أهل الرثاء والشر ، فقد جلبوا على مواطنهم
الحروب وآفاتهما وانتقام جيش تمكن في مدة ستة أشهر من أسر مئة الف جندي

من أفضل الجنود الامبراطوريين ، وغنم أربع مئة مدفع ومئة وعشر رايات ،
وبدد شمل خمسة فيالق . . »

ولم يكن الكرسي الرسولي يستطيع ان يبدي مقاومة جدية .
فلما رأى بيوس السادس ذاته مهدداً في عاصمته تجاوز عن نفوره من تلك
الاعمال وأغضى جفنه عن عواطفه العدائية ، فبادر الى طلب السلام من القائد
الجمهوري ، فأجاب هذا طلبه بوثيقة عقدت في ١٩ فبراير بالشروط التالية :

- ١ — يتنازل البابا عن جميع حقوقه بافينيون وأملاكه في فرنسا
- ٢ — يتخلى للجمهورية الفرنسية تخلياً دائماً عن بولونيه وفراري ورومانيه
- ٣ — يتخلى أيضاً عن جميع المصنوعات الفنية التي طلب بوناپرت احرازها
كتمثال أبولون بلفيدير وصورة التجلي لرافاييل الخ .
- ٤ — يعيد المدرسة الفرنسية في رومية ، ويؤدي امانة حربية قدرها
ثلاثة عشر مليون فرنك نقوداً وتحفاً

وأضاف بيوس السادس الى هذه الوثيقة براءة باباوية ممتازة أطلق فيها على
بوناپرت لقب « ابنه العزيز »

ان النكبات المتوالية التي نالت الجيوش النمسية ذلت المحالفة وأدخلت
عليها الحشية من دون ان تستأصل شأفة القلى الشديد الذي كانت تشعر به نحو
الثورة الفرنسية ، ومن دون ان تجعلها تميل الى السلم . وكانت تلك المحالفة
المنهكة القوى بالحروب المتواصلة مصرة على اقتحام الأحوال والمثالف بما بقي
لها من الجيوش الجرارة ، ومواقعة الدولة المنتصرة التي زقت شملها بسهولة
وضمضت أركانها وقت ما كانت في أوج عظمتها وشمخ سطوتها . فأوفدت
الارشيدوق شارل الى ايطاليا ليتولى قيادة الجيوش الامبراطورية ويعالج اصلاح
ما أفسده الذين تقدموه في الزحامة . وكان القائد النمسي الجديد يعتقد ان بوناپرت
انطلق بشطر كبير من جنوده لمحاربة البابا ومعاقبته على نقضه وثيقة بولونيه ، فعزم
على انتهاز الفرصة من تغيبه ليهجم على رجاله ، وأمر الجنرال غريو بعبور نهر البرنتا .
الا انه ما عثم ان عرف انه في ضلال مبين ، فعاد بوناپرت الى البرنتا ولم يكن قد أخذ
الى رومية سوى أربعة آلاف أو خمسة آلاف مقاتل وجعل في أول شهر مارس
مركزه في باسانو ، وأذاع النشرة الآتية

« أيها الجنود

« ان فتح مدينة مانطو أنجز حرباً خولتكم ألقاباً خالدة يعترف لكم بها الوطن . قد انتصرتكم في أربع عشرة معركة منظمة وسبعين وقعة ، وأسرتكم أكثر من مئة ألف رجل ، وغنمتم من العدو خمس مئة مدفع من مدافع البر والتي مدفع ذات عيار كبير وأربعة أجهزة من أدوات الجسورة

« ان الضرائب التي وضعت على البلدان التي فتحتوها أنفقت على غذاء وحاجات الجيش في أثناء الحرب ، وفضلاً عن ذلك أرسلتم ثلاثين مليوناً من الفرنكات الى وزارة المالية اعانة للخزينة

« وأغنيتكم متحف باريس بأكثر من ثلاث مئة تحفة من المصنوعات الثمينة المعتبرة نتاجاً للفن في ايطاليا القديمة والحديثة ، والمقتضي إيجادها نحواً من ثلاثين قرناً من الزمان .

« وفتحتم للجمهورية أجمل الاقاليم في أوروبا ، فالجمهورية في النمسا والفرنسا سبادة انية مدينتان لكم بحريتهما ، والراية الفرنسية تخفق للمرة الاولى فوق شواطئ بحر أدريا بازاء مقدونية القديمة وعلى بعد أربع وعشرين ساعة بحراً عنها . وقد انفصل ملكا سردينيا وناپولي والبايا ودوق بارما عن محالفة أعدائنا وجدوا وراء حماقتنا طردتم الانكليز من ليفورنو وجنوى وكريسيكا . ولكنكم لم تنهوا الى الغاية التي تتوخونها ، فأمامكم مجال كبير لتبارى فيه جيااد الحفظ ، وقد علق الوطن عليكم أعز آماله فكونوا جديرين به .

« لم يبق أمامكم من بين الاعداء الكثيرين الذين تحالفوا لخنق الجمهورية في مهدها سوى الامبراطور الذي هبط عن مقامه كصاحب دولة عظيمة مستسلماً لتجار لندرة . ولم تبق له ارادة أو سياسة إلا ارادة وسياسة أولئك الجزائريين الذين تفتر ثغورهم برويتهم مصائب الحرب تتوالى على القارة الاوربية مع بقائهم بعيدين عنها .

« ولم تدخر حكومة الديركتوار الاجرائية شيئاً لالقاء السلام في أوروبا ، ولم يكن لاعتدالها في اقتراحاتها تأثير في قوة جيوشها ، فلم تستر شجاعتكم بل اقتصرت على استثارة عواطف الانسانية والرغبة في إعادةكم الى موطنكم . ولم يكن لصوتها صدى في فينا ، وعليه لم يبق من أمل في الصالح إلا بمعالجة



نابوليون بوناپرت، عند سفره الى مصر

في مدى أربع وعشرين ساعة، وينبغي لكم ان تعملوا اننا لسنا في عصر شارل الثامن وان أنتم خالتم رغائب الحكومة الفرنسية وألجأتموني الى محاربتكم فلا يقع في نفوسكم ان الجنود الفرنسيين يتصرون الجنود الذين سلحتموهم ويمعيثون فساداً في أرض شعب آمن منكود الحظ، فأنا أذود عنه واجعله يبارك اليوم الذي أخرجتم فيه الجيش الفرنسي ليأتي أعمالاً فظيمة تنجي هذا الشعب من نير حكومتكم الجائرة »

وفي ٧ ابريل عقدت هدنة حربية في جودنبورغ ، وكان البرنس شارل قد الى ذاته حاجزاً عن مداومة القتال والاحتفاظ بمضايق نيومارك وهندمارك التي احتلها ماسينا ، وعلم ان اصرار حكومته على موازنة الجيوش الفرنسية لم يكن صواباً . وكان قد انتهى الى بونايرت المتشكل على موافاة جيش سامبر وموز المناصرته نبأ يفيد ان هذا الجيش لم يتحرك ولن يتحرك من مركزه ، ومن ثم لم يتجراً على تجاوز سيمرنغ لثلا يتوغل في البلاد الألمانية من دون ان يكون له ما يستند اليه فيها . ولما وردت اليه رسالة من الديركتوار تلبيته رسمياً بأن جيشي الرين وسامبر وموز لا يستطيعان الهاء الاعداء على ما بين ضرورة ذلك الامر وأهميته بادر الى امضاء رسالة الى الارشيدوق شارل يقترح عليه فيها مشاطرته الفضل بالقاء السلام في أوروبا ووضع حد لما تتجشمه النمسا وفرنسا من الخسارة الفادحة الناشئة عن الحرب الطاحنة . وقد قال له في رسالته « ان الجنود الشجعان يباشرون القتال مع رغبتهم في السلم . أفلا يكفيننا ماقتلناه من البشر، وما جلبناه من الشر على الانسانية التعاسة ؟ . . . فأنت الذي يدنيك أصلك وفصلك من العرش ، وأنت الذي ترفع عن الاهواء الخفية التي تعبت بالوزارات والحكومات هل تشاء ان تستحق لقب المحسن الى الانسانية جمعاء ومخلص ألمانيا الحقيقي ؟ . . . واذا كان اقتراحى هذا يا حضرة القائد الاكبر من شأنه ان ينقذ حياة انسان واحد فاخترت بذلك التاج السلمي الذي استحققت نيله على مفاخرتي بالمجد الزائل الذي أجنبي فماده من دوحة الانتصارات الحربية »

وما عتمت الاقتراحات السلمية التي حواها ذلك الكتاب ان اشتهرت في فينا ، فسكنت قليلاً مخاوف القوم لدنو الراية الجمهورية منهم ، وبادر العاهل الى انماذ فالو النابوليتاني سفيراً الى بونايرت ، فكانت هدنة جودنبورغ نتيجة

لمفاوضتهما . واغتنم بونابرت الفرصة من الهدنة ليتنظم للدركتوار من تصرف جيوش ألمانيا في خلال محاربته في ايطاليا بمسار قليلة العدد جميع قوى الدولة النمساوية المتألمبة . على ان بونابرت مع قلة اكترائه المعاضي وكان يذكره بلا تأسف كان يهتم بالمستقبل ويزيد الحاحاً بطلب مناصرة مورو له طمعاً بنيله شروطاً أفضل من وثيقة الصلح ، أو فوزاً مضموناً عند تجديد القتال بين رجاله والعساكر النمساوية . وهذا بعض ما جاء في رسالته للدركتوار

« حين يعتمد الانسان مباشرة القتال لا يستطيع شيء من الاشياء تثبيطه عنه ، ولم يرو لنا التاريخ قط أن نهراً من الأنهر صد جيشاً من الجيوش عن التقدم . فلو شاء مورو اجتياز نهر الرين لاجتازه ، ولو كان قد اجتازه لكننا قد صرنا الى موقف يمكننا من التحكم في شروط الصلح تحكم الغالب بالانواب ، ولكن الذي يخشى أن يضع المجد يضيعه ولا محالة . عبرت جبال الألب الیولبانية والنورية سائراً فوق ثلوج تباع سماكتها ثلاث أقدام الخ . ولو لم تكن الغاية التي أدعي اليها سوى راحة الجيش ومصالحتي الشخصية لكنت خيمت في ما وراء الايرنزي بيد اني أوغلت في المانيا طمعاً بتخليص جيش الرين ومنع العدو من مهاجمته . وصلت الى أبواب فينا وقد أرسلت الى الحكومة النمساوية المتعظمة المتعطرة مفوضين من لدنها . ان جيش الرين ليس في عروفا دم ولا محالة ، فاذا ظل معرضاً غني وتاركا ايدي وحدي اضطرت الى العودة الى ايطاليا وحينئذ يبرز الملاء الاوربي طراً حكمة على الفرق بين الجيشين »

وبوشرت المفاوضات في ليوبين في ٢٦ جرمينال ووقعت مقدمات الصلح في ٢٩ منه . وقال بونابرت للمفوضين النمساويين « ان حكومتكم أرسلت قبلاً لمقاتلي أربعة جيوش بلا فائد ، والآن ترسل اليّ قائداً بلا جيش . » ولما أراد المفوضون أن من جملة مندرجات الوثيقة المنظمة اعتراف طاهلهم بالجمهورية النمساوية ، قال لهم بونابرت بصوت جهوري . « احذفوا هذا البند ، فان وجود الجمهورية كالشمس في رائعة النهار ، ولعمري الحق ان مثل هذا البند يوضع للعميان »

وكانت الساعة قد دنت للافتسار بجمهورية البندقية ، فان هذه الجمهورية سعت من تلقاء نفسها الى المتالف التي كانت تتوعدها . وكان نبلاؤها الموالين

للنمسا ينتظرون مكاتفتها ونجحاتها من ذلك الفاتح العظيم الذي ظفر بكل من واقعه . وانضم اولئك النبلاء الى خدام الدين الايطاليين ، وأثاروا السكاف الجهال المقيمين على شواطئ بحر ادريا ، وقتلوا في فيرونا في أثناء الاحتفالات بعميد الفصح مقتلة عظيمة من الفرنسيين وكان خدام الدين قد نسوا مهمتهم السلمية والحبية وحرضوا القوم على القتل مزينين لهم ان قتل أشياع الفتنة الفرنسية فعل من الافعال التي يثاب عليها فاعلوها

وأُسرع بونايرت في الشخصوس الى فيرونا لحقن الدماء وإخماد نائرة الفتنة ومعاقبة حكومة البندقية أزجر عقوبة . وقال بونايرت لبوريان كاتبه الخاص في مساء اليوم الذي هب فيه الشعب على الفرنسيين : « قر عيناً فسنقتص من هؤلاء الطغام ، وقد قضي على جمهوريتهم » وبعد أيام كتب للمديركتوار : « ان المنهاج الوحيد الذي لابد من الجري عليه هو تقويض أركان تلك الحكومة الهمجية السفاحة ، ومحو اسم البندقية عن سطح المعمورة »

وذهبت سدى مساعي الحكام في بريسيا وبرغام وكريمونا لاثارة خواطر القوم وحملهم اياهم على الاعتقاد بأن الفرنسيين كانوا سبباً للنكبات التي دهمتهم فكذبهم بونايرت تكذيباً صريحاً بنشرة كانت ضربة قاضية على الارستقراطية البندقية وقد ختمت هذه النشرة بالعبارة الآتية :

« ان القائد الأكبر ينذر وزير فرنسا لدى جمهورية البندقية بالخروج من المدينة المذكورة ، ويأمر مندوبي جمهورية البندقية في لمبرديا وجميع أملاك البندقية بأن يخرجوا منها في مدى أربع وعشرين ساعة ، ويأمر جميع قواد جيشه بأن يعتبروا جنود جمهورية البندقية أعداء لهم ، وأن يحطموا أسد القديس مرقس في جميع مدن هذه الجمهورية . »

وقد وضعت هذه الاذاعة موضع الاجراء من جميع أطرافها ، فدخل الرعب على مجلس البندقية الأكبر فاستقال وألقى بمقاليد السطة الى الشعب وهذا أسند الاحكام الى المجلس البلدي . وفي ١٦ مايو نسب الجنرال باراغواي ديليه الراية المثلثة الالوان فوق ساحة القديس مرقس . وحدثت فتنة ديمقراطية شديدة في جميع الاقاليم التابعة لحكومة البندقية ، فانقذت للزطامة في أثناء

تلك الفتنة دندولو محامي البندقية وأحد الشخصين الفاضلين اللذين عثر عليهما بونابرت في إيطاليا . ونقل أسد القديس مرقس وخيل كورنثوس الى باريس لتزيين قوس النصر في ساحة كروسل

وفي إبان المفاوضات الدائرة مع النمسا انتهى الى بونابرت أن هوش ومورو اجتازا نهر الرين ، بعد ما كان الديركتوار قبل ذلك الحين ببضعة أيام أنبأه بأن عبور هذا النهر قد لا يمكن أن يتم . ولما كان تمنع جيش الرين عن مناصرته قد حذاه على توقيف رحي الحرب والوقوف أمام أسوار فيينا ألغى ذاته مقضياً عليه بأن يشهد ، وسيفه في غمده وقد قيدته شروط الهدنة ، الحركات الحربية التي التمسها على غير طائل مدة شهرين ، وكان من شأنها أن تساعد على رفع الراية الجمهورية فوق عاصمة النمسا . ولا يخفى أن انتصاراته السريعة أقلقت خاطر الديركتوار فصار اعضاءه الخمسة يرون شخص العاهل في شخص فاتح إيطاليا . وهو ذاته اعترف في جزيرة القديسة هيلانة بأنه منذ اليوم الذي اصاب فيه النصر في لودي جال في خاطره انه يمكنه ان يصير ممثلاً فعلياً على ملعب السياسة ، وقال في هذا الصدد ، « في ذلك الحين نشأت في الشرارة الاولى للمطامع البعيدة المنال »

وكان أن رجال حكومة الديركتوار الذين لمحوا تلك الشرارة وأوجسوا خيفة من امتدادها والتهاها صرح الجمهوريين المتربعين هم في قتته ، عمدوا الى الحيلولة دون امتدادها مدفوعين الى ذلك العمل بعوامل الحسد الشخصي والدفاع عن مبادئ الديمقراطية . وكان يشق عليهم أن يشاهدوا اعتراف الوطن بالجميل واعجاب أوروبا بانهصران في شخص واحد ، ولم يشاءوا أن يوجدوا لهذا الشخص السبيل المؤدي الى تعلق الناس به بدخوله فينا وهو يجر ذلاذل الانتصار في مقدمة جميع جيوش الجمهورية وعرفهم بونابرت كما عرفوه فلم يكتف استيائه من ذلك الأمر بل جاهر به في رسائله وأحاديثه . وتمكن الديركتوار من كتمان الاسباب الحقيقية التي جعلته ينهج ذلك المنهاج حتى أن الجنرال بونابرت الذي أسندت اليه قيادة جيش الداخلية بعد شهر فنديمار رسم خطة حربية تعين مدة الحرب وعقد الصلح على قمة سيمرنغ ، وقد بقي رسم تلك الخطة محفوظاً في وزارة الحزب . وبني هو نفسه الحاجز الذي يطمع

الآن باجتيازه ، الا أن قاهر البرنس شارل كانت له أفكار أوسع وأنظار أبعد من أفكار وأنظار قاهر الشعب الباريسي
وكان بونابرت في جزيرة في التاليامنتو لما جاءه البريد بنياً عبور مورو لنهر الرين ، فقال دي بوريان . « لا استطاع وصف التأثير الذي اصاب الجنرال عند قرآته تلك الرسائل . . . فقد بلغ منه الاضطراب مبلغاً عظيماً حتى انه خطر له ان يعبر الى ضفة التاليامنتو اليسرى وينتحل له عذراً لقطع اسباب المفاوضات السلمية . . . وكان يقول : ما كان اعظم الفرق بين المقدمات لو كان هذا الامر قد حدث قبل الآن »

ومن المحقق ان بونابرت ما كان ليظهر تلك الاميال السلمية التي ابداهها في رسالته للبرنس شارل لو كان يستطيع الاعتماد على مناصرة جيوش المانيا له . فـ كان فتح فينا يبتسم له على ان فتح رومية لم يكن ليستغويه كثيراً . ولم تكن خيانة الديركتوار مع ما يخامرها من الحسد والظنون السيئة تمكنه هذه المرة من ارواء غليل مطامعه

وكان في المفاوضات السلمية مماطلات ومماحكات ، فاعتزم القائد الاكبر الفرصة من الهدنة الحربية ويم لمبرديا وولايات البندقية لتنظيم الحكومة فيها . وكان يبحث على غير طائل عن الرجال الا كفاء ليسند اليهم المناصب ، ويقول : « يا لله ما اندر الرجال ؟ ففي ايطاليا ثمانية عشر مليون نسمة ومع ذلك لا القى بينهم سوى رجلين وهما دندولو وملزي »

ولما ضاق صدر بونابرت عن احتمال دسائس الجمهورية ومساعدتها لاحباط اعماله ، وتبرم من مفاوضة المماطلين النمسويين ، قال انه ينبغي الاستقالة من قيادة جيش ايطاليا والاعتزال عن معاشر البشر ليزوق في الوحدة طعم الراحة التي كان بحسب زعمه شديد الاحتياج اليها . على أن ذلك الزعم لم يكن سوى تهويل وهمي لا يشاء البتة وضعه موضع الاجراء . ولم يعتقد أنهم يستطيعون الاستغناء عنه بعد الخدم التي اداها لبلاده ، وأسرار المقدرة الغربية التي تم بها ، والميل الشعبي الذي تمكن من اصابته . وكان متحقيقاً ان نبأ استقالته سيكون له شأن سياسي مهم ينكر الشعب على الحكومة التي سببته باعتسافها وقبلته مدفوعة اليه بعوامل نكران الجميل والحسد ، الا أن ذلك الامر لم يكن

سوى مخاوف فارغة . فاقصر على التظلم بشدة متخذاً لهجة العنف والاستعلاء في رسائله الرسمية . وبعد ما قال انه بالنظر الى واقع الحال اصبحت المفاوضات مع عاهل النمسا حركة من جملة الحركات الحربية مما يجعل السلم والحرب رهن اشارته ويعدده لذلك الموقف الخطير مع اعتبار حظ الجمهورية متعلقاً بحظه ، زعم أنه شبع من المجد وهو يرمي بذلك الكلام الى اقناع المعجبين به وخصومه واعدائه بان المحرك الوحيد للهمة العالية التي ركب مركبها كان مصلحة فرنسا وليس مصلحته الشخصية ومن اقواله في ذلك الصدد « زحفت الى فينا واصبت من الفخر اكثر مما يلزمني لاظفر بالسعادة ، وغادرت ورائي سهول ايطاليا الخصبية كما فعلت في مفتتح الحرب الاخيرة حين كنت اطلب الزاد للجيش الذي لم تكن الجمهورية قادرة على القيام بأوده

وكانت سياسة فرنسا الداخلية تعضد الديركتوار في حسده الذميمة ومخاوفه المنكورة ، فان حركة ترميدور احييت موات الأمل في افئدة الملكيين وقد نهضوا في الانتخابات من العثار الذي اصابوه في شهر فنديمار . وكان من الطبيعي ان يحسب حزب الارتجاعيين الف حساب لنفوذ القائد الذي خلص الجمهورية بانتصاراته الخمسين التي نالها ، وكانت اسباب شهرته ومجده وكيانه مقرونة بخلاص الثورة ونجاحها

وانتهز خطباء هذا الحزب وكتابه الفرصة من حرية اللسان والقلم المطلقة لينشروا جميع الاراجيف ويلقوا في القلوب الظنون المختلفة عن أخلاق بونايرت ومطامعه ، على ان الديركتوار مع ما كان بينه وبين حزب الملكية من الخصومة الشديدة أغضى الطرف عن أقوال هذا الحزب وأفعاله بحق بطل لودي وأركول بعد ما ساءت شهرته السريعة أعضاء حكومته وأعضاها . فأذيع في الصحف وفي منشورات خاصة ، وكثر تحدث القوم في الاندية الخاصة والعامة ان حكومة البندقية ذهبت فريسة لخيانة القائد الفرنسي ومساغيه السرية ، وان جميع تلك المجازر التي قام وقعد لها الملاء السياسي وأنزلت بفاعلها عقوبة زاجرة لم تكن سوى حوادث دبرها دهاء القائد الجمهوري وأركان حربه . وألقى دومولار أحد زعماء الحزب الملكي خطبة دس فيها عبارة تشتم منها رائحة الظنون التي خالجت قلوب الناس . يجلس الشيوخ عن الأسباب التي دعت الى



نابوليون بوناپرت قائد اكبر لجيوش الجمهورية الفرنسية

اهتضام حقوق الامم في البندقية . ولما وقف بونا بورت على جميع تلك الدسائس والمفاسد المراد بها الغض من كرامته وتحقير منزلته وسوق الأذى اليه كتب الى الديركتوار يقول « يحق لي بعدما عقدت الصلح خمس مرات وضربت المحالفة ضربة قاضية ان أقضي عيشة راضية واستذري بكنف كبار الحكام في الجمهورية ، هذا اذا لم يكن يحق لي التمتع بالانتصارات السلمية ، والآن أراني وقد حل بي الاذى ، ونزل بي الاضطهاد ، وسودت صحيفتي بجميع الوسائل المصحوبة بالخزي مما تجره السياسة الى ايقاع المضرة . . .

» لقد فتك بنا الخونة فهلك منا أكثر من أربع مئة رجل ، ولعمر الحق ان كبار حكام الجمهورية يجنون عليها لاعتقادهم ان أولئك الرجال من مرتكبي الجرائم .

» وأنا أدري ان قوماً يقولون « وهل هذا الدم حر ؟ » لا أشكو من الطعام ومن ماتت في نفوسهم عواطف الوطنية والمجد الوطني لتفوههم بمثل هذا الكلام ولا أكثر لهم واسكن يحق لي ان أتظلم من كبار حكام الجمهورية لتحقيرهم مكانة من عظموا مجد الاسم الفرنسي وشرفوه

» يا أعضاء الديركتوار ويا أركان الوطن ، أكرر عليكم تقديم استقالتني ، فأنا محتاج الى قضاء عيشة راضية ساكنة على شريطة ان تنبؤ عن حياتي مدى كليشي

» فوضتم اليّ أمر المفاوضات السلمية وأنا لا أصلح لها

وكان قبل ذلك الحين بمدة قصيرة قد كتب الى كارنو بطريقة خاصة ما يلي . « يا حضرة العضو ، انتهى الي كتابك وأنا في ساحة القتال في ريفولي فعلت ما كان من شقشقة لسانهم بحقي فرثيت لهم . وكل منهم يجعلني ألق على هواه ، وأظن انك تعرفني حق المعرفة ، وانك لا تتصور البتة أنني أرضى بأن يتسلط أي كان على أفكاري . لقد سبق لك ان جعلتني أطيل دائماً لسان الثناء على علائم الصداقة التي أبديتها نحوي ونحو ذوي ، وسأدخلك شكراً حقيقياً عليها . ان قوماً لا يلقون لهم بداً من البغض وحيث لا يتسنى لهم هدم صرح الجمهورية يكتفون بالقاء بذور الشقاق والخلاف أيا ن ساروا ، ومهما قالوه عني فلا يستطيعون إلحاق السوء بي فلا يهمني سوى احترام بعض نفر من الناس ممن هم على شاكلك

وإكرام رفاقي والجنود، وفي بعض الاحيان اعتقاد الاجيال الآتية بي، وفوق ذلك كله راحة ضميري وسعادة وطني»

وقد شاء بونابرت ان يجيب بذاته علي ما كان حزب الملكية يبثه من الاراجيف عن البندقية فأذاع في الجيش نشرة مغفلة ضمنها دحضاً لا كاذب ذلك الحزب وتخرصاته وبيانا للحقيقة. ولم يكن بونابرت صادقاً في تقديم استقالته. وأما قوله بأنه لا يصلح للمفاوضات السلمية فهو مردود بالحادث الآتي بيانه المتعلق بمفاوضات كمبيو فرميو، وقد رواه بونابرت نفسه في جزيرة القديسة هيلانة «كان المسيودي كوبنتزل رجل الامبراطورية النمساوية روح مقاصدها وأعمالها ومدير سياستها. وقد تولى السفارات الخطيرة في عواصم أوروبا، وأقام مدة طويلة لدى كاترين قيصرية الروس، ونال عندها حظوة خاصة. وكان يتباهى بمقامه وأهميته، ولا يرتاب في ان رفعة مركزه وسمو أطواره وتعوده الرهيمات تجعله متفوقاً على قائد خارج من الجيوش الجمهورية

فدنا باستخفاف وخفة من القائد الفرنسي، الا ان هيئة هذا الأخير وكلماته الأولى جعلت ذلك الرجل يدرك خطارة موقفه ويأبى الخروج منه. وقال المسيودي لاس كاس ان المفاوضات دارت في بدء الأمر ببطء وكان المسيودي كوبنتزل على عادة الحكومة النمساوية يظهر براعة في المماطلة بمجرى الأحوال بيد ان القائد الفرنسي صمم على انجازها، وكانت الجلسة التي قرر بأن تكون خاتمة المفاوضات ممتازة عن غيرها بشدة اللهجة، ولما أبى المفوض النمساوي العمل باقتراح بونابرت نهض هذا وفي عينيه شرر الغضب وصاح بصوت جهير. «أنتم تريدون الحرب، فليكن ما تريدون!» قال هذا الكلام وقبض بيده على ابريق من الخزف كان المسيودي كوبنتزل يفتخر كل يوم بقوله ان هذا الابريق هدية من القيصرية كاترين الكبيرة، وطرحه على الارض بكل قوته فتحطم تحطماً، وصاح حينئذ به فائلاً «هكذا تصبح مملكتكم النمساوية قبل ثلاثة أشهر» ثم انه خرج مسرعاً من الردهة، ولبث المسيودي كوبنتزل كالمنزول به. وكان معاونه ألطف أخلاقاً منه فصحب القائد الفرنسي حتى مركبته وهو يعالج ابقاءه ومنعه عن الذهاب. وقال الامبراطور «انه كان يحيني بقبعته مرات عديدة بهيئة تستدعي الشفقة حتى اني مع ما كنت أشعر به من

الغضب الشديد لم أكن أستطيع الامتناع عن الضحك في الداخل » على ان الطريقة التي توخاها بونابرت في المفاوضات مع ما كان يزعمه من عدم صلاحه لها انتهت الى الغاية التي كان يرمي اليها ، فقد كان التهويل في مثل ذلك الموقف أفضل من الملاينة ، وكانت الحال تقتضي مثل ذلك التصرف ليسهل وضع حد للماطلات النمسوينة ومراوغاتهم ، واضمار حكومتهم أفسكار السوء وراء تلك الظواهر الخداعة ، فأراد بونابرت التعجيل للوصول الى غايته بتعطيمه على الصورة التي مر بيانها هدية القيصرية للسيو دي كوبنزل . وقد كانت طريقة العنف هذه المرة أجدى نفعاً للمصالح الفرنسية وأشد فعلاً من سياسة اللين التي يتحداها من شابت نواصيهم في التمرغ على أعتاب البلاط . وكان بونابرت يعرف الحين الذي يلائم فيه الظهور بمظهر الغضب ، ويمكن القول بأنه اذا كان ذلك الداهية قد تعدى حدود اللياقة وخالف أصول الرسميات المرعية فما ذلك الا لخدمة وطنه والانسانية بتعجيله في ابرام أسباب الصلح

وبينا بونابرت يتوقد من الحنق في ايطاليا من جراء الماطلة في المفاوضات السياسية ، وحالة السكون التي أوصلته اليها مقاصد الديركتوار السيئة ، والاهانات التي كانت توجهها اليه الاحزاب الداخلية من جميع الجهات بواسطة المهاجرين والمراسلين المأجورين ، كانت الاكثرية من الحزب الملكي في المجلسين تهدد كيان الديركتوار ، وكان اليوم الثامن عشر من شهر فركتيدور (٤ سبتمبر سنة ١٧٩٧) يقترب .

وكان ان جيش ايطاليا المنتصر في معارك عديدة تحت ظل الراية الجمهورية ، والقائد الهام الذي تنقل به من انتصار الى انتصار لفتا انظار الفريقين ، فأثارا دفين الخاوف في صدر هذا وانعشا ذابل الآمال في قواد ذلك . وقد رأى بونابرت بعد ما كان في الماضي لا ينجو من وقية الحزب الملكي والديركتوار جهاراً وسراً ان القوم في كل جهة يبحثون عنه ويسعون وراء التقرب منه ، حتى ان طرنسون دو كودراي أحد مشاهير الخطباء الملكيين لم يأنف من اطلاق لقب « بطل » على مدفعي ١٣ فنديمياري قائلًا عنه انه امتاز بالمواهب التي يؤتاها من تولى المفاوضات السلمية بعد ماضاهى في فن الحرب أشهر القواد في مدة ثمانية أشهر

الا ان هذا المديح الصادر لغايات في النفس عن رجل داهية لم يكن من شأنه ان يخفى القلى الذي كان حزبه يشعر به نحو بونايرت وينفث سموه على صفحات جرائده وفي أنديته ، وكان أوبري عدو بونايرت القديم زعيما من زعماء هذا الحزب ، فاستند الى مظاهرة بعض الخطباء المتطرفين وطلب فصل بونايرت من منصبه وإلقاء القبض عليه وقد كان ذلك الامر كافياً لحمل بونايرت على تخير الجهة التي يعيل اليها ، بيد انه كان يحتقر الديركتوار ، ولم يكن يرى بين أعضائه من يستحق الاكرام سوى كارنو المشهور بما أوتيته من المقدرة السياسية والادارية ، وما أداه لوطنه من الخدم الجليلة ، وما امتاز به من كرم الاخلاق وعلو الهمة

وانفصل كارنو عن الاكثرية في المجلس مراعاة للمبادئ الدستورية التي كان الحزب الأنف الذكر من أشد المعارضين لها ، ومع ذلك كان تفوذ بونايرت وقد ناله بأعماله الماضية وبعد نظره في العواقب وذكرى ما تتيه أقوى من احتقاره لباراس واحترامه لكارنو

وكان حين صمم فيه بونايرت على الزحف الى باريس ماراً بمدينة ليون بخمسة وعشرين الف مقاتل ، ولو بقيت الاقدار مهادنة للملكيين في العاصمة لكان قد وضع ما قصده موضع الاجراء ، على ان الامر الذي جعله يسخر بنوع خاص حسامه لخدمة الديركتوار ومناوأة الاكثرية في المجلس هو اكتشاف خيانة يبشغرو زعيم هذه الاكثرية ، فاكتشفت علاقاته بالاجانب وقت ما قبضوا على أوراق السكونت دنتراغ أحد أصحاب الدسائس في الحزب الملكي فألقي القبض على ذلك النبيل في ولايات البندقية بعد ما كانوا أطلقوا له الحرية على ان يظل مقيماً في ميلانو ، بيد انه فر الى سويسرا وطبع نشرة ضمنها من لواذع الكلام بحق بونايرت ما تنبؤ عنه الاستماع مع انه كان من المقضي عليه ان يطيل بحق قائد جيش ايطاليا لسان المدح بدلا من لسان القدح

وجاش صدر بونايرت غيظا من جراء تلك الامور ، وجعل يكسر الارباط على الاجانب ، فأنفذ باسم جيش ايطاليا رسالة ملؤها التهويل على المجلسين وتسكين بال الديركتوار ، ومن جملة ما قاله في تلك الرسالة . « هل تتوهمون أن طريق باريس اوعر من طريق فيينا ؟ فسيفتحه لنا الجمهوريون المحافظون

على عهد الامانة للحرية ، ومتى انضم شملنا نستطيع الذود عن حياضها والتنكيل بأعدائنا

« ان قوماً من الألى جملهم العار ، واشراًبت أعناقهم الى الانتقام ، وتخممت نفوسهم من الجرائم يتحركون في باريس وينسجون برود الدسائس ، ونحن نظفر بالاعداء أمام أسوار فيينا . . . فيا من جعلتم الاحتقار والشنار والمذلة والموت من نصيب المدافعين عن كرامة الجمهورية ، ارتعدوا . فمن الأديج الى الرين والسين خطوة واحدة ، ارتعدوا . فظالمكم محصاة ، وعلى أطراف نصالنا العقاب عليها . »

واختار بونايرت لمل تلك النشرة أوجرو وهو أحد معاونيه ، وهذا لم يكن يخطر بباله قط أن يشغل المحل الاول ويكشف شمس القائد الاكبر . وأما المال الذي طلبه باراس بلسان بوطوكاتبه لكي يسهل له سبيل النجاح في اليوم المنتظر فقد اكتفى بونايرت بأن يعده به من دون أن يؤديه له البتة . وأنفذ الى باريس حاجبيه لافاليت متكلاً على غيرته وألمعيته ليوقفه على كل شيء ، ومفوضاً اليه العمل بحسب مقتضيات الأحوال

ويبتدىء من هذا الحين تاريخ العلاقات بين بونايرت وديزه ، فقد كان ديزه وهو في جيش الرين يتتبع عن بعد والتعجب بالغ منه الانتصارات التي اصابها قائد جيش ايطاليا الاكبر ، فاغتم الفرصة من هدنة ليوبن وجاء ليتأمل عن كشب ذلك القائد العظيم . ولم تكده عين الواحد منهما تقع على الآخر حتى تقاهما وتحابا . وكان في احدى محادثتهما ان بونايرت اراد ان يستودع صديقه الجديد سر خيانة بيشغرو ، فأجابه ديزه : ولكننا عرفنا ذلك من ثلاثة أشهر ونحن على الرين ، فقد غنمنا من الجنرال كلنغلن مركبة عثرنا فيها على الرسائل المتبادلة بين بيشغرو وأعداء الجمهورية . فقال بونايرت أولم يبلغ مورو ذلك الامر الى الديركتوار ؟ فقال ديزه . لا فقال بونايرت : لقد ارتكب جريمة فظيعة فالصمت في مثل هذه الحال يعد مشاركة في الخيانة ومسبباً لاستهداف الوطن لسهام المخاطر . ولما صدر الامر بنفي بيشغرو بعد ١٨ فركتيدور بادر مورو الى كشف أمره بطريقة فاضحة فقال بونايرت . « انه يتأخره عن

الشكوى منه خان الوطن ، وبتكلمه عنه متأخراً جعل ذلك التاعس يروح تحت
أثقال العقاب »

وسر بونايرت سروراً عظيماً لما انتهى اليه نبأ فشل الحزب الملكي وصدور
الاحكام العرفية بحقه ، فقال له اوجرو . ياسيدي القائد ، نهضت بأعباء مهمتي
وانجزت هذه الليلة مواعيد جيش ايطاليا .

ولما سقط عن الديركتوار النظر في امر الممسكين ناب اليه حسده الخفي
لبونايرت ، ومع معرفة الديركتوار ما كانت أفكار القائد عن ١٨ فركتيدور
بعد جميع الرسائل التي جاءت منه وتضمنته من الالحاح الشديد بوجوب اجراء
تلك الضربة العنيفة أذاع في باريس أن رأي بونايرت في حوادث ذلك اليوم
كان مخفوفاً بالشك ، وكان الديركتوار ينوي نشر هذا الامر بين الجيوش ،
فقوض الى اوجرو أن يوجه الى جميع القواد النشرة التي كان مقضياً على القائد
الاكبر أن يوجهها اليهم ، وحين وقف بونايرت على جميع تلك التدابير عمد الى
اظهار استيائه وحنقه بكتابته الى الديركتوار ما يلي :

« من الثابت أن الحكومة عاملتني على التقريب بالمعاملة نفسها التي عاملت
بها بيشغرو بعد شهر فنديمار من السنة الرابعة

» ارجو ان تقبلوا استقالي وتسموا خلفاً لي ، فلا تستطيع قوة ارضية
ان تجعلني اواصل الخدمة بعد ما اظهرته لي الحكومة من تكران الجميل وان
لم اكن اتوقعه . فصحتي المعتلة تقتضي الراحة والسكينة . وحالة نفسي محتاجة
الى معايشة بني وبناتي لتتقوى ، فارى من وقت طويل سلطنة عظيمة ملقاة
مقابلينها الي ، وقد زاولت هذه السلطة في جميع الاحوال في سبيل مصلحة
وطني . فليخسأ الذين لا يعتقدون بالفضيلة والذين يرتابون بفضيالي . خبير جزاء
لي هو راحة ضميري وماتظنه الاجيال الآتية عني . . .

« وثقوا بأنه اذا ما كان الوطن معرضاً للخطر كنت في مقدمة الناهضين
للدفاع عن الحرية ودستور السنة الثالثة »

ولم يشعر الديركتوار من نفسه بمقدرة على مقاواة ذلك الجندي المصور
مقاواة ظاهرة وموجهة اليه رأساً ، فظل دافئاً لسره وبادر الى ارسال
الايضاحات والاعتذارات اليه تسكيناً لغضبه ، وقال له « خفف من المتأربين

الملكيين فانهم وهم يدسون السم لهوش يعالجون أن يدخلوا عليك النفور والتحفظ مما يقول إلى حرمان وطنك جهد دهائك »

ولم يكن بونابرت في الحقيقة متبرماً من قيادة الجيش كما كان يريد ان يتظاهر به . فظهر رضاه عن تلك الايضاحات ، وجعل يرسل بطريقة خاصة بعض الوزراء وبعض اعضاء الديركتوار عن حوادث الحرب وشروط الصلح واهم مسائل السياسة العامة . وقال انه يميل من ذلك الحين الى الاعتدال والرفق لزوال المخاطر وقتياً عن الجمهورية في الداخل والخارج . وكتب الى فرنسوى دي نوشاتو يقول له « ان حظ أوروبا معلق بما تبديه الحكومة من الاتحاد والحكمة والبأس ، ففي الامة فئة صغيرة لا بد من قهرها على يد حكومة صالحة .

« ان قرار حكومة الديركتوار الاجرائية يززع العروش ... فحذار ان تجمعوا الكتبة المأجورين والمتعصبين الطماعين المتسترين ببراقع مختلفة يقذفون بنا الى تيار الثورة »

وكان رجل قد امتدت شهرته منذ التثام الجمعية الدستورية ، وظلت تتعاضد من ذلك الحين بمشاطرته دهاة بلاده تأليف أنواع الحكومات التي جعلت فرنسا تفتقل من طور الى آخر ، وبتقويضه أركان تلك الحكومات حتى صارت فرنسا الى حالتها الحاضرة . وكان ذلك الرجل يقال له تاليران ولم يكن همه الاتحبة الشمس المشرقة .

فسمى في ذلك الحين لفتح أبواب المفاوضات مع بونابرت . وكان يبعث اليه بتقارير سرية . وكتب اليه عدة رسائل عن ١٨ فركتيدور بلهجة تمحي لمهجة رجل ثوري مغال في الثورة . فذلك الرجل الذي بذل المجهود فيما بعد ليجلس على العرش فرعي سلالة البوربون ، وتظاهر بشدة الميل الى سلالة ارليان ، كان يبين بكل حماسة لامباطوره المستقبل والمعبود الذي قدم له البخور ثم سحقه أنه قد صدر الحكم بالموت السريع الذريع على كل من يسعى لاطادة الملكية ودستور سنة ١٧٩٣ أودستور أرليان

وانتهت الى بونابرت هذه المقدمات من زعيم الحزب الذي كانوا يسمونه « حزب الدستوريين والسياسيين » فاستقبلها وهو شديد الرغبة في اعداد

المعدات للمطامع العظيمة التي كانت رياحها تهب في صدره، وكان يشعر بأن ساعته لم تكن بعد قد دنت ، وأنها أوشكت أن تدنو ، فاستفرغ الوسع لاستمالة دهاة السياسة اليه ليجعلهم يتحركون على هواه وقت ما تصير الاحوال مؤاتية له . وحين نرجع بالفكر الى الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها في فرنسا قبل ١٨ فركتيدور وبعده ، ونذكر سقوط هيبة أعضاء الحكومة ، وفساد بعضهم وضعف البعض الآخر نظن أن بونايرت كان شديد التحفظ أو كثير الجبن ، وأنه لم يكن معتقداً أن نفوذ اسمه وملائة الاحزاب يكفيان لأن يجعلاه يقدم على العمل الخطير الذي كان يتوخى اجراءه والذي ظهر به فيما بعد ، وكان يتراءى له أن شهرته يجب أن تتعزز بأثر جليلة جديدة وازدياد نفور سوقة الناس من مساويء الديموقراطية . وقد يكون افتكاره بحملة مصر ينتمي الى ذلك الحين ، وهذا ما افتكر به كثيرون من الناس بعد قراءتهم للنشرة التي أذاعها في ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٧ على بحارة أسطول الاميرال برويكس ، ونوه فيها بانتصار الديركتوار على الخونة والمهاجرين الذين تربعوا في دست المنبر الوطني فقال فيها لأولئك الشجعان البسل . « لا نستطيع بدونكم أن نبلغ بمجد الاسم الفرنسي الا الى زاوية صغيرة في أوروبا ، وبكم نجتاز البحار رافعين الراية الجمهورية فوق بلدان بعيدة المزار »

الا أن تحقيق تلك المقاصد الواسعة كان يقتضي عقد الصلح في أوروبا فلم يبق للنمسا بعد حبوط آمالها في ١٨ فركتيدور من وسائل للماطلة في المفاوضات السامية ، وأبدى الديركتوار المنتفخ بانتصاراته على الملكيين محالفي الامبراطور ميلا الى الحرب فكتب الى بونايرت :

« لا تراع للنمسا جانباً فان خيانتها وعلاقاتها بالمتآمرين في داخل البلاد قد ظهرت كالصبح لذي عينين » ولم تكن مقاصد الديركتوار منطبقة على مقاصد القائد الاكبر فان الدنو من فصل الشتاء جعله يعجل في عقد الصلح . وقال لسكراته . « وهب أقبل الآن جيش الرين لتجديتي فقد لا يصل الي قبل شهر من الزمان وستسد الثلوج الطرق والمعابر بعد خمسة عشر يوماً . قضي الامر وصممت على عقد الصلح ، وستدفع البندقية نفقات الحرب ، وسنجعل نهر الرين تخماً لبلادنا . فليقل الديركتوار والمحامون ما شاءوا »



نابوليون بوناپرت في المالميزون

ووقع وثيقة الصلح في كمبو فرميو في ٢٦ فنديميار « ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧ » ، وكان من أول شروطه اطلاق أسرى أولمز وهم : لافايت ، ولاتور موبورغ ، وبورودي بوزي . وألح نابليون كل اللحاح لنيل هذا الأمر بناء على تعليمات الديركتوار .

الفصل السادس

— السفر الى راستادت — العودة الى باريس — السفر الى مصر —

ولما فرغ بوناپرت من الحرب والمفاوضات السلمية لم يبق له من مسوغ للبقاء على حدود النمسا ، فجعل يحول في الاقاليم التي فتحها ويتفقد بلاد المبرديا وكانت قد استقبلته كمخلص لها . وكان أنى سار يكبر له الشعب ، وحين وصل اليه أمر من باريس بالمضي الى راستادت لتولي شؤون الوكالة الفرنسية فيها استقبل بحماس واعجاب عظيمين في جميع بلاد سويسرا عند مروره بهامن جنيف الى بال . وأرسل قبل مزاييلته لميلانو مع جوبير الى الديركتوار راية جيش ايطاليا ، وقد كتب على أحد وجهيها خلاصة جميع المعجزات التي أتاها ذلك الجيش ، وعلى الوجه الآخر هذه الكلمات « الى جيش ايطاليا من الوطن المعترف بالجميل » وعند مروره في المرة الاخيرة بمدينة مانطو أقام جنازاً لهوش ، وألح بالاسراع في انجاز الأثر المنوي تشييده لفيرجيل .

وكان من المعجبين به في ذلك العهد رجل حاد الذهن حديد القواد بعيد النظر في العواقب ، وقد نشر ما ارسله من الملاحظات الى باريس في صحيفة صدرت في شهر ديسمبر سنة ١٧٩٧ وهذه فقرات مما جاء في تلك الجريدة . « شاهدت باهتمام عظيم وانتباه شديد ذلك الرجل الغريب الذي أتى امورا خطيرة ، وكأني به لم يفته بعد من مهمته . ووجدته مشابها كل المشابهة لصورته اي وجدته صغير القامة ، نحيل الجسم ، اصفر اللون ، تبدو عليه علائم التعب من دون ان يكون مريضاً كما اذاعوا عنه وكأني به يصغي لمن يخاطبه بقصد التسلية اكثر مما يصغي اليه باهتمام ، وكان يهتم بما يفتكر به اكثر مما يهتم بما يقولونه له ففي هيئته ذكاء شديد ، وكأنه دائم التأمل من دون

ان يتم بشيء مما يجري في داخله . ففي ذلك الدماغ المفكر ، وفي تلك النفس الصليبية العود يستحيل على المرء ألا يزعم ان فيهما أفسكاراً جريئة من شأنها التأثير في حظ اوربا »

وبيناهم مجتازون سهل مورات الذي نكل فيه السويسريون بمجيش شارل الجريء سنة ١٤٥٦ قال لانّ ان فرنسوي هذا العصر أفضل من فرنسوي تلك الايام في الحروب فقطع عليه بونايرت الكلام قائلاً له « لم يكن البرغونيون فرنسويين في ذلك العهد »

ولما وصل بونايرت الى راستادت رأى ان منصبه الجديد لا يلائمه ، فلم يكن ذلك الرجل العجيب يلتقي منصبا يليق به الا في باريس وهي الوسط الذي تدور عليه رحي السياسة ، او في مقدمة جيشه او على صهوة جواده . الا انه لم يضطر الى التماس العودة الى العاصمة فالديركتوار نفسه أنفذ اليه رسالة يدعوه بها الى باريس ، وكان المسيو دي بوريان كاتبه الخاص يخاف أن يصحبه اليها ، وهو لا يدري ان اسمه محمي من جدول المهاجرين . فأراد البقاء في المانيا فقال له بونايرت . « تعال معي واعبر الرين غير هياب ، وأنا أضمن لك أنهم لا يفصلونك عني »

وكان استقبال شعب باريس لنابوليون على ما كان يتوقعه منهم في مقابل ما أحرزته له أعماله العالية ، على ان الديركتوار لسان حال الأمة ونائبها في اظهار عواطف معرفة الجليل كتم مخاوفه وحسده ، وأقام احتفالات باهرة لفتح ايطاليا في جديقة الاسكسنبور ، وقدم تاليران بطل فرنسا لهيئة الديركتوار ، وألقي في تلك الحفلة خطاباً طامحاً بالمبادئ الجمهورية الراسخة الاركان فقال . « لا بد من ان يلاحظ القوم بشيء من التعجب كل ما أبذله من الجهد الاكن لاصغر مجد بونايرت ، وهو لا يستاء من ذلك ، وقد دخلت على الخشية حيناً من الزمان وساورني القلق وهو يطرأ كثيراً في جمهورية حديثة النشأة ويجعل القوم يوجسون خيفة من كل ما يبين مناوئاً للمساواة ، ولكنني كنت مغروراً . فلا تمس العظمة الشخصية المساواة بل تعتبر فوزاً مبيناً لها . ويجب على الجمهوريين الفرنسيين في هذا اليوم ان يكونوا جميعهم رجالاً عظاماً »

فأجاب بونايرت بالكلمات التالية ، وقد أطلق للمرة الاولى لقب « كبرى »

على الامة الفرنسية

« يا أعضاء الديركتوار الوطنيين »

« قضي على الشعب الفرنسي بأن يحارب الملوك ليظفر بحريته ،

« وكان ينبغي له ان يناوىء ثمانية عشر قرناً من الاوهام ليصيب الدستور

المبني على العقل .

فقد ذلتم بدستور السنة الثالثة جميع المصاعب القائمة في وجوهكم وان
الديانة وحكومة اصحاب الاقطاعات والملكية قد تولتا على التعاقب من عشرين
قرناً ادارة الشؤون في أوروبا ، وينتمي عهد الحكومة النيابية الى الحين الذي
عقدت فيه الصلح .

« تمكنت من تنظيم الامة الكبرى التي لاحد لممتلكاتها الا الحدود التي
وضعتها لها الطبيعة .

« وقد فعلتم أكثر من ذلك

« ولا ينبغي ان القسمين الجليلين اللذين يفوقان سواهما في أوروبا واللذين
اشتهرا في خالي الحين بالعلوم والفنون ، ونبغ فيهما رجال عظام ينظران بعين
الآمال الى روح الحرية تنبعث من قبور الجدود .

« وأتشرف بأن أقدم لكم الوثيقة المعقودة في كعبو فرميو وقد وقعها جلالة

الامبراطور

« وحين تبني سعادة الشعب الفرنسي على أفضل الشرائع المنظمة تصبح

أوروبا جماء راتمة في بحبوحة الحرية »

وكان بونابرت قد اتخذ لهجة الملاينة حين نسب الى الديركتوار الفضل في

عقد الصلح ، وفضلا عن ذلك كانت أحوال اللياقة تقتضي المجاهرة بمثل ذلك
الاكرام الرسمي . على ان الموجه اليهم هذا الاكرام لم ينخدعوا بتلك الظواهر
كما ان موجه الاكرام المذكور لم يكن منخدعاً في نوبته . ومن ذلك الحين
صار بونابرت بالفعل في موقف حكومة الجمهورية بازاء السياسة الاوربية .

فسكانت الحكومة متجسمة فيه ، وكان يجعل فرنسا تتخذ الهيئة واللهجة اللتين
تدلها عليهما مطامعه النبيلة ونهيته الحصيفة ، صارفاً النظر عن تعليمات الديركتوار
وعاملاً على اعتبار تينك الحاليتين جديرتين بذلك الشعب العظيم وملاعتين للمقاصد

التالية التي عقد عليها ذلك الرجل العظيم عري عزمه فقد سعى في وقت دخوله إيطاليا ، وبعبارة أخص من وقت معركة لودي ، لتعرية السياسة الفرنسية من الصفة العنيفة التي منحها اياها حادثة سنة ١٧٩٣ . ولم يكن يبتغي ان يصيب بطل ثورة الشعب الهائلة صلحاً مجيداً لبلاده وشهرة واسعة لنفسه ، وقد أدرك انه أذف الحين لتسكين نائر التعصب الثوري الذي كان يرى ضرورته في الماضي ويشعر بوجوب تعزيزه ، فأظهر في المفاوضات مع ملك سردينيا والبابا والامبراطور ميلا الى المساواة والتساهل يمتاز به الرجال العظام بترفعهم عن أهواء الاحزاب ، ولكنه شاء خصوصاً في المؤتمرات التي أفضت الى وثيقة كمبو فرميو ان يبين لملوك أوروبا ان الجمهورية الفرنسية عدو كريم الاخلاق لا يدع البغض يعمي بصيرته ، ولا يجعل لمبادئه ومشوراته سبيلاً لتهديد الحكومات الاجنبية في المستقبل . وقد جاهر بهذا الامر في جزيرة القديسة هيلانة حين قال « ان المبادئ التي وضعت لتنظيم شؤون الجمهورية قررت في كمبو فرميو . ولم يكن للدركتوار يد فيها » هكذا كانت القوة الحقيقية التي زاوها ذلك الرجل ولم يكن الدركتوار يجسر ان يطلب منه تأدية الحساب عن احتقاره له وجرأته عليه

ووجه اليه جهاراً بلسان رئيسه اطراء سدهاء الغلو ولحمته المبالغة ، مع انكار بونايرت لسلطة الدركتوار السامية واختلاسه لوظائفه ، وكان مما قاله باراس في جوابه للجنرال بونايرت « ان الطبيعة التي تضمن بمعجزاتها لا تنتج الا بين فترات بعيدة رجالاً عظاماً في الارض وقد تولتها الغيرة بأن تفتتح عصر الحرية بمثل هذا الحادث ، وكان من المقضي على فتنة الشعب الفرنسي الكبرى التي لم يسبق لها نظير في تاريخ الامم أن تنشأ داهية في تاريخ مشاهير الرجال »

ولعمر الحق ان هذا التملق والتزلف اللذين لم يأنف منهما الحسد لدى تأثير الرأي العام يدلان على ما كان بونايرت قد أصابه من سمو المكانة عند قومه ومما يقضي بالعجب ان نرى زعيم الحكومة الجمهورية مضطراً الى مخاطبة قائد بسيط من قواد الجند باللهجة نفسها التي خاطبه بها فيما بعد رئيس مجلس الشيوخ في الامبراطورية أو كبير خدامه

وكاننا بالباريسيين من أهل النسيان، فقد محت شهرة بطل أركول ذكر مدفعي
فنديمياد . فسكانوا أيا ن وقعت نواظرهم على بونا برت يكبرون له ويهللون ،
حتى ان القوم في الملاعب حين كانوا يعلمون ان بونا برت بينهم يرفعون أصواتهم
من كل جهة ، وتدعوه كل فئة الى الجلوس معها على ان تلك التظاهرات وان
تسكن تسره في الباطن كانت سبباً لافساد أمره عليه ، وقد قال ذات مرة « لو
كنت طالماً بأن المقصورات في الملاعب مفتوحة على هذه الصورة لما كنت دخلت
ملعباً قط »

ورغب بونا برت يوماً من الأيام في ان يشهد التمثيل في ملعب سراي كان
الناس يؤمونه زرافات زرافات ، وكان في مقدمة الممثلين والممثلات فيه عقيلة
سان أوبان وأليفيو ، فطلب ان يجري التمثيل في ذلك الملعب بقوله . « اذا كان
ذلك ممكناً » فأجابه المدير برشاقة وخفة روح . « وهل من شيء غير ممكن
لقاهر ايطاليا وقد نسخ من مدة طويلة لفظة « مستحيل » أو « غير ممكن » من
متون اللغة »

ولا يخفى ان بونا برت مع ما كان القوم يبدونه من الاحتفاء به لم يسكر
بخمرة التبجيل والاطراء ، بل نظر الى موقفه بمقلة التروي والتؤدة ، وخشي ان
يكون بقاؤه مدة طويلة بلا عمل مدعاة الى نسيان ذكرى خدمته القديمة وناسخاً
لهوس الناس به ، فقال في هذا الصدد « لا يذخر المملأ الباريسي ذكر شيء ،
فان أنا مكثت هنا مدة طويلة بلا عمل لم آمن من الهلاك ولا محالة ، فني بابل
هذه الكبيرة تخلف الشهرة الحديثة الشهرة القديمة ، فلا يروني ثلاث مرات في
الملعب حتى يتبرموا مني ولا يكثرثوا لي ، وعليه لا أغشى الملعب الا نادراً »
وكان يتمثل بقول كرمول حين كانوا يقولون له ان رؤيته تمحرك ساكنات
الحاسة في الجمهور « ان الشعب يزدهم أيضاً ازدحاماً أمامي حين يراني سائراً الى
المنطق » وأبى بونا برت ان يشهد حفلة تمثيل شائعة كانت ادارة الملعب تعدها
اكراماً له ، ولم يكن يجلس في الملعب الا في مكان يرى منه القوم ولا يروونه
وصار أصحاب المسكايدينسجون برود الدسائس لاغتياله ، فأشعرته احدى
النساء بأنهم يبتغون قتله بالسم ، فأوقف الشخص الذي حمل اليه ذلك الخبر

وساروا به ومعهم شيخ المحلة الى المرأة التي صدر عنها ذلك الانذار . ولشدهما كان تأثرهم حين شاهدوا تلك المرأة التاعسة مضرجة بدمها ، فان السفاحين لما علموا انها سمعتهم يدبرون المكيدة ، وباحت بسرهم عمدوا الى ارتكاب جريمة أخرى بالفتك بها ليأمنوا تبعة شهادتها عليهم . ولما التى بونايرت ذاته مبعداً عن المدير كتوار أراد الانتظام في سلك الندوة العلمية مع أنه كان محتاجاً الى معالجة غير الشؤون العلمية والمسائل الادبية ، فقبل فيها خلفاً لكارنو بعد ما خرج هذا منها في حادث ١٨ فركتيدور ، فانضم الى الفئة التي تعنى بالعلوم والفنون . وهانحن ذا كرون صورة الكتاب الذي أنقذه بهذا الشأن الى الرئيس كاموس .

» حضرة الرئيس الوطني

» ان قبول الاشخاص الممتازين الذين يؤلفون هذه الندوة اياي بينهم يشرفني .

» وانا أشعر بأني قبل ان أصير مساوياً لهم أظل مدة طويلة معتبراً ذاتي تلميذاً لهم .

» ولو كان لي وجه آخر يفصح عن احترامي الشديد لهم لما أحجمت عن بسطه » ان الفتوح الحقيقية التي لا يعقبها تأسف هي فتوح قلعة الجهل » وان أشرف الاعمال وأهم المآثر التي تأتيناها الامم هي العمل على توسيع دوائر أفكار البشر

» وان القوة الحقيقية التي يقضى على الجمهورية الفرنسية بأن تبديها من الآن هي ان تعنى بأن يكون كل فكر جديد ناشئاً عنها . بونايرت »

وكانت تلك اللهجة غريبة في فم رجل بلغ ما بلغه من الفخر بأعمال حربية بحثة ، الا ان بونايرت كان يحاذر ان يدع أحداً يتوهم ان الحظ قد أبطره ، وان محبته للحرب قد شغفته . وكان بلوغ القمة التي سمت اليها مطامعه وأفكاره العالية يقتضي ان يظهر للدلاء طراً انه لا يقتصر على التبجح بانتصاراته والاشتغال بالشؤون الحربية فحسب شأن الكثيرين من مشاهير القواد ، بل كان يميل أيضاً الى العلوم والتبحر فيها . وكان يهيمه كثيراً ان تتعود تلك الامة العظيمة الطامح هو ببصره الى الجلوس على عرشها ان ترى فيه شخصاً لا يكتفي بقوة السلاح

للدفاع عنها بل يصون كنوزها العقلية الثمينة، ويعينها على تعزيز سيادتها العامة سواء أكان من الجهة الادبية أو من الجهة الحربية

ولقائل أن يقول : وهل حان الوقت لظهور المقاصد السرية التي صارت تحول في خاطره من انتشاب حرب ايطاليا ؟ فنجيبه بأن بونايرت لم يكن معتقداً أن ذلك الأوان قد آن ، ففكر في وجوب الاسراع في تقض غبار الحول عنه لئلا يستهدف لنبال العطب وتقلص ظل شهرته في مدة قصيرة . وصحت عزيمته على تأليف حملة ينطلق بها الى القطر المصري ، فوافقه الديركتوار على ذلك الامر ، لأنه لم يكن ينعم النظر في العواقب بل كان يبتغي أن ينجو من شر ذلك الرجل في القريب العاجل غير عالم بأن ما يصيبه ذلك الجندي الباسل من الانتصارات الجديدة يبهز أبصار الامة ويستميل اليه تعلقها به وميلها اليه .

وبعد ما دبر بونايرت خطة هذه الحملة تحرى أن يضعها وحده موضع الاجراء ، ووطن النفس على تجهيز جيش الحملة . واختار أيضاً العلماء والصناع لمرافقة الجنود رغبة في تسخير قوة السلاح لخدمة المدنية والعمران . ولما سئل عن مدة اقامته في مصر ، أجاب : « بضعة أشهر أو ست سنوات ، فذلك موكل الى الحوادث » وأخذ معه مكتبة مؤلفة من كتب تبحث في العلوم والفنون والجغرافية والرحلات والتاريخ والشعر والسياسة والروايات . وقد ضم الجدول الذي وضعه اسما بلوطرخس ، وبوليبس ، وتوسيديد ، وتيت ليف ، وطاسيت ، ورينال ، وفلتير ، وفردريك الثاني ، وهوميروس ، والطاس ، وأوسيان ، وفرجيل ، وفنلون ، وروسو ، ولافتان ، وممرنتل ، والساج ، وغوطي ، والعهد القديم ، والعهد الجديد ، والقرآن ، والفيدا ، وروح الشرائع ، وأساطير الأولين .

ولما كان بونايرت على أهبة الارتحال عن باريس حدث خلاف بين برنادوت والحكومة النمساوية بسبب الراية المثلثة الألوان التي نصبها السفير الفرنسي فوق داره واهانتها سوقة الناس في فيينا فسكادت الاحوال تقضي على بونايرت بالبقاء في أوروبا . وكان الديركتوار يريد أن ينتقم لهذه الاهانة بشهر حرب جديدة يتولى قاهر ايطاليا قيادة الجنود فيها ، إلا أن هذا الاخير لم ترقه الخطة التي كان الديركتوار ينوي انتهاجها مخافة أن تحول دون انجاز ما كان قد صمم

عليه ، فقال بصواب : « للسياسة أن تدير حركات الحوادث ، وليس للحوادث أن تدير مجرى السياسة » فاضطر الديركتوار الى النظر بعين الاعتبار الى هذه الملاحظة المبنيّة على التعقل والتروي وبعد النظر في العواقب ، وحينئذ تمكن بونابرت من أخذ طريقه الى طولون .

ولما وصل بونابرت في ٨ مايو سنة ١٧٩٩ الى هذه المدينة المعتبرة مهدياً لشهرته ومجده ، علم أن القوم ينظرون بعيون التأفف والتذمر والانكار الى خطة العنف التي يعامل بها المهاجرون ، والتي أعاد ١٨ فركتيدور وضعها موضع الاجراء .

ولما لم يكن يستطيع اصدار الاوامر بصفة قائد في اقليم لم يكن خاضعاً لسلطته ، كتب بصفة كونه عضواً من أعضاء الندوة العلمية الوطنية رسالة الى المفوضين الحربيين في الجنوب محرضاً إياهم على الاعتماد على الرأفة وعواطف الانسانية في قراراتهم . وكان من جملة ما كتبه اليهم : « انتهى اليّ بأسف شديد انكم نصبتم هدفاً للرصاص شيوخاً يتراوح سنهم بين سبعين وثمانين سنة ونساء حوامل معهنّ أطفال لوقوع التهمة عليهم بأنهم من المهاجرين .

« فهل أصبح جنود الحرية جلادين ؟

« وهل قضي على الشفقة التي كانت تصحبهم الى ميادين القتال بأن تهجر

حنايا ضلوعهم ؟

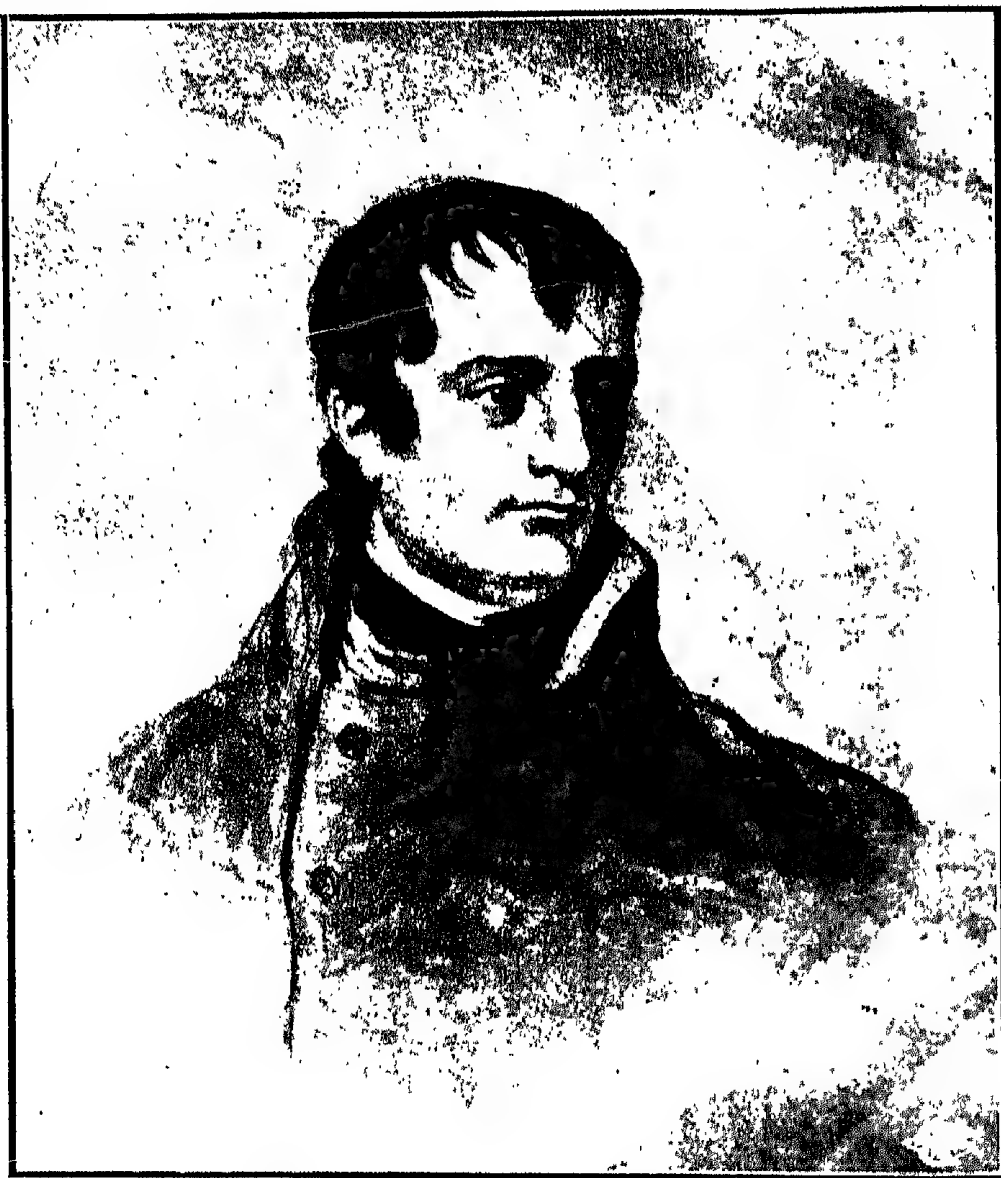
« لقد كانت شريعة ١٩ فركتيدور مدرجة للخلاص العام ، وكانت الغاية التي يتوخاها واضعوها الضرب على أيدي مدبري المسكايد وليس القتل بالنساء التعاسات والشيوخ الذين مسهم الهرم

« أحرصكم يا حضرة الوطنيين أن تعلنوا على رؤوس الاشهاد ، كلما ساقّت الشريعة اليكم شيوخاً يربو سنهم على الستين أو نساء ، بأنكم حين كنتم توقدون شعير الهيجاء كنتم تحترمون الشيوخ والنساء عند أعدائكم .

« فالجندي الذي يوقع حكماً على شخص يعجز عن حمل السلاح يعد

نذلاً جباناً »

وكان من وراء المساعي الدالة على نبالة في المقاصد وكرم في الاخلاق خلاص حياة مهاجر كان المقوض الطولوني قد أوْشك أن يرسله الى المقصلة . فما كان



نابوليون بوناپرت قنصل اول

أجل رؤية ذلك الجندي المتعود سفك الدم البشري في ساحة الوغى ، وهو يوصي الجنود بحقن دماء الشيوخ لعجزهم والنساء لضعفهن ، وما كان أجل رؤية ذلك الجندي المعدود من أشهر الجنود ، وهو يذكر رجال الحرب بوجوب مراعاة ما توجهه عليهم الانسانية ، ولم يكن يستند في اظهار هذه العواطف الكريمة الى سلطته أو شهرته الحربية بل الى المسكنة التي أصابها بمقدرته العقلية ومواهبه العالية ومعارفه الواسعة وأعماله السلمية . ففي الرسالة التي وجهها بونايرت عضو الندوة العلمية الوطنية الى المفوضين الحربيين في الجنوب شعور عميق بضرورة اخضاع سلطة السيف لسلطة القلم في المهمة الخطيرة التي يتحدونها للظفر بالنجاح الاجتماعي

ولما تمت معدات السفر ، ودنت ساعة الرحيل ، خاطب بونايرت جيشه بالكلام الآتي

« أيها الضباط والجنود ،

من سنتين توليت قيادتكم حين كنتم مرابطين عند نهر جنوبي ، وكان الشقاء مخيا عليكم ، والحاجة ضاربة أطناها بين ظهرانيكم ، وقد أنفقتم كل شيء حتى ساعاتكم لا بتياع ما تسدون به رمقكم فوعدتكم بازالة شقائكم ، وسرت بكم الى ايطاليا حيث توفر كل شيء . . . أولم أنجز مواعيدي لكم ؟ » فطبق الجنود الفضاء بهذه الكلمة « بلى »

وحينئذ استأنف بونايرت خطابه قائلاً .

« ولكن اعلموا أنكم لم تفعلوا حتى الآن شيئاً مذكوراً للوطن ، والوطن لم يفعل في نوبته شيئاً مذكوراً لكم ، وهاءنذا الآن ماض بكم الى بلاد تآتون فيها أعمالا تفوق الاعمال التي يتعجب منها المعجبون بكم ، وتؤدون للوطن خدماً يحق له أن يتوقعها من خواصي الغمرات الذين لا يشق لهم غبار

« وأعد كل جندي بأنه يستطيع عند عودته من هذه الحملة أن يشتري

ست مئة قصبة مربعة من الارض

« وستستهدفون لسهام مخاطر جديدة يشاطركم اياها اخوانكم الملاحون ، ومعلوم ان اعداءنا لم يشعروا حتى الآن بثقل وطأة قوتنا البحرية . أجل ان ما تيهم لم تضارع ما تيكم لان الاحوال لم تمكنهم من ذلك ، وانما بسالة بحارتنا

مضاهية لبسالتهم ، وغايتهم التي يرمون اليها هي نيل الغلبة . وسيصيبون هذه
الامنية بالاتحاد معكم

« أوقفوهم على ذلك الامل الذي لا يبارى والذي سخر لكم النصر أيان
سرتهم ، ومدوا لهم سواعد المساعدة ، وكونوا ، وأنتم معهم على متون السفائن ،
شاعرين بالعواطف التي يمتاز بها الاشخاص الذين لا تسمع ضمايرهم الا أصوات
الواجب عليهم ومحافظتهم على كرامة وطنهم ، ويحق لهم أن يتقاضوا كما تتقاضون
أنتم الوطن الاعتراف بالفضل لهم في ما عانوه من الشدائد في فن الملاحة .

تعودوا مزاولة أعمال الملاحة على ظهور المراكب ، واقدفوا الدعر على
أعدائكم برآ وبحراً ، وتصيروا جنود الرومانيين فقد تمكنوا من تدويخ قرطاجنة
في البحر والظفر بالقرطاجنيين وهم في سفنهم في عرض اليم »
فأجابه الجيش بصوت واحد « فلتحيي الجمهورية ! »

وشيعت جوزفين بعلمها الى طولون ، وكانت تحبه محبة شديدة . فودعته
وداعاً مؤثراً للغاية . وقد خشيا أن يكون افراقهما أبدياً لما كان يترصد ذلك
القائد الهام من اهواء الحظ وتقلبات القضاء والقدر في الحملة التي از مع ركوب مركبها
وفي ١٩ مايو اقلع الاسطول يقل بونايرت ورجاله



الفصل السابع

فتوح مصر

ولما خرج الاسطول من طولون توجه الى مالطة ، فحدث ذات يوم عند غروب الشمس حين كانوا سائرين في بحر صقلية أن كاتب القائد الاكبر توهم أنه ناظر قم جبال الالب ، فأشعر بونابرت بما شاهده ، وهذا أظهر مايدل على الارتياب . الا أن الاميرال برويكس أخذ منظاره وبعد ماحقق النظر فيه قال ان بوريان مصيب في توهمه . فحينئذ صاح بونابرت قائلاً « الالب » وبعد ما أغرق الفكر في بحر التأمل مدة من الزمان قال . لا استطيع وايم الحق أن أبصر ايطاليا من دون ان تعتريني هزة فأمامنا الشرق ونحن شاخصون اليه ، حيث تدعونا مهمة مخفوفة بالمتالف ، تشرف هذه الجبال على سهول أسعدني الحظ بأن أقود اليها الفرنسيين غير مرة ليجنوا من أدواحها ثمار النصر . ونحن موقنون بأننا سنصيب بهم الغلبة ايان توجهنا »

وكان بونابرت في أثناء السفر يسر كثيراً بمحادثة العلماء ورواد الذين محبوبه . فيخاطب كلا منهم بما يروقه من الموضوعات ويكون من اختصاصه البحث فيه . وكان في غالب الاحيان يدعو اليه منج وبرتوله ويباحثهما في العلوم الدقيقة ويخوض معهما في مجال الكلام عن السياسة وعلم المعقولات . وكان يميل الى الجنرال كافارلي دوفلجا ويمنحه من ذات نفسه ، فقد كان يجرد في أحاديثه التي يجاذبه أطرافها في كل يوم لذة صادرة عن توقد ذهنه وسرعة خاطره . وكان بعد الغداء يلقي على الحضور مسائل معقدة في موضوعات خطيرة ويعين لكل مسألة شخصاً يعالج حلها . وكانت غايته من هذا الامر اختبار مداركهم ورغبته في التبسط في مثل هذه الموضوعات ، وكان يمنح الافضلية للألى يصرون على مخالفة الرأي العام بأسلوب يدل على الحنكة والفتنة . ولم يكن لهذه المباحثات من قيمة الا ترويض الافكار على الخوض في البحث . وكان يحب أيضاً أن يطرح قضيتي عمر العالم وانقراضه على بساط الجدل . ولم يكن تصوره وفكره يرتاحان إلا الى القضايا الواسعة الكبيرة .

ووصل الاسطول بعد سفر هادئ مدة عشرين يوماً الى جزيرة مالطة في ١٠ يونيو ، فاحتلوها بلا مقاومة . فقال كافارلي لبونابرت مازحاً بعد تفقد الحصون والاستحكامات : « لقد أسعدنا الحظ يا سيدي الجنرال بأن نجد في المدينة من فتح لنا أبوابها . » وقد أنكر نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة أن يكون الفضل في هذا الفتح السريع الداني المنال لأشخاص اتهموا بخيانة وطنهم فقال : « استوليت على مالطة وأنا في مانطو ، فعاملتي لورمسر بالحسنى سهلت لي خضوع زعيم الجزيرة وفرسانه » إلا أن المسيودي بوريان يؤكد بأن هذا الفتح لم يتم على هذه الصورة الا بالخيانة .

ولم يمكث بونابرت في مالطة سوى بضعة أيام ، فبرحها ميمما جزيرة كريت ، وفي ٢٥ يونيو بدت لا نظارهم الجزيرة . وكان من وراء شخص بونابرت الى كريت تضليل نلسن الاميرال البريطاني عن العثور عليه والتقاءه بالاسطول الفرنسي أمام مدينة الاسكندرية كما كان مقرراً في حسبانته . وكان ذلك من حسن حظ القائد الفرنسي ومهادنة الاقدار له ، وقد صرح برويكس بأن الاميرال البريطاني كان يستطيع أن يظفر بعشر سفن بالاسطول الفرنسي برمته ويدمره على بكرة أبيه . وكثيراً ما كان يتنهد ويقول : « لقد شاء الحق سبحانه وتعالى برحمته أن نجتاز البحر من دون أن نلتقي بالبريطانيين » . وقبل وصول بونابرت الى أرض أفريقية أراد أن يخاطب جنوده ليضرم في قلوبهم نيران الحماسة معللاً إياهم بأمل الفتح القريب ، ومحذراً إياهم من الوهن والاضطراب . واليك تعريب الخطاب الذي ألقاه عليهم :

« بونابرت عضو الجمعية العلمية الوطنية والقائد الاكبر

« عن متن السفينة لوريان في ٤ مسيدور سنة ٦

« أيها الجنود

« أنتم مباشرون فتحاً لا يحد تأثيره بالمدينة والتجارة في المعمورة ، وستضربون بريطانيا ضربة مؤلمة ريثما يتسنى لكم ان تضربوها الضربة القاضية ، سنسير بالبلاد سيراً يصيبنا من جرائه العناء والاعياء ، وسنشترك في حروب هائلة ، وسنجنح ثمار النصر من جميع مشروعاتنا وفي جميع هذه الاعمال سيفتر لنا ثمر الحظ . ان المهاليك الذين يساعدون التجارة البريطانية ، ويجرعون تيجارنا كؤوس

الاهانة مترعة الى الاصبار، ويحملون سكان وادي النيل أثقال المظالم ، سيصبحون
أثراً بعد عين بعد وصولنا بأيام .

« إن الشعوب التي سنعيش بين ظهرانيها تدين بالدين الاسلامي ، وقاعدة
ايمانها الاولى «لا إله الا الله ومحمد رسول الله» فلا تعارضوها بشيء من الاشياء ،
بل تصرفوا معها كما تصرفنا مع اليهود والايطاليين . احترموا المقتنين والايعة
كما احترمت الخاخامين والاساقفة وكونوا متساهلين لاقامتهم الاحتفالات
المنصوص عنها في القرآن لتكريمهم المساجد كما كنتم متساهلين مع المسيحيين
واليهود في تكريمهم الديورة والمجامع .

« كانت العساكر الرومانية تحمي جميع المذاهب الدينية ، فستلقون هنا
مادات واصطلاحات تختلف عن العادات والاصطلاحات المألوفة في أوروبا ، فيجب
عليكم ان تتعودوا العمل بموجبها

« ان الشعوب التي سنخالطها تعامل النساء بخلاف ما نعاملهن به ، ولكن
المغتصب يعتبر وحشاً ضارياً عند جميع الأمم

« ان النهب لا يغني الا فئة صغيرة من الناس ، فهو يحل فاعله بالعار ويتلف
مواردنا ويجمعنا من المنظور اليهم بطرف العداوة والبغضاء عند شعوب يهمننا
كثيراً خطب مودتها

« وأول مدينة نصل اليها شيدها الاسكندر ، وسنلقى عند كل خطوة
نخطوها آثاراً عظيمة جدرة باثارة حب المباراة في صدور الفرنسيين »
وعلى أثر هذا الخطاب أذاع بونابرت نشرة تقضي بالموت على كل جندي
يقدم على النهب والاعتصاب وارهاق الناس بدفع الضرائب واختلاس أشياء
القوم . والتي على الضباط تبعة مخالفة الجنود للأوامر والنواهي .

وكان بونابرت يتحدى الرومانيين في التشديد على جيشه بوجوب السير
على الخطة المثلى ، ومما هو جديد في خطابه هذا وجدير بالاعتبار على مثال ما فاه
به في الخطب العديدة التي خطبها في هذه الحملة ، هو مشهد ذلك الفاتح الذي لم
يكن ، كلما قضت عليه الحال بأن يخطب في جنوده خطبة حماسية أو يلقي على
الشعب المغزوة أرضه كلاماً يستميله به ، يطمأ مواقع اقدام الذين تقدموه مستنداً
في ذلك الى الخزعبلات والترهات والتهويل بكلمات نخمة وهائلة ، بل كان يعتبر

بعكس ذلك ان أول لقب يستميل اليه احترام الناس له وثقتهم به هو لقب « عضو » في ندوة علمية لاتعتمد في نيل النفوذ السلمي الا على العقل البشري ، فالاسكندر نفسه لما قدم مصر تلقب بابن المشتري ، وقيصر كان يزعم انه متحدر من الالهة بواسطة اسكانيه ، ومحمد اتخذ لنفسه فيها لقب نبي وكان يسخر الحسام لتعزيز دعوته ، وقد أطلق على أشد قواده بأسا لقب سيف الله ، وأتتلا جعل الناس يسمونه ضربة الله ، والحق سبحانه وتعالى عينه كان اللاهوتيون والشعراء في القرون المتوسطة يدعونه مستودع الصواعق ورب الجنود ومدبر الحروب . وأدرك بونا برت سر عصره وما كان نيل السيادة فيه على الافكار يقضي عليه ليصيب مجداً غير المجد الذي يصيبه غيره من الناس . ولما كان هذا الرجل العظيم يريد ان يظهر بنوع جلي ومثال واضح حي ان قوام النجاح الاجتماعي الذي بشر به الفلاسفة واحلته الشعوب على الرحب والسعة هو اخضاع سلطة السيف لسلطة القنون المقرونة بالمدنية والعمران ، ولسلطة التجارة والعلم ، أعطى وهو أشهر قائد عند أمة تفوق سواها في الحرب ، المحل الثاني لمنصبه كقائد الجيش الأكبر والمحل الأول للقبه كعضو في الندوة العلمية . وكان يستهل رسائله وخطبه بهذه الكلمات « بونا برت عضو الجمعية العلمية الوطنية »

ووصل الاسطول الفرنسي الى مياه الاسكندرية في أول يوليو وكان نلسن قد جاءها من يومين فأدهشه ألا يرى فيها أثر للحملة الفرنسية ، فظن أنها توجهت الى سواحل سورية لتتصد الى البر في الاسكندرونه ولما انتهى الى بونا برت أن نلسن توجه الى الديار السورية للبحث عنه وعلم أنه لا يلبث أن يعود الى وادي النيل حين لا يجده في بلاد الشام صمم على دخول القطر المصري ، الا أن الاميرال برويكس اقام النكير على عمل بونا برت ، فأصر هذا على قصده وألح بلهجة الأمر الأكبر بالصعود الى البر قائلاً للاميرال برويكس الذي كان يطلب مهلة اثنتي عشرة ساعة . « يا حضرة الاميرال ليس لنا وقت نضيمه ، فالحظ لا يمهاني سوى ثلاثة أيام . فان أنا لم أستفد من هذا هلكنا ولا محالة »

فاضطر الاميرال الى الاذعان لمشيئة القائد الأكبر وكان اذمانه سبباً لنجاة أسطوله . فان نلسن لما لم يقف له على أثر في الارحاء التي بحث عنه فيها اسرع

في العودة الى الاسكندرية . ولكن كانت الفرصة قد فاتت فان غناد بونا بورت وسرعته خلصا الجيش الفرنسي ، فصار جميعه على اليابسة وكان صعود الفرنسيين الى البر في ليل اليومين الاول والثاني من شهر يوليو في الساعة الواحدة بعد نصف الليل على بعد ثلاثة فراسخ عن مدينة الاسكندرية . فزحفوا توا الى المدينة وتسلقوا أسوارها . وجرح كليبر في رأسه وهو يزحف في مقدمة المهاجمين . ولم يكلفهم الفتح سوى قليل من العناء من دون أن يعقبه أمور وخيمة فلم يتبع في الاسكندرية نهب ولا قتل

ولما وطىء بونا بورت أرض الفراغة بأخصيه كتب الى حاكم مصر ما يأتي . -
« ان الحكومة الاجرائية في الجمهورية الفرنسية طلبت غير مرة من الباب العالي معاينة بكوات مصر على تجريعهم التجار الفرنسيين كؤوس المهانة ، الا ان الباب العالي أجاب بان البكوات المعروفين بمطامعهم وأهوائهم لم يكونوا يسمعون صوت العدالة ، فهو لا يكتفي بالتصريح بأنه لا يرضى بوجه من الوجوه بأن يهان الفرنسيون أصدقاؤه الكرام القدماء بل يعلن أنه رفع عن أولئك البكوات ظل حمايته

» وقد قررت حكومة الجمهورية الفرنسية أن تسير جيشاً قوياً لتضع حداً لتعدي بكوات مصر ، كما كانت قد اضطرت غير مرة في هذا القرن أن تعامل بمثل هذه المعاملة بكوات تونس والجزائر ،

» فانت ياسيد البكوات مضطر الى القيام في القاهرة وليس لك من السلطة والقوة سوى الاسم ، وعليه ينبغي لك أن تنظر بطرف الابتهاج الى قدومي الى بلادك ،

« ولا بد من أن تكون قد عرفت اني لم اقدم لمناوأة القرآن او السلطان بشيء من الاشياء ، لانه لا يخفى عليك أن الامة الفرنسية هي حليفة السلطان من دون سواها في اوربا

» نحف اذن لملاقي ، وشاطرنى لعن ذرية البكوات الكافرة !

ووقت ما دخل بونا بورت مدينة الاسكندرية بادر الى اذاعة اللشرة الآتية على سكانها

« بونا بورت عضو الجمعية العامة الوطنية والقائد الاكبر للجيش الفرنسي

« مضت مدة طويلة والبكوات حكام مصر يسوقون الالهانة للامة الفرنسية
ويصبون نهارها بوصمة العار ، وعليه دنت ساعة العقاب ،
« مضت مدة طويلة واولئك الارقاء المشترون من القوقاس وجورجيا
يعيشون فساداً في أجل بقعة في المعمور ، الا أن الله مرجع كل شيء شاء ان
تنقرض دولتهم .

« يا شعوب مصر ، سوف يقولون لكم اني قادم لابطاد ديانتكم ، فلا
تصدقوهم بل قولوا لهم اني آت لاعيد اليكم حقوقكم ، وأعاقب مختلسيها ، وأنا
أحترم الله ونبيه الكريم أكثر مما يحترمهما المماليك قولوا لهم ان جميع البشر
متساوون لديه تعالى ، وانه لا فرق بينهم الا بالحكمة والمواهب العقلية والفضائل
وعليه بأي حكمة ومواهب عقلية وفضائل يمتاز بها المماليك حتى يتسنى لهم ان
يتمتعوا بكل ما يجعل الحياة هنيئة وعذبة ؟

« فاذا كانوا يزعمون ان مصر ملك لهم فليبرزوا الصك الذي تسلموه من
الله ، ولكنه تعالى عادل ورحيم
« وسينتدب المصريون لتولي الشؤون في جميع الخطط ، فالذين يتفوقون
منهم على غيرهم في الحكمة والعلم والفضيلة يحق لهم ان يديروا سكان الحكومة ،
وحينئذ يصبح الشعب سعيداً .

« كانت لكم في خالي الحين مدن عامرة وترع كبيرة وتجارة واسعة ، فن
أخفى عليها جميعها ؟ أو ليست مطاعم المماليك ومظالمهم ومساوئهم ؟
« أيها القضاة والشيوخ والشوربجية . قولوا للشعب أنا أصدقاء مخلصون
للمسلمين الحقيقيين . أو لسنا نحن الذين نكلنا بالبابا وقد كان ينادي بوجوب
شهر الحرب على المسلمين ؟ أو لسنا نحن الذين أبدنا فرسان مالطة الاغرار وقد
كانوا يعتقدون ان الباري عز وعلا يريد ان يشهر القتال على المسلمين ؟ أو لم
نكن في كل عصر أصدقاء المولى الاكبر (أيده الله) وأعداء أماديه ؟ أو ليس
المماليك بمكس ذلك متمردين على سلطة السيد الاعظم وهم لا يزالون ينكرون
آلاؤه ولا يحجرون الا على سنن أميالهم الملتوية ؟

« فهنيئاً للذين ينضمون الينا ، فيصيبوا الغبطة في معيشتهم ورفعة المنزلة
في دنياهم وسعداً لمن يلزمون خطة الحياد فيكون لهم وقت كاف يقفون فيه



يوسف بونابرت ملك اسبانيا
ولد في مدينة كورثه ١٧٦٨ وتوفي في فلورنسه ١٨٤٤



لوسيان بونابرت امير كانينو
ولد في اجاكسيو ١٧٧٥ وتوفي في فيترى بايطاليا ١٨٤٠

على حقيقة حالنا وينحازون إلينا ، ولكن الويل ثم الويل للذين يتشيعون للمهاليك
ويقاتلوننا ، فلا يبقى لهم من مطمع في الحياة بل ينتهون الى اسوأ مصير ! »
وبعد ما فوض بونا برت الى كبير القيادة في الاسكندرية فصل في ٧ يوليو
عن هذه المدينة متوجهاً الى دمنهور بطريق الصحراء ، فذاق الجيش اشكالا
وألواناً من الجوع والعطش والحر الشديد ، وهلك من جراء ذلك فريق كبير من
الجنود . إلا أنهم أصابوا شيئاً من الراحة في دمنهور فجعل بونا برت مركزه
عند شيخ البلد وهو رجل طاعن في السن يتزيا بزي المساكين لينجو من المظالم
التي كانوا يسوقونها الى ذوي اليسار . واستأنف بونا برت مسيره الى مصر ، وظفر
في أربعة أيام بالمهاليك في الرحمانية وأتلف أسطول البكوات وفرسانهم في
شبريس واتخذ القائد الأكبر تنظيم المربع في الحرب في هذه المعركة الأخيرة
فسكان فرسان العدو يهجمون عليه بجرأة غريبة فلا يلقون أمامهم سوى العطب
والبور . ففي بدء هذه المعركة التي أصاب فيها بيره قائد احدي الفصائل فوزاً
مبيناً وظفر بأعدائه الكثيرين المقيمين في موقع حصين كان العالمان منيج وبرتوله
يقاتلان الاعداء ويبلون بهم بلاء حسناً !

ولم تكن انتصارات بونا برت ورجاله سوى مقدمة لفوز باهر فتح في
وجوههم أبواب مصر ، ففي أواخر شهر يوليو التقوا بمراد بك عند الاهرام ،
فهبت في صدر بونا برت نسائم الحماسة عند رؤيته الآثار الهائلة الفخمة ،
وصاح قبل اضرام نار القتال .

« أيها الجنود ستقاتلون المتسلطين على القطر المصري ، ولكن اعلوا أن من
أعلى هذه الاهرام أربعين قرناً تنتظر اليكم » ، أجل ان أربعين قرناً كانت تنظر
من أعلى الاهرام الى الفرنسيين ، ان أربعين قرناً شاهد أولها وضع هذه
الرموس الملوكية الهائلة على أيدي المصريين الارقاء ، وشاهد آخرها هذه الآثار
الدالة على العبودية القديمة محررة على أيدي الفرنسيين الحرة خدمة للمدنية
والعمران ، وكانت كلمة بونا برت الوجيزة هذه تدل على الفسحة الفاصلة بين
البناء والفتحين . فالأولون كانوا ظلاماً أو عبيداً من ولادتهم ، والآخرون
كانوا من أهل الحرية والمساواة بحسب أهليتهم فن عهد القراعنة أصحاب
السلطة المطلقة المشهورين باستعبادهم للقبائل المقضي عليها بمزاولة الاعمال

الشاقة ومعاناة شظف المعيشة ، الى عهد القائد الذي قال للمصريين . « ان جميع البشر متساوون لديه تعالى » وبشرهم بأفضلية الفضائل وسيادة المواهب العقلية . تنظر سلسلة متصلة حلقاتها بعضها ببعض الآخر ومفرغة في قالب النجاح البطيء المقرون بالمشاق ، تنصل الحلقة الاولى منها بالحجر الاول من الاهرام الذي وضعته يد مثقلة بغل العبودية ، والحلقة الاخيرة منها بكلمة جندي لا يعترف بحق الرطامة إلا لمن أوتي الحكمة وازدان بالكلمات الادبية ، ويزيد تباهيه بانتشار أنوار العقل على تباهيه بامتداد قوة السيف . وحين قال بونابرت لجنود الجمهورية ان اربعين قرناً تنظر اليهم وهم ليس لديهم سوى القبائل التي اتصل اليها ارث العبودية القديمة ، كان يحرك ساكنات حماسة جنوده لحفظ التمدن وتوسيع نطاقه بعد ما اقتضى هذا التمدن عناء دام أربعة آلاف سنة أتفق في أثنائها النفس والنفيس وفضلاً عن ذلك ان هذه الآثار المنتشرة فوقها علامات المهابة والناطقة بآيات الاجلال لم يستشهد بها على غير جدوى ، فان الجيش الفرنسي قابل هذا الامر بانتصار باهر أصابه في مقاتلة المماليك

وعرفت هذه المعركة باسم « امبابه » وهو اسم قرية اشتبك القتال على مقربة منها . وبعد قتال عنيف استرخصت فيه النفوس ودام تسع عشرة ساعة تضعضعت أركان المماليك واليكم تفصيل هذه الواقعة الهائلة على ما كتبها الغازي

معركة الاهرام

« التقينا في ٣ ترميدور عند الفجر بطلائع الاعداء فهزمناها من قرية الى قرية وفي الساعة الثانية بعد الظهر انتهينا الى معاقل جيش العدو فأمرت فصيلتي ديزه ورينيه بأن تحيما الى الميمنة بين الجزيرة وامبابه لتقطعاً على العدو الاتصال بينه وبين مصر العليا . ملجأه الطبيعي . وكان الجيش مصطفاً على الشكل نفسه الذي كان مصطفاً عليه في معركة شبريس ولما أسمراد بك ميلا من ديزه الى اجراء حركة حربية صمم على الهجوم عليه وأنفذ أحد بكواته الاشداء بنخبة من رجاله ليشن الغارة بسرعة البرق على تينك الفصيلتين . فأهلهم الفرنسيون ريثما صاروا على قيد خمسين خطوة منهم واستقبلوهم بالرصاص والقذائف ، فسقط منهم عدد كبير في ميدان القتال ، واندفع الباقون منهم على الفصيلتين فالتقتاهم بنار حامية أجهزت عليهم

« فاغتنمت الفرصة وأمرت فصيلة الجنرال بون المرابطة على النيل بان تهجم على المعادل ، وأوعزت الى الجنرال فيال قائد فصيلة الجنرال مينو بان يتوسط بين الفيلىق الذي هجم عليه والاستحكامات فينتهي الى ثلاث غايات : —

أولاً — منع الجنود المصرية عن العودة اليها .

ثانياً — قطع خط الرجوع على الجنود النازلين فيها .

ثالثاً — الهجوم عند مسيس الحاجة على تلك المعادل من الجهة اليسرى

« وحالما اقترب القائدان فيال وبون أمرا الفصيلتين الاولى والثالثة من كل فرقة بأن تصطفا للهجوم ، وبقيت في مركزيهما الفصيلتان الثانية والرابعة وقد الفتا شكل مربع لم يبق مخيما الا فوق ثلاثة من المرتفعات ، وزحف المناصرة الهاجين .

« وهجم رجال الجنرال بون بقيادة الجنرال رمبون الباسل على المعادل بجراثيم المعهودة ، غير مكترئين للنيران المنصبة عليهم من أفواه المدافع العديدة فقا بلهم المماليك بالمثل وخرجوا من المعادل شائين الغارة عليهم . وقد تيسر لجنودنا ان يقفوا ويقابلوا الاعداء من جميع الجهات والحراب في رؤوس بنادقهم ويصبوا عليهم مطراً من الرصاص . وكانت جشت القتلى تغطي ساحة الهيجاء ، وتمكن رجالنا من الاستيلاء على المعادل . فولى المماليك الادبار ، وانهزموا زرافات زرافات من جهة الميسرة ، واضطروا الى المرور أمام فرقة من عساكرنا قتلت منهم مقتلة عظيمة ، وقذف عدد كبير منهم الى النيل فغرقوا فيه

« وسقط في حوذتنا أكثر من أربع مئة بعير موقرة أمتعة ، وخمسون مدفعا . وقدرت خسارة المماليك بألني رجل من نخبة الفرسان ، وقتل وجرح فريق كبير من البكوات ، وأصيب مراد بك بجرح في خده . وبلغت خسارتنا عشرين أو ثلاثين قتيلا ومئة وعشرين جريحاً . وفي الليلة عينها أخليت مدينة القاهرة . وأحرقت جميع زوارقهم المدفعية وسفائهم الحربية وقواربهم وبارجتهم ودخلت جنودنا مدينة القاهرة في ٤ ترميدور .

« وأحرقت المجموع المتهيجة منازل البكوات في خلال الليل وأتوا كثيراً من المحظورات ، ويعز على المرء ان يلقي في غير مدينة القاهرة أو شاباً وأوغاداً بقدر ما يلقي فيها ، وهي تضم أكثر من ثلاث مئة نفس من السكان

« وبعد المعارك والوقعات المتوالية التي اضرمت ناراها الجنود الرافعون فوق رؤوسهم لوائهم ، وحاربوا قوات تفوق قوتهم ، احبس لساني عن الاطراء على ثباتهم ورباطة جأشهم في مثل هذا الموقف ، لو لم يقتض هذا الشكل الجديد صبراً من جهتهم يخالف الحدة الفرنسية . فلو استسلموا لحدثهم لما كانوا قد أصابوا الظفر الذي لا ينال الا برباطة الجأش والصبر الجميل »
« ونم فرسان الممالك بأسرار شجاعة غريبة ، فكانوا يدافعون دفاع الابطال عن ثروتهم ، وقد وجد جنود مع كل واحد منهم مبالغ من المال تتفاوت بين ثلاث مئة دينار وخمس مئة دينار

« وكان اولئك القوم يحصرون كل نخفختهم في خيولهم وسلاحهم ، وأما بيوتهم فكانت في حالة يرثى لها ، على أنه يصعب على المرء أن يلقى أرضاً أخصب من أرض مصر وشعباً أشقى من شعبها وأشد جهالة وخملاً منه ، فهم يؤثرون زرا من أزار جنودنا على ريال قيمته ستة فرنسكات وفي القرى يجمل القوم وجود المقاريض ، وبيوتهم مصنوعة من الطين وليس عندهم من الرياش سوى حصيرة من القش وقدرين أو ثلاث قدور من الفخار . وهم على وجه الاجمال يتناولون قليلاً من المطعم والمشرب ويجهلون كل الجمل استعمال المطاحن ، وقد كنا نازلين فوق مقادير وفيرة من الحنطة من دون ان نستطيع الحصول على شيء من الدقيق فكنا نعيش على البقول واللحم . وهم يصيدون الدقيق بطحنهم البر بين حجرين ، وفي بعض القرى الكبيرة مطاحن تديرها الثيران . وكانت عصابات من الاعراب قوامها لصوص وسفاحون من أعظم لصوص الارض وسفاحيها توالي الهجوم علينا ثم لاتلبث أن تفتك بالترك أنفسهم كما تفتك بالفرنسيين على السواء ، ولا تحجم عن شيء تصل اليه أيديها . فاللواء مويرور وكثيرون غيره من الحجاب والضباط في أركان الحرب قتلهم أولئك الاشقياء الكامنون وراء السدود وفي الخنادق وهم على صهوات جيادهم الصغيرة الجسوم والويل لمن يبتعد مئة خطوة عن الجيش . وحيث ان اللواء مويرور لم يعبأ بانذار الخفير بل أصغى لصوت القضاء والقدر — وقد لاحظت في غالب الاحيان ان هذا الامر يصيب الذين تحين ساعتهم — وصعد الى الكهنة تبعد نحو مئتي خطوة عن المعسكر . عدا عليه ثلاثة من الاعراب كانوا في ذلك المكان

واغتالوه . فكان فقدده خسارة كبرى للجمهورية ، لأنه كان قائداً من أشجع القواد الذين عرفتهم .

« ولا يتيسر للجمهورية ان تصيب طارئة أقرب من مصر اليها ، ولا تربة أغنى من تربتها . فهو أؤها جيد لأن ليلها يهب فيه النسيم البليل . وبعد مسيرة خمسة عشر يوماً واحتمال متاعب متنوعة وحرماننا الحمر وكل مامن شأنه ان يخفف عنا أثقال الاعياء لم يصب أحد منا بداء من الادواء ، وقد وجد الجنود لذة عظامى في البطيخ المتوفر هنا . . . »

« وامتازت المدفعية امتيازاً باهراً ، فاطلب منكم رتبة فريق للواء دومارتين وقد وعدت دستان قائد نصف الفرقة الرابعة برتبة لواء . وقام الجنرال زاينوشيك خير قيام باعباء المهمات العديدة الخطيرة التي فوضت اليه قضاءها . وركب المدبر سوسه من أسيتيل النيل ليسهل عليه ايصال القوت اليها من الدلتا . ولما علم اني أضعاف الاغذاذ في السير ، وكان راغياً في أن يكون الى جانبي في أثناء نشوب القتال ، قذف بنفسه الى زورق من روارق المدفعية ، وانفصل عن الاسيتيل مع ما كان يحيط به من المخاطر التي تهدده . فنشب الزورق في الرمل وهجم عليه عدد كبير من الاعداء ، فباح بأسرار جرأة عظيمة وجرح في ذراعه جرحاً بالغاً ، ولكنه تمكن من اقالة عتار رفاقه واخراج الزورق من المأزق الذي نشب فيه

« لم تصل اليها أخبار من فرنسا بعد ارتحالنا عنها . . . »

« أرجو منكم ان تدفعوا مكافأة قدرها ١٢٠٠ فرنك لزوجة الوطني لاري كبير جراحى الجيش ، فقد أدى لنا في وسط الصحراء أعظم الخدم بنشاطه وغيرته . وعندى ان هذا الطبيب هو أفضل من جميع الاطباء الذين أعرفهم ليكون رئيساً لمستشفيات الجيش النقالة »

وفي الغد وهو اليوم الرابع من شهر ترميدور (٢٢ يوليو) دنا بونايرت من القاهرة وأذاع النشرة الآتية .

« يا شعب القاهرة ، يسرفي تصرفكم ، فقد أصبتم في امتناعكم عن الترس بنا ، قدمت لاستئصال شأفة المماليك وصيانة التجارة وأهل البلاد الوطنيين :

فليسكن جأش الملهوفين ، وليرجع الى منازلهم هاجروها ، ولتقم الصلوات اليوم كما لو ف العادة ، وليثابر عليها دائماً . لا يدخل عليكم الخوف من اصابة الضر لعمالك وببوتكم ومقتنياتكم ولا سيما دين النبي الذي أحبه . وحيث كانت الحال تقتضي الاسراع في انتقاء أشخاص تفوض اليهم ادارة الشحنة لئلا تتكدر حياض السكينة فسيمعقد مجلس مؤلف من سبعة أشخاص يجتمعون في جامع فير ، وسيكون منهم اثنان مقيدين دائماً بخدمة قائد الموقع ، وسيهتم أربعة منهم بالمحافظة على الراحة العامة ومراقبة أعمال الشحنة » وفي ٢٤ يوليو دخل بونايرت عاصمة القطر المصري ، وفي ٢٥ منه كتب الى أخيه يوسف أحد أعضاء مجلس الخمس مئة ما يلي

« ستقرأ في النشرات العامة أنباء فتح مصر وما عايناه من القتال في سبيله لتضيف صفحة أخرى الى تاريخ مجد هذا الجيش . ان أرض مصر تفوق أرض جميع البلدان في وفرة ما يجنى منها من الحنطة والارز والبقول واللحوم ، بيد ان الهمجية قد بلغت فيها غايتها ، وليس فيها مال للقيام بشيء من الاشياء ولا سيما لدفع نفقات الجند . وبعد شهرين أتمكن من الوصول الى فرنسا

« أسمع لكي يكون عند وصولي معركة أوقد سميرها اما على مقربة من باريس واما في برغونية حيث أنوي ان أقضي فصل الشتاء »

ويستنتج من هذه الرسالة ان بونايرت كان يعتقد ان فتحه مضمون وانه يستطيع ان يكل أمر المحافظة عليه لنوابه العقلاء الدهاة من دون ان يعرضه للخطر أو ان يوجس خيفة من افلاته من أيديهم . ولكن ماذا كانت الغاية من وراء رجوعه الفجائي غير المنتظر ؟ فهل كان يبتغي العودة الى فرنسا كما زعم بعضهم للبحث عن أسباب حربية جديدة وأغراض أخرى تدعو الى الاستعمار ؟ أو انه لم يكن له من غاية سوى الاقتراب من الملمب الذي كان حظه يدعوه الى تمثيل دور خطير فيه ؟ وهل كان يعتبر ان قد دنت ساعة الحوادث التي كان ينظر اليها ببصيرته ويتمنى الوصول اليها من عهد بعيد تمهيدا لارتقائه الى السدة العليا ؟ نعتقد ان الافتراض الاخير أقرب من سواه الى الصواب .

الفصل الثامن

نكبة أبي قير — انشأت بونابرت في مصر — حرب سورية —
الرجوع الى مصر — معركة أبي قير — العودة الى فرنسا

وكان بونابرت في خلال تعقب ديزه لمراد بك في مصر العليا يعنى وهو في مصر بتنظيم الادارة في الولايات المصرية ، إلا أن ابراهيم بك اللاجى الى سورية اضطر بتلك الحركات هذا الفاتح المشرع الى ترك أعماله السامية واستئناف القتال ، فالتقاء بونابرت وكسره في الصالحية شر كسرة ، وقد جرح سلكوفسكي الباسل في هذه المعركة .

وانتهى الى بونابرت نبأ محزون نبغص السرور الذي شعر به هو ورجاله على أثر هذا الانتصار الجديد ، فان كليبر أشعر بونابرت بأن اللورد نلسن أتلّف الاسطول الفرنسي في أبي قير بعد معركة استرخصت فيها الارواح . ولم تكد أنباء هذا الحادث تنتشر في الجيش حتى بلغ منه الاستياء والدعر مبلغهما ، فشعر القواد والجنود الذين ساورهم الضجر والقلق في الايام الاولى بعد صعودهم الى البر بان عوامل الحنين الى الوطن تتجاذبهم بعنف ، وجعلوا يتذمرون نابذين عنهم الغرور . ففي بدء الامر قاس بونابرت بعين فكرته جسامته هذه النكبة فكاد صرح عزيمته يتداعى ، ولما قالوا له ان الديركتوار سيبادر ولا مرأى الى اصلاح ما أفسده القضاء والقدر قال لهم بحدة : « ان أعضاء الديركتوار جماعة من . . . فهم يحسدوني ويبغضوني ويتركونني أهلك هنا » ثم أشار الى أركان حربه وقال : « أولاتنظرون الى جميع هؤلاء الاشخاص لقد قضى عليهم بالهلاك : » إلا أنه لم يدع القنوط يبلغ من نفسه الكبيرة ، فنهض لساعته وصاح بصوت يشف عن صبر مقرّون بالشجاعة : « سنبقى هنا أو نبرح هذا المكان عظماء كالأقدمين . »

ومن ذلك الحين أقبل بونابرت بهمة لا تعرف الملل على تنظيم ادارة مصر المدنية ، وازداد شعوره بالحاجة الى استمالة السكان اليه ، وتشديد معاهد وطيدة

الاركان فيها . وكان أول معهد أنشأه في هذا القطر ندوة تحاكي ندوة باريس العلمية وقسمها الى أربعة أقسام :

أولاً — قسم الرياضيات

ثانياً — قسم الطبيعيات

ثالثاً — قسم الاقتصاد السياسي

رابعاً — قسم علم الادب والفنون الجميلة

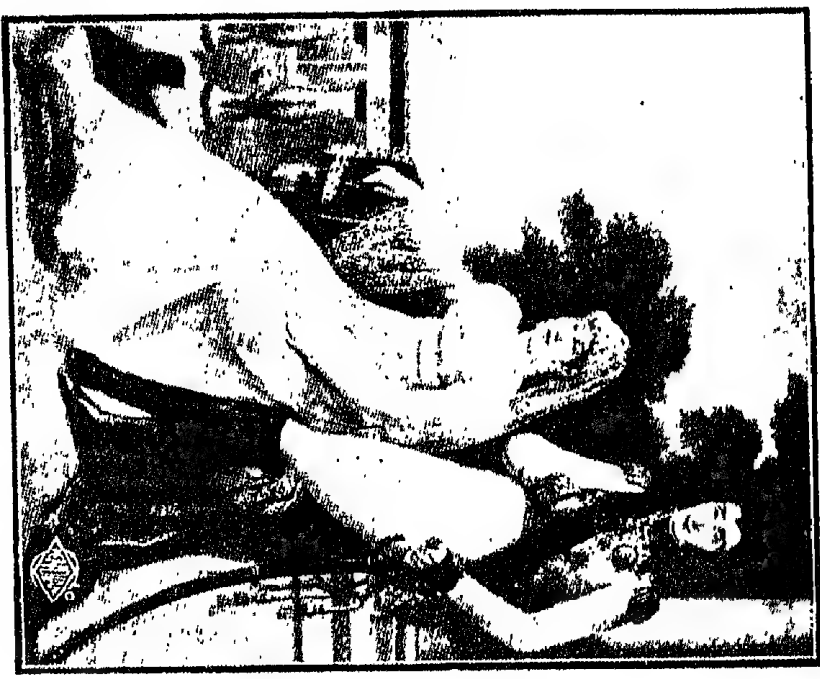
وأُسند الرئاسة الى منبج ، واتخذ بونايرت لنفسه لقب نائب رئيس . وافتتحت الندوة الجديدة بحفلة شائعة أيد فيها هذا الجندي العظيم كلماته الجميلة التي وجهها الى رئيس ندوة فرنسا العلمية لما انتظم في سلكها بقوله انه لم يكن يطمع بفتوحه إلا ليفتح قلعة الجهل ، وان نجاح جيشه لم يكن سوى نجاح العلوم والمعارف

وكان بونايرت قد استمال اليه المسلمين وكانوا يطلقون عليه اسم « السلطان الكبير » ، فصاروا يدعونه الى جميع أعيادهم واحتفالاتهم وقد شهد حفلة وفاء النيل وعيد مولد النبي من دون أن برأسها كما زعم بعضهم ، على ان احترامه للدين الاسلامي جعل المصريين يكرمون اسمه وينقادون لسلطته . ورأى بعض الناس أن تصرف بونايرت من هذه الجهة كان نوعاً من الميل الى الاسلامية ، مع أن بونايرت لم يفعل ما فعله من هذا القبيل إلا اجابة لداعي السياسة فلم يكن مسلماً ولا مسيحياً بل كان هو وجيشه في مصر من غلاة الفلسفة الفرنسية والسفسطة المقرونة بالتساهل ، وعدم الاكتراث للدين كما كانت الحال في القرن الثامن عشر . ولم يكن يشعر في رأسه بأفكار دينية تهب فيه بل كانت تجول في أعماق صدره عواطف دينية مبهمه . إلا أن هذه المقاصد التي كانت تكفيه مؤونة الاشتغال بالشؤون الدينية التي استغرقت الافكار في ذلك العصر والتي كانت تمكنه من تولي العلاقات الحبية مع الائمة والمشايخ كما كان يفعل في غير تلك الاحوال مع خدام الدين المسيحي والدين الموسوي لم تكن تدنيه من الانجيل أكثر مما كانت تدنيه من القرآن . وأقيمت في أول فنديمييار من السنة السابعة حفلة في القاهرة لعيد انشاء الجمهورية ، فقرأس بونايرت هذه الحفلة الوطنية وقال لرجاله « أيها الجنود ، من خمس سنوات كان استقلال الشعب



لويس بونابرت ملك هولندا ووالد نابوليون الثالث

ولد في اجاكسيو سنة ١٧٧٨ وتوفي في ليفورنو بايطاليا سنة ١٨٤٦



جبروم بونابرت ملك وستفاليا

ولد في اجاكسيو سنة ١٧٨٤ وتوفي في فيلجنيس بفرنسا سنة ١٨٦٠

مستهدفا لنبال المخاطر ففتحت طولون وكان هذان ذرياً بدمار أعدائكم . وبعد سنة من الزمان ظفرت بالنسويين في داغو ، وفي السنة التالية كنتم على قمة جبال الالب . ومن سنتين كنتم تحاربون مانطو وقد أصبنا النصر في موقعة القديس جرجس المشهورة ، وفي السنة الماضية كنتم عند ينابيع نهري الدراف والاي نزو في أثناء عودتكم من المانيا . فهل كان يجري في وهم احد في ذلك العهد أنكم تجميعون اليوم على ضفاف النيل في وسط القارة القديمة ؟ لقد لقم اليكم انظار العالم من البريطاني المشهور في الفنون والتجارة الى الاعرابي القبيح المنظر الشرس الاخلاق . أيها الجنود ، ان ثغر الحظ يفر لكم ، فأنتم جديرون بالاعمال التي أتتموها ، وأنتم عند ظن الناس فيكم . ستقضون بشرف على مثال الابطال المحفورة أسماؤهم على هذه الاهرام ، أو تلثنون منقلبين الى وطنكم تجرون ذلاذل النصر وتصيبون اعجاب جميع الناس بكم

« من خمسة أشهر قضيناها بعيدين عن أوربا لم ينفك وطنيوننا عن الاهتمام بنا ، ففي هذا اليوم يحتفل أربعون مليوناً من الوطنيين بذكرى عصر الحكومة النيابية ، ويفتكر بكم أربعون مليوناً من الوطنيين وجميعهم يقولون : أنهم بالاعمال النبيلة التي اتوها والدماء الكريمة التي بذلوها ذوو فضل على السلم العام والراحة ورواج سوق التجارة ومحاسن الحرية المدنية . »

وكان المشايخ يشاطرون في الظاهر الجيش الفرنسي ابتهاجه مقدرين لبونا برت مشاطرته إياهم الاحتفال بمواسمهم حق قدرها . فدوى الجامع الاكبر بتهليل الفرح وابتهلوا الى الحق سبحانه وتعالى بأن يفيض ينابيع نعمه على حليف النصر ويعضد جيش أبطال الغرب وفي غضون تلك التظاهرات الحربية كان ابراهيم بك ومراد بك زعيما المماليك وحليفا بريطانيا يوقطان الفتنة فما عتمت أن بدت طلائعها في عاصمة الديار المصرية . وكان بونا برت في أثناء ذلك الحين في مصر القديمة . فلم يكده ينتهي اليه ماجرى حتى بادر الى العودة الى معسكره ، فطهر جنود الفرنسيين في مدة قصيرة شوارع القاهرة وأزقتها ، واضطروا الثائرين الى الاعتصام في الجامع الاكبر ، فأمطر عليهم المدفعيون سحب الموت من أفواه مدافعهم . وكانوا قد ابوا الاستسلام ، الا أن قصف صواعق المدافع جعلهم يسلسون قيادهم للفرنسيين ، فنبذ بونا برت قبول استسلامهم المتأخر

عن ميعاده قائلًا لهم . « انقضى زمان الشفقة ، فأنتم ابتدأنتم وأنا أنهي » .
خطمت أبواب الجامع وجرت غدران من دماء الترك . وأراد بونايرت أن
يقتحم بنوع خاص للجنرال دوبوي قائد الموقع وسلوكوفسكي الشجاع اللذين
عبثت بهما أظافر المنية

وكان ان سياسة بريطانيا النافذة بعد ما أيقظت فتنة القاهرة من مرقدتها
وجعلت جميع البلاد المصرية تهب على الغزاة حملت حكومة القسطنطينية على
اعلان العداوة لفرنسا . فأصدر السلطان نشرة ضمنها سباباً وثماً للفرنسيين ،
وأوجب اهانة راية الجمهورية والايقاع بمجندها فأجاب بونايرت على هذه
الاهانات والتظاهرات العدائية بنشرة ختمها بالاية القرآنية قائلًا ، « ان أشرف
الانبياء قال . الفتنة هاجدة ، فليكن ملعوناً من يوقظها ! »

وشخص بونايرت الى السويس ليتفقد آثار التركة القديمة التي كانت صلة
بين مياه النيل والبحر الاحمر ، وقد صحبه اليها منج وبرتوله ، فكادت رغبته في
رؤية عيون موسى تكون وخيمة التبعة عليه ، لانه ضل في الليل الهيم عن
سواء السبيل من جراء مد البحر وجعل ينجي النفس قائلًا . « أوشكت أن
أهلك كما هلك فرعون من قبلي ، ولو تم هذا لكان جميع الواعظين المسيحيين
يلقون في هذا الحادث موضوعاً للتشفي مني »

ولما درى رهبان طورسينا أن بونايرت في جوارهم أرسلوا اليه وفداً يدعوهم
بلسان أعضائه الى كتابة اسمه في سجلهم بعد اسم علي وصلاح الدين وابراهيم
وغيرهم ، فلم يرض عنهم بونايرت بهذه النعمة الموءاتية لرغبته في اصابة الشهرة
وكان عبد الله باشا الجزائر قد استولى على قلعة العريش التابعة لحكومة
بلاد الشام ، فصمم بونايرت على محاربته ، وكان ينوي من عهد بعيد مباشرة هذا
الامر . وانتهى اليه وهو في السويس نبأ انتصار الجزائر ، فعجل في العودة الى
القاهرة ليستصحب الجنود الذين كان محتاجاً اليهم في حملته . وبعد ما حمل على
ضمان الراحة في العاصمة وتقليم أظفار الفتنة فيها بالتمثيل بالزعماء الذين حركوا
ساكناتها فصل عن أرض مصر وأوغل في القارة الاسوية ، فاجتاز البادية
المنبسطة أمامه زاكباً متن هجين ، وقد فضل ركوبه على ركوب الجياد لصبره
على الحر والمطش والجوع والانضاء . وضلت طلائع الجيش عن الطريق ، فلم

يلتقطها إلا حين كادت تستسلم إلى القنوط ، وقد أوشكت أن تبديت فريسة للأعياء والظلم . فجاءهم بونايرت بالمطعم والمشرب وقال لهم « وهب تأخرت عن امدادكم بالطعام والشراب فهل يكون هذا الامر سبباً لتدميركم ووهن عزائمكم ، فلا ينبغي أن يقع مثل هذا الامر يا جنود ، بل تعودوا بذل المهج بشرف » وكان شظف المعيشة والجهد يشندان في بعض الاحيان فيفسد النظام العسكري ويدخل عليه الاضطراب ، وقد حدث لجندي فرنسوي في رمال البادية المحرقة ان يتخلى بعناء رؤسائه عن قليل من الماء الآجن أو ظل بعض الجدران المتداعية ، كما انه صار فيما بعد في وسط الثلوج في روسيا ينازعهم بعض الزوايا في الاكواخ أو يضع قطع من لحم الخيل المتن . فذات يوم كاد القائد الاكبر يخنق من شدة حرارة الشمس فنال نعمة عظيمة بأن يستدري ببقايا باب ، وقد قال بونايرت في هذا الصدد « انهم منحوني في ذلك الامر امتيازاً عظيماً » وبينما هو يفحص الارض برجله عثر على حجر نقش عليه صورة أوغسطس قيصر فعلق عليه العلماء أهمية كبرى وأعطى بونايرت أندريوسي اياه ، ثم انه استرجعه منه وقدمه فيما بعد لجوزفين لتجعله فص خاتم ، وقد وجد هذا الحجر بين أنقاض بيلوز

ولما تمعّب بونايرت آثار جيش الترك في بلاد الشام كان يرمي إلى غاية أبعد ، فانه كان يبتغي التحرش بالدولة البريطانية بتأليفه حملة يزحف بها إلى الهند مجتازاً بلاد العجم ، وكتب إلى طيبو صايب رسالة هذه خلاصتها

« انه ولا مرأ قد انتهى اليك نبأ وصولي إلى شواطئ البحر الاحمر بجيش جرار لا يشق له غبار ، يرغب كل الرغبة في تحريرك من نير بريطانيا الحديدية ، فأبادر الآن إلى اشعارك برغبتني منك ان تبلغني بطريق مسقط أو مخا أخباراً عن موقفك السياسي . وأرغب منك أيضاً ان توفد من لدنك إلى السويس أو إلى القاهرة مندوباً داهية نائلاً ثقتك فأتمكن من مفاوضته »

فهذا الكتاب الذي خطه بونايرت في ٢٥ يناير سنة ١٧٩٩ ظل بغير جواب ، وسقطت دولة طيبو صايب بعد مدة قصيرة .

وبلغ بونايرت العريش في منتصف شهر فبراير وفي ١٦ منه سلمت قلعة العريش بعد انكسار المماليك انكساراً تاماً وفتحت غزاة أبوابها في وجهه بعد ستة أيام : ولما اقتربوا من بيت المقدس سألوه هل ينوي المرور بها ، فأجابهم

بجدة « لا . فان مدينة بيت المقدس غير مذكورة في الخطة التي توخيت المسير عليها ، فلا أروم التحرش بسكان الجبال والتوغل في ما زق يصعب الخروج منها ، وفضلا عن ذلك أخشى ان يهاجمني من الجهة الاخرى فرسان كثير و العدد وأحاذر ان يصيبني ما أصاب كاسيوس »

« وفي ٦ مارس استولوا على يافا بعد هجوم عنيف ، فأبيع فيها النهب والقتل ، فأخذ بونايرت حاجبيه بوهارنه وكروازيه لتسكين هياج الجند ، فوصلوا في الحين الملاثم وأنقذا من جنود الحامية أربعة آلاف الباقي كانوا قد نجوا من المجزرة بالتجاءهم الى الخانات . ولما أبصر القائد الاكبر هؤلاء الجنود الذين جاؤوه بهم تأثر وقال « ماذا يريدون ان أفعل بهم ، فهل عندي من الطعام والشراب ما يكفيهم ، وهل عندي سفن تقلهم الى فرنسا أو مصر ؟ فما هذا الامر الذي فعلوه ؟ » فاعتذر الحاجبان بما كان يهددهما من الخطر لو كانا قدأبيا قبول التسليم ، وذكر بونايرت بالمهمة المقرونة بالانسانية التي فوضها اليهما فأجابهما بجدة « أجل ان الامر الذي تذكرانه يتناول النساء والاولاد والشيوخ ويستثنى الجنود المدججين بالسلاح ، فكان الاشبه بكما ان تهلكا ولا تأتيا في هؤلاء العاسين ، فماذا تريدان أن أفعل بهم ؟ »

وظل ثلاثة أيام يقاوض أصحابه في أمر الحظ المكتوب لاولئك المنكودي الطالع ريثما يأتيه البحر والريح بسفينة تملصه من أسراه من دون ان تضطره الحال الى اجراء غدران جديدة من الدم ، الا ان تدمير الجيش لم يمكنه من تأخير عمل كان ينفر منه نفورا عظيما . ففي ١٠ مارس أصدر الامر بنصب الالبانيين هدفا للرصاص .

وانتشر في مصر خبر سقوط يافا بالاذاعة التالية .

« بسم الله الرحمن الرحيم رب العالمين ، مالك كل شيء ، مؤتي النصر من يشاء . هذا نبأ الفضل الذي من به البادي تعالى على الجمهورية الفرنسية ، فقد فتحنا مدينة يافا في بلاد الشام

« كان الجزار ينوي الزحف بسفاحي العرب الى القطر المصري مقر المساكين إلا أن أحكامه تعالى تظهر على مكاييد البشر ، فقد كان يبتغي أن يسفك الدماء كمألف عاداته الهمجية منقاداً بذلك الى عجرفته والمبادئ الذميمة التي

اقتبسها من الممالك وأوحاها اليه الجهل . فذهب عنه أن الحق سبحانه وتعالى مصدر كل شيء

« في ٢٦ رمضان أحاط الجيش الفرنسي بمدينة يافا ، وفي ٢٧ منه احتفر القائد الأكبر خنادق عند رؤيته مدافع كثيرة وجمهوراً غفيراً من الناس في المدينة . وفي ٢٩ منه صار طول الخنادق نحواً من مئة قدم فنصب القائد الأكبر المدافع والبطاريات الى جهة البحر ليسد الطريق في وجه الذين يريدون الخروج » وفي يوم الخميس وهو آخر يوم من شهر رمضان عطف القائد الأكبر على سكان يافا ، فدحا حاكم المدينة الى التسليم ، فكان الجواب القاء القبض على الرسول ومخالفة القوانين الحربية والشرائع الدينية والمدنية

« وفي الحال انفجر مرجل الغضب في صدر بونابرت فأطلق المدافع والقذائف ، وفي بضع دقائق تعطل مدفع يافا . وعند الظهر فتحت ثغرة في سور ، فهجم الفرنسيون وفي أقل من ساعة من الزمان استولوا على المدينة والقلاع واشتبك الجيشان في القتال فمال النصر الى الفرنسيين ، وظل النهب جارياً ذلك الليل بطوله . وفي يوم الجمعة تحركت في فؤاد القائد الأكبر عوامل الشفقة على المصريين المقيمين في يافا ، فصنح عن الفقراء والاغنياء منهم على السواء وأرجعهم بكرامة الى بلادهم ، وعامل بالمعاملة نفسها الدمشقيين والحلبيين . وقتل في المعركة بالرصاص أو بحد السيف أكثر من أربعة آلاف رجل من رجال الجزائر . وفقد الفرنسيون عدداً يسيراً من الرجال ، وجرح قليلون منهم ، ودخلوا بطريق الجسر من دون أن يبصرهم أحد . ياعباد الله اخضعوا لاحكامه ، ولا تخالفوا مشيئته ، واحفظوا وصاياه ، واعلموا أن العالم له يعطيه من يشاء والسلام »

وجاء الجيش الفرنسي الى بلاد الشام بجرائم الطاعون فانتشرت فيها واستفحل أمرها في حصار يافا . وكان غرازيو أحد معاوني الجنرال يحاذر أن يمس أحداً من الموبوئين مخافة أن يسري الوباء اليه ، فقال بونابرت « اذا كان يخاف من الطاعون فسوف يموت به » وقد تم تلبؤه في حصار عكا

ووصل بونابرت في ١٦ مارس الى مدينة عكا ، فلقى فيها مقاومة شديدة لم يكن يتوقعها . وجرح الجنرال كافارلي جرحاً مميتاً ، فقبل ما لفظ أنفاسه

الآخيرة طلب أن تتلى علي مسمعه المقدمة التي كتبها فلتير لكتاب «روح الشرائع»
فاستغرب القائد الأكبر هذا الطلب وكان يعتبر مصرع كافارلي خسارة جسيمة
وجاءت بونابرت أخبار من مصر العليا ، ومن جملتها نبأ من ديزه مفاده
أن السفينة «إيطاليا» أنشبت في الرمل عند ضفة النيل الغربية بعد عراك عنيف
وكان بونابرت مع شدة دهائه يعتقد في غالب الأحيان صحة بعض الخزعبلات
والترهات ، فلما عرف ماجرى لتلك السفينة قال « ضاعت إيطاليا من يد فرنسا ،
خُدسي لا يخطيء موقع الصواب »

وانتشر الجيش الفرنسي في أثناء حصار عكا في معركة جبل تابور الشهيرة ،
فكان اثنا عشر ألفاً من الفرسان واثنان عشر ألفاً من المشاة قد هجموا
على كليبر وأحاطوا به وبرجاله الثلاثة الآلاف الذين ثبتوا في ميدان القتال ثبات
الأسود . ولما وقف بونابرت على حقيقة قوة الأعداء خف بفصيلة من الجنود
لمناصرة كليبر ، وفور وصوله إلى ميدان الحرب قسم فصيلته إلى مرتعين ورتبها
على هيئة يتألف منها ومن مربع كليبر شكل مثلث متساوي الأضلاع طوّق
العدو . وكانت النار الخارجة من أضلاع المثلث تحصد المماليك حصداً وتمزقهم
أيدي سبا مغمشية وجه الصعيد بأشلائهم . وقد بدد ستة آلاف فرنسوي شمل
الجيش الذي كان سكان تلك الأرجاء يعتبرونه جراراً يحكي عدد نجوم السماء
ورمل البحر .

وبعد حصار دام شهرين رأى بونابرت عدد جيشه يقل شيئاً فشيئاً من
جلاء اشتداد الطاعون عليه وفتكه به فتكا ذريعاً والمواقع المتوالية الناشبة
بينه وبين حامية المدينة المتولي زعامتها قائد لا تلين شدته النوائب ولا تثلم حده
الشدائد ، وحينئذ صمم على العودة إلى مصر . فتقلص ظل المقاصد الواسعة
التي كانت تجول في فناء جنانه وتدور رحاها على قطب الشؤون الشرقية ، وتجمعه
يتنقل بالفكر من ضفاف السند إلى شواطئ البوسفور . وقد قال فيما بعد :
« لو سقطت عكا لغيرت وجه العالم ، فقد كان حظ الشرق محصوراً في هذه
المدينة الصغيرة ، »

واليك النشرة التي أصدرها عن يافا مشعراً بعودته إلى القطر المصري
« أيها الجنود ،

اجتزمت البادية الفاصلة بين أفريقية وأسيا بسرعة تفوق سرعة جيش العرب « وقطعتم نظام الجيش الزاحف الى أرض مصر ، وأسرتهم قائده وغنمتم ذخائره وأمتعته وقربه وجماله ، وفتحتم جميع المواقع المنيعه الحامية آبار الماء في البادية ، ومزقتم في جبل تابور شمل المقاتلين المتألمين من جميع أنحاء أسيا طمعاً بشن الغارة على مصر ونهبها وان السفن الثلاثين التي أبصرتموها قادمة الى عكا من اثني عشر يوماً كانت تقل الجيش الموكل اليه أمر محاصرة الاسكندرية ، ولكن قضت عليه الاحوال بالجحيء الى عكا فكان فيها هلاكه . وسيزدان موكب دخولكم مصر ببعض راياته .

« وبعد ما حاربنا بمجنود قليلي العدد ثلاثة أشهر في قلب القطر السوري ، وغنمنا أربعين مدفعاً وخمسين راية ، وأسرننا ستة آلاف رجل ، ودككنا حصون غزة ويافا وحيفا وعكا صحت عزيزتنا على العودة الى مصر . فان زمن الصعود من السفن اليها يدعوني ، لقد كنتم تعلمون النفس بأنكم بعد أيام تقبضون على الباشا في قصره ، ولكن استيلاءكم الآن على قصر عكا لا يوازي ضياع بضعة أيام . فالابطال الذين تقضي علي الاحوال بفقدانهم فيها أحتاج اليهم لقضاء أعمالهم وأفضل »

وفي ٢٠ مايو صدر الأمر بالانسحاب . وكان بونا برت يريد ان يسير الجميع على الاقدام تاركين الجياد للجرحى والمرضى . ولما جاء الجندي المقيد بخدمته وقال له . أي جواد أبقيه لك ؟ انهره قائلاً « فليمش الجميع على الاقدام . . . وأنا في مقدمتهم . أفأعرفت الامر ؟ أغرب من وجهي . »

وصلوا الى يافا في ٢٤ منه ، فكانت المستشفيات فيها تغص بالمرضى حيث كانت الحى الوبيطة تحصدهم حصداً . فعادهم القائد الاكبر متفقداً أحوالهم ، وقد بلغ منه التأثر حين شاهد ما صاروا اليه وما كانوا يشعرون به من العذاب . فأصدر الامر باخلاء المستشفيات الا انه كان بين المرضى مطعونون يبلغ عددهم ستين . وكان الوباء قد اشتد على ثمانية منهم لم يكن يؤمل ان تمتد آجالهم أكثر من أربع وعشرين ساعة كما جاء في « مفكرة القديسة هيلانة » فخاروا في مايجب ان يفعلوه بأولئك التاعسين ، وشاور بونا برت أصحابه في الامر . فقالوا له ان كثيرين منهم يطلبون الموت بالحاح ، وان مخالطتهم للجيش تكون وخيمة التبعة عليه ،

وان الحكمة والمحبة تقضيان بتعجيل وفاتهم بضع ساعات والاجهاز عليهم .
ويحقق بعضهم انهم جرعوهم شراباً عجلاً موتهم .

ولما دنا بونابرت من مدينة القاهرة أوعز الى نائبه فيها ان يهيء له جميع
معدات الاحتفاء به واستقباله استقبال الظافر ليزيل أو يخفف ما خامر الاذهان
من تأثير الاخفاق الذي أصابه في حملته على بلاد الشام . وكان يرمي بذلك الامر
الى اقالة عشار قوى جنوده الراححة تحت أوقار القنوط ، والتهويل على المصريين
وقد كان يخشى انتفاضهم عليه وقضت عليه السياسة والمصلحة بأن يكتم حقيقة
النكبة التي ناله ويجاهر بفوز وهمي باهر

وكان الديوان المصري يقابل عواطف بونابرت بالمثل ، فقرر اقامة حفلات
لتلك الغاية وأذاع نشرة جاء فيها ما يأتي : —

« وصل الى القاهرة الجنرال بونابرت المحروس بالعناية الالهية وقائد الجيش
الفرنسوي وصديق الدين الاسلامي . . . دخل القاهرة من باب النصر . فهذا
يوم أغر محجبل لامثيل له . كان في غزة ويافا . فحصى سكان غزة ، الا أنه لما
رأى ان سكان يافا قد ضلوا عن الصراط المستقيم وأبوا التسليم حي غضبه
عليهم وأسلمهم جميعهم الى النهب والقتل ، فذلك جميع أسوارها وبطش بجميع
الذين كانوا فيها »

وعني بونابرت في أثناء اقامته في القاهرة بتنظيم الاحصاءات المختلفة عن
القطر المصري فنشرت في مذكرات كاتبه الملاحظات التي نظمها

وانتهى الى بونابرت أن مراد بك توغل في مصر السفلى فهجر الراحة
والاعمال السلمية ، ورح القاهرة في ١٤ يوليو ميمما الاهرام . وفي مساء الغد
جاءته رسالة من مرمون قائد جنود الفرنسيين في الاسكندرية مفادها أن الترك
صعدوا الى أبي قير في ١١ منه تحت كنف البريطانيين خف القائد الاكبر في
الحال الى محاربة جيش الترك الرافع فوق رأسه لواء مصطفى باشا . وكان يميل
كل الميل الى اصلاح نكبة أبي قير في أبي قير عينه . فظفر ظفراً مبيناً في هذا
المكان ودفع الى البحر عشرة آلاف رجل وبات الباكون قتلى أو أسرى . واليكم
ما كتبه بونابرت الى الديركتوار في هذا الصدد

« كتبت اليكم في رسالتي المؤرخة في ٢١ فلوريال أن الفصل الملائم لركوب



يواكيم مورات ملك نابولي وزوج كارولين بونابرت شقيقة نابوليون الاول
ولد في البستيد مورات ١٧٦٧ وقتل رمياً بالرصاص في نابولي ١٨١٥

البحر يحملني على ترك بلاد انشام
« وفي ٢٣ مسيدور انتهت الى مياه الاسكندرية مئة سفينة بينها عدد كبير
من السفن الحربية ورسى في مياه أبي قير ، وفي ٢٧ منه صعد العدو الى البر
وأخذ حصن أبي قير عنوة وبجراحة غريبة ، فسلمت حاميته وأخرج العدو مدافعه
الى البر وعضدته خمسون سفينة على احتلال كتيبان عالية من الرمل ، وكانت
ميمنته الى البحر وميسرته الى بحيرة المهدية

« وفي ٢٧ منه انطلقت من معسكري عند الاهرام ، فوصلت في أول
ترميدور الى الرحمانية ، واخترت البركة مركزاً لأعمالها ، وفي الساعة السابعة
صباحاً من اليوم السابع من ترميدور التقيت العدو

« فشى الجنرال لان على طول البحيرة ، واصطف للقتال بازاء ميسرة العدو
حين كان الجنرال مورات قائد الطلائع يوعز الى الجنرال دستانس بمهاجمة الميمنة ،
وكان الجنرال لانوس يعضده

« وكان سهل جميل مساحته أربع مئة تواز « التواز يوازي ستة أقدام »
يفصل بين جناحي الجيش ، فدخله فرساننا وبلغوا بأسرع من انتقال الفكر الى
ما وراء ميسرة العدو وميمنته ، فاعملوا فيه السيف ودحروه وقذفوه الى البحر
فلم ينج منه أحد . ولو كنا نقاتل جيشاً أوربياً لكنا أسرنا منه ثلاثة آلاف
مقاتل ، ولكننا سقناهم الى ثلاثة آلاف محارب

« وكان الصف الثاني من صفوف الاعداء على بعد خمسة آلاف أو ستة آلاف
تواز عنا ، وقد احتل موقعاً حصيناً . وكان ثمت برزخ ضيق جداً ، فتحصن
فيه العدو بكل تحفظ ، وكان عنده ثلاثون زورقاً مدفعية . وخيم العدو قراب
هذا الموقع في قرية أبي قير وبني فيها الاستحكامات والحواجز . فأخذ الجنرال
مورات القرية عنوة وهجم الجنرال لان بالفصيلة الثانية والعشرين وشطر من
الفصيلة الستين على ميسرة العدو ، وأغار الجنرال فوجيار بمجنوده على ميمنته ،
وكان الهجوم والدفاع بالغين منتهى العنف على السواء ، الا أن فرسان الجنرال
مورات الصناديد عقدوا عرى العزائم على نيل المجد الرفيع في هذا اليوم ،
فهمجوا على ميسرة العدو وأغاروا على ميمنته من الورا وحصروه في مأزق
يصعب الخروج منه ، وقتلوا منه مقتلة عظيمة . وكان أول من دخل الحصن

الوطني برنار قائد الفصيلة التاسعة والستين والوطني بايل قائد رماة القنابل في نصف هذه الفرقة ، فكان ذلك مدعاة الى توشحهما حامل الفخر

« وكان الصف الثاني من صفوف الاعداء كما كان الصف الاول من صفوفهم يغطي مجثمته وجه ساحة القتال أو يغوص في النيل

» وبقي للعدو ثلاثة آلاف رجل وضعها في قلعة أبي قير على بعد أربع مئة تواز خلف الصف الثاني ، فحاصروهم الجنرال لانوس ، فأطلقت عليه القنابل من ستة مدافع. على ان الشاطئ الذي جر فيه التيار في السنة الماضية جثث البريطانيين والفرنسيين صارت اليوم تغشيه جثث أعدائنا المحدودة بالالوف ، ولم ينج أحد منهم . ونشب في جبال الاسر مصطفى باشا الروملي قائد الجيش الاكبر وابن عم السفير العثماني في باريس كلاله ، وأسر معه جميع ضباطه . وهاءنذا مرسل اليكم أذنا به الثلاثة . . .

« وعندي ان نيل النصر في هذه المعركة مرجعه الى الجنرال مورات ، فاطلب منكم ان ترقوه الى رتبة أمير لواء لأن فرسانه أتوا بالمعجزات . . . » وقدمت للجنرال برتیه من قبل حكومة الديركتوار الاجرائية خنجراً بديع الصنع ، فكان اهداؤها اياه دليلا على رضاها عن خدم مافتيء يقدمها في خلال الحرب كلها . . . »

واغتنم بونايرت الفرصة من انتصاره لينفذ سفيراً مفوضاً الى الاميرال البريطاني ، فهذا بعث اليه بصحيفة فرنكفورت الفرنسية الصادرة في ١٠ يونيو سنة ١٧٩٩ وكان القائد الفرنسي يتذمر من مدة طويلة لا تقطاع أنباء أوروبا عنه . فتصفح الجريدة بلهفة شديدة فعثر فيها على الحال السيئة التي صارت اليها شؤون فرنسا وانكسارات جيوشها المتوالية فصاح قائلاً « لقد صدق وايم الحق حدسي ان ايطاليا فقدت من أيدينا وضاعت ثمار انتصاراتنا ، وعليه لا أرى مندوحة عن الرحيل »

وصحّ عزمه من هذه الدقيقة على الانطلاق ، فأسرّ هذا الامر الى الجنرال برتیه والاميرال غنتوم . وأوعز الى هذا الاخير بأن يهيء له السفينتين الحربيتين مويرون وكاير والمركبين الصغيرين الريفانش والفرتون لنقله مع حاشيته الى فرنسا وكان بونايرت يبتغي ان يلقي بمقاليد زعامة الجيش العليا الى أشد القادة

جراً وأعظمهم كفاءة، فتردد بين ديزه وكليبر. وقد جعلته رغبته في استصحاب الأول معه يقرر تعيين الثاني خلفاً له في قيادة الجيش غير مبال بما كان بينه وبين كليبر من النفور. فكتب اليه ليوقفه على ما عزم عليه، ويفوض اليه السلطة العليا، وكان من جملة ما أوصاه به ما يأتي

« ان المسيحيين يفلتون أصدقائنا فيجب ردعهم عن التمادي في العيث فساداً لئلا ينظر المسلمون الينا بمقلة التعصب عينها التي ينظرون بها الى المسيحيين، فنصبح غير مستطيعين استمالتهم الينا. »

ويعرض لنا هنا هذا السؤال وهو: هل كان الديركتوار يرغب في رجوع بونابرت بعد ما كان قد نظر بعين الجذل الخفي الى انطلاقه من بلاده من دون أن يخفى ذلك الأمر عليه؟ ويزعم بعضهم أنه انتهى الى بونابرت رسالة وقعها تريهار ولاريفيليار ليبو وباراس جعلته يصمم على مغادرة القطر المصري. ويصعب الجزم مع ما يحيط بهذا الأمر من الروايات المتناقضة، كيف صمم بونابرت على الرحيل وعندنا انه لما جبطت مساعيه في بلاد الشام وانتهت الى الانباء عن حالة الشرور والافكار في فرنسا، خيل اليه أن الساعة دنت لحسم الشام عن حقيقة أفكاره ومطامعه وتحويلها من الشرق الى الغرب. وكان من جملة ما قاله في نشرة أصدرها عن الاسكندرية ما يأتي:

« ان أخبار أوروبا جعلتني أقرر العودة الى فرنسا، فأنا ألقى الى الجبال كليبر بمقاليد قيادة الجيش وعن قرب ستصل الى هذا الجيش الانباء عني. والله ليعز عليّ وايم الحق فراق جنود تعلق بهم كل التعلق، إلا أن هذا الفراق سيكون وقتياً. وقد أصاب انقائد الذي استخلفته عنايكم ثمة الحكومة وثقتي» وفي أواخر شهر أغسطس أفاج بونابرت يصحبه برتيه ومرموون وزيارات ولان واندريوسي ومنج وبرتوله وغيرهم، فتمكن من تجنب الاسطول البريطاني الذي كان قد ابتعد عن الشواطئ الافريقية يريد ثغراً من ثغور قبرس لجلب الذخائر والمؤن، وفي ٦ أكتوبر بلغ مرفأ فريجوس بعد ما نجا من الالهيرال سدي سميت البريطاني الجاد في أثره.



الفصل التاسع

العودة الى فرنسا — ١٨ بزومير

وكان عبور البحر من الاسكندرية الى فريجوس محفوفاً بالمصاعب والمخاطر فقد قضي على الاسيطليل عند خروجه من المياه المصرية أن يكافح الريح الشديدة المعاكسة فاقترح الاميرال الانثناء على الاعقاب الى المرفأ وكان جميع الركاب يرون رأيه . ولو لم يصبر بونايرت على اقتحام غمرات المنون والتغيرير بنفسه لادراك الغاية التي كان يرمي اليها لكان رأي الاميرال قد تغلب على مشيئته . ولما فصل عن اجاكسيو قامت في وجهه مصاعب يعز على سواه تذليلها . بيد أنه تمكن من الظهور عليها بما كان مفطوراً عليه من العناد والتصلب في الرأي . ويرجح ان شدة صريمته والخطة الغريبة التي رسمها للاميرال غنثوم وسيره على محاذة الشواطىء الافريقية للبلوغ الى جزيرة سردينيا جعلته ينجو من السفن البريطانية التي كانت تتعقبه باحثه عنه . وكان يخاف أن يفسد عليه تدبيره كما كان يشعر بالقلق والاضطراب كلما لاح له في الافق شراع سفينة . وبلغه وهو في اجاكسيو ما كان من النتيجة الوخيمة التي تلت معركة نوفي فقال . « لو لم يكن من المقضي عليّ ان أقضي مدة الحجر الصحي الملعون لكنت أتولى زعامة جيش ايطاليا حالماً أظأ الأرض بأخصي فلا تزال لدي وسائل عديدة ، وأنا موقن انه لا يضمن على قائد من القواد بقيادة جيشه ، فتصل حالا الى باريس أنباء النصر الذي أصيبه كما وصلت اليها أنباء النصر في أبي قبر . فياحبذا هذا الامر . »

وكان بونايرت شاعراً بالحاجة الى اتيان مأثرة خطيرة تمحو التأثير السيء المسبب عن مغادرته للقطر المصري بشكل فجائي أطلق اللسنة من عقابها لانتقاده . ولما وقف على حقيقة النكبات التي أصابت الجيوش الفرنسية في ما وراء الجبال ساوره القنوط من نيل الانتصارات السريعة التي كان يحلم بها ودهمه غم شديد جعل الناس يقولون عنه انه لبس ثوب الحداد على ايطاليا . وفضلا عن ذلك جعله احتفاء الاهلين به في فريجوس ينسى ملالة الحجر الصحي فوقت ما بلغهم خبر دخول الجنرال بونايرت مرفأهم غطوا وجه البحر بالمرآكب وأحاطوا بالسفينة

التي تقل ذلك الرجل العظيم قائلين « ان الطاعون لأفضل لنا من المنسويين »
وحينئذ لم تكن التدابير الصحية مستطاعة فانهز بونا برت الفرصة من هذا الامر
وعجل في الشخوص الى باريس

وكان قد أشعر بقدومه أخوته وزوجته نفخوا الى لقائه بطريق برغونية
المقضي عليه المرور بها بموجب الخطة التي بعث بها اليهم . ولكنه لما وصل الى
ليون غير رأيه وأخذ طريق البربونه . ولما لم يجد أخوته وجوزفين في ليون
انقلبوا مسرعين الى باريس . واستقبل معظم القوم هذا الجندي الباسل استقبال
المخلص غير مكترئين للاراجيف المنتشرة عن رجوعه الفجائي ومغادرته جيشه
في ما وراء البحار تحت سماء محرقة وفي أرض وبيلة الهواء

ولا يخفى ان الديموقراطية بعد ما أوجدت لفرنسا الذرائع العديدة المستطاع
التدرع بها لمناوأة الاجنبي أفضى بها الأمر في الداخل الى ابداء التبرم العام من
جرائم تقلبات الدهر ومعاكسات الافكار واحجام بعض دعاتها عن مواظبة
الاعتصام بمبادئها ومذاهبها . وان الثورة التي كان لها أنصار أشداء ذوو همّة
عالية في المجلس الدستوري وبين رجال القضاء ولجنة الأمن العام لم تكن تتوقع
شيئاً من أركان المجالس وأصحاب الكلمة المسموعة في ذلك العهد ، فانهم خفضوا
من مقام السلطة من دون ان يجعلوا الحرية تجني نفعا من هذا العمل ، واستبدلوا
بالسلطة الشعبية المطلقة سلطة استبدادية كانت الاحزاب تتناوبها واذا أضيف
الى هذا ان الجمهورية في الحالة التي صارت اليها ، وبين أيدي الذين وقع اليهم أمر
ادارة شؤونها ، وعلى الشكل الذي اتخذته لم يتسن لها ابقاء النصر موالياً لاعلامها
بل اصابها انكسارات عديدة متوالية أفقدتها ثمار الحروب الاولى الخالدة
الذكر ، علم لأول وهلة السبب الذي من أجله كانت الأفكار متهيئة لاجراء تغيير
سياسي خطير . ولكن أي نوع من التغيير ينوون اجراءه ؟ ومن الرجل الذي
يحسن ان يجري على يده هذا التغيير أو من الرجال الذين يتم على أيديهم ؟
وكان القوم يتناقلون هذه الأسئلة ويكثرون من جرائمها من الرجم بالغيب ،

ويسرفون في القيل والقال ، ويعملون النفوس بالاماني والآمال ، أو يخشون من التبعة الوحيدة التي يذهبون اليها
ان الحادث الخطير المنتظر وقوعه لم يكن مؤاتياً للجمهورية ، فقد كانت موصومة بوصمة ذكرى سيئة ينفر الناس منها ، وكانت سبباً للاضطراب والفوضى وقد كان الناس يتوقعون بنافذ الصبر وضع حد لها . ولم يكن أيضاً ذلك الحادث مؤاتياً للملكية ، فقد كان القوم ميالين الى رؤية نتائج الثورة مع تبرمهم من الشكل الذي اتخذته الحكومة الجمهورية ، وكان الجيش برمته ، كما تبين من حادث فركتيدور ، يهب لمواقعة كل من تحدته النفس باعادة السلالة البوربونية الى عرش فرنسا

ويستنتج مما بسطناه ان الرأي العام في الامة الفرنسية كان يرمي الى حصر السلطة في يد قويه تعمل لمصاحبة الثورة وايسر لها كسبها فكانت الضرورة في مثل هذه الحال أي نفور الشعب والجيش من حركة ارجاعية تعيد سلالة البوربون الى الحكم ، والخوف من عودة الحكم الشعبي تقتضي وجود شخص يدير بيده سكان الاحكام ويستطيع الذود عن حياض الاصلاح الاجتماعي الموضوع في سنة ١٧٨٩ وصيانتهم من الغوائل البويلة التي يعرضه اليها ارتقاء نوابض السلطة وبحول دون ميل الافكار الى خدمة الحزب الملكي لاعتصام هذه الافكار باهداف القوة ووحدة السلطة الادارية ، على ان نهوض هذا الرجل باعباء مهمته السامية لاجعله يزعم وقتياً أركان الديمقراطية لخدمة الثورة عينها ، وانما يجعل في قبضة الفرد السلطة الاجمالية وقد زاولتها المجالس الوطنية باسم الشعب . وكانت الحال تقتضي أن يكون هذا المرء من أشد الناس تعلقاً بالثورة وأعظمهم اخلاصاً للمصلح الحديثة ، وان يكون ذا عقل أرفع لبان روح العصر ، وأنشأ له مجداً أثراً في خدمة فرنسا الجديدة ، وصار قادراً على الاستعانة بشهرته وذهائه للظفر بالامانة والتعلق بالذين يضرهم حب الوطن نارها في بعض الافئدة دفاعاً عن دمار دستور السنة الثالثة . وكان يجب أيضاً ان تكون ذراع هذا الشخص ضامناً قوياً حافظاً من شرور الاجنبي ، والا يكون اسمه من جملة أسماء رجال الحكومة ذوي القلوب الجامودية الذين خلصوا البلاد لخلفين ذكرأ سيئاً . وهذه المهمة لا يضطاع بها سوى جندي من جنود الثورة يستطيع وحده نسخ الاوهام

الشمسية وهدم صرح الطريقة الجمهورية من دون ان يمس جوهر المنشآت الثورية العزيزة لدى فرنسا . وكان هذا الجندي يشعر من زمان طويل بهذه المهمة الخطيرة ، ورقبت مطامعه الفرصة الملائمة للاستقلال بها ، فكان صوت داخلي يناجيه من حدائته بأنه مزدان بجميع الصفات الضرورية وجامع لجميع الشروط اللازمة لما يسند اليه

وان ما كان بونابرت يراه ويرغب فيه كان منطبقاً على آماني الامة وحاجاتها، نسكان حضوره مقدمة للحادثة التي غيرت مجرى الثورة الفرنسية ، ولم يكذباً رجوعه ينتشر حتى التفت حوله الاحزاب جميعها مستندة الى شهرته ودهائه، وكل منها يبتغي التمويل عليه ليظفر بأمال كان يعلل النفس بنيلها

وكانت الاكثرية في الديركتوار المؤلفة من باراس وغوهيه ومولان وأنصارهم تتوخى المحافظة على دستور السنة الثالثة . فكان باراس يروم ذلك لاعتقاده أن بقاء الحال على ماهي عليه يخلد بقاء قابضاً بيده على زمام السلطة ، وكان غوهيه ومولان يعتقدان ان بقاء هذه الحال يحفظ حكومة الجمهورية على شكلها الحاضر . وأما سياس فانه كان يرى غير ذلك . فقد كان يميل سراً الى الملكية وينفر من الحكومة الشعبية ، ويتحين الفرصة السانحة للجهارة بمبادئ كان يحاذر افشاءها . فاتهم بأنه تعمد خيانة الجمهورية لخدمة أمير من آل برانسويك كما اتهم باراس بأنه فتح أبواب المفاوضات مع السلالة البوربونيه حين كاد القنوط يبلغ منه وكادت صروف الزمان تقل حده وتقلم أظفاره . وهذا هو السبب الذي من أجله كان سياس ميالاً الى الشخص الذي يتجرأ على مناوأة الديموقراطية وأشياها . وكان روجه دو كوس زميله يسلك مسلكه ويحذو حذوه . فجهل بونابرت في بدء الأمر حقيقة هذا الرجل حتى أنه في خلال مأدبة أدها غوهيه في غد اليوم الذي مثل فيه لدى الديركتوار لأول مرة بعد عودته خاطبه بلهجة احتقار

وقال سياس بغضب على أثر هذه الولية : « انظروا كيف يعامل هذا البذيء الحقير عضواً من أعضاء حكومة كان من حقها أن تنصبه هدفاً للرصاص » الا أن ذلك التباعد المتبادل الذي كان يشعر به كل من الفيلسوف والجندي ماعتم أن زال وخلفه ميل مشترك لتغيير شكل النظام السياسي في فرنسا . فقال

بعضهم لبونا برت مرة . « اتخذ لك نصيراً بين الاشخاص الذين يعتبرون أصدقاء الجمهورية يعقوبيين (ثوريين متطرفين) واعلم ان سياس زعيم هؤلاء الاشخاص ، وشعر الجنرال بأن نفوره يضعف شيئاً بعد شيء ، ويزعم بعضهم أنه طالج كتمان هذا النفور رغبة في استمالة ذلك الرجل الذي لم يحسن استقباله في بدء الأمر ولم يكن يعيل اليه . وكان يتوخى من وراء هذه المعاملة الاستعانة به لاجراء مقاصده العالية .

وأراد المدير كتماناً أن يبعد عنه بونا برت خوفاً منه وتخلصاً من شره فاقترح عليه أن يسند اليه قيادة الفيلق الذي يريده ، الا أن هذا المنصب الذي كان غير بونا برت يسر بنيله لم يكن من شأنه جذب هذا الرجل اليه ، فقد كان يشعر بأن منصباً أسمى وأفضل كان أمامه ، وقال . « لم أشأ نبذ المنصب الذي قدموه لي بل طلبت منهم أن يمهلوني ريثما تثوب الي العافية . وعمدت الى الاعتزال عن معاشر البشر لئلا يسندوا الي منصباً آخر يثبطني عن اجراء مقاصدي الكبيرة ، ولم أكن أشهد مجالسهم . وقد آثرت حزب سياس على حزب باراس »

الا أن التدابير التي أفضت الى ١٨ برومير تمت على يد لوسيان بونا برت وايدى سياس وتاليران وفوشه وريال ورينيودي سان جان ديجلي وغيرهم . وكان فوشه من الأعلى عيل صبرهم لتقويض دعائم طريقة الحكم الجمهوري بعد ما كان من المغالين في خدمة مبادئها ، فقال لكاتب بونا برت . « فليسرع الجنرال والا هلك ولا محالة »

وتردد كباساريس ولبرون في الجزم بهذه القضية ، فان المؤامرة لم تكن مؤاتية لتحفظ الواحد ولا لاعتدال الآخر . ولما علم بونا برت بتردهما صاح كأنه القابض بيده على أزمة الاحكام في فرنسا . « اني لمنكر هذه المواربة فلا يتوها أني محتاج اليهما ، فليجزما في الامر اليوم والافات الفرصة غداً . فأنا آتس من نفسي المقدرة على الاستقلال في العمل »

وكان جميع القواد المشهورين في باريس يذهبون مذهب بونا برت حتى أن مورو نفسه جاهر بأنه يرفع لواءه فوق رأسه ، وسنرى عن قريب المهمة التي رضي بأن ينهض باعبارها في اليوم الذي كان فيه كل شيء مهيباً له . وكان يعوز هذا المتأمر العظيم مناصرة زميل من زملائه يخشى معارضته ودهاءه وطباعه .



المرشال ناى دوق الشنجن واميرالموسكوف
ولد فى سارلويس ١٧٦٩ وقتل رمياً بالرصاص فى باريس ١٨١٥

فقد كان برنادوت مصراً على وجوب الدفاع عن كيان الجمهورية وحرمة دستور السنة الثالثة . الا أن نسيبه يوسف بونابرت جاء به الى اخيه صباح اليوم الثامن عشر من شهر برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) فكان عنده جميع القواد الكبار وهم لا يسون بزاتهم الرسمية . وكان برنادوت لابسا ثوباً بسيطاً ، فاستاء بونابرت منه وأبدى له تعجبه وخلا به في غرفته ، وباح لديه بما كان قد عقد عليه عروة العزم قائلاً له . « ان حكومة الديركتوار ممقوتة ، والدستور بال ، فيجب والحالة هذه تطهير الحكومة من أعضائها وانشاء هيئة جديدة لها . فاذهب واتشح بيزتك ، وأنا لا أستطيع أن انتظر ك وقتاً طويلاً . فستجدني في التويلري بين جميع رفاقنا . واياك أن تتشكل على مورو أو برنوفيل أو غيرهما من القواد . وحين تتعمق في اختبار الناس تعلم أنهم يكثرون من المواعيد وينجزون القليل منها . فلا تركز اليهم » فقال له برنادوت انه يأنف من الاشتراك معهم في المؤامرة ، فطلب منه بونابرت أن يلزم خطة الحياد التام ، فأجابه برنادوت جواباً لم ينقع له غلة قائلاً . سأظل ساكناً كوطني ، ولكن إذا أمرني الديركتوار بالعمل فلا ألتقي بدا من مواجهة جميع المشاغبين . فلما سمع بونابرت هذا الكلام لم يفر فائره بل كظم غيظه مخافة أن يتدخل في القضية عدو داهية شجاع يفسد عليه أمره ويحبط سعيه

وبينا جميع هذه الامور تجري في منزل صغير بشارع النصر حيث يقيم بطل ار كول والاهرام أرسل اليه مجلس الشيوخ القرار الآتي نصه بطي رسالة أولاً — ان الحكومة الاشتراعية انتقلت الى سان كلود

ثانياً — تنتقل المجالس اليها في صباح الغد في ١٩ برومير عند الظهر
ثالثاً — فوض الى الجنرال بونابرت وضع هذا القرار موضع الاجراء ، وهو مقضي عليه بأن يتخذ جميع التدابير اللازمة لصيانة ممثلي الامة . وبناء عليه يجب أن يخضع رأساً لامره قائد الفرقة السابعة عشرة العسكرية ، وخفراء الحكومة الاشتراعية ، والحرس الوطني ، والجنود المربطة في باريس وضواحيها والانحاء الممتدة اليها سلطة الفرقة السابعة عشرة العسكرية الانفة الذكر .

رابعاً — ان الجنرال بونابرت مدعو الى المجلس ليستلم هذا القرار ويقسم اليمين ويفاوض المندوبين المفوضين في المجلسين . »

وكان بونابرت ينتظر مثل هذا القرار الجاري الاتفاق على وضعه بينه وبين أنصاره في المجلس . وبعد تلاوته على مسمع من الجنود قال لهم :
« أيها الجنود ،

« ان القرار الصادر فوق العادة من مجلس الشيوخ منطبق على المادتين ١٠٢ و ١٠٣ من الدستور ، وهو يخولني الزعامة في المدينة والجيش . قبلت ذلك رغبة في تيسير التدابير التي ينوي اتخاذها والتي تلائم كل الملاءمة مصلحة الشعب »
وقد جنح عن الطريقة المثلى القائمون بإدارة حكومة الجمهورية في السنتين الاخيرتين ، وقد أملتم أن يضع رجوعي حداً للمساوىء العديدة الطارئة فبالغم في الاحتفاء بي مما يدل على توثق عرى الاتحاد القاسي عليّ بأجراء أعمال لا ألقى منتدحاً عن اجرائها . وأنتم اضطلعوا بما يسند اليكم فتقوموا بنصر قائدكم بما شاهدته فيكم دائماً من الهمة والثبات والثقة ،

« ان الجمهورية الفرنسية تستعين بالحرية والنصر والسلام لاستعادة المنزلة التي كانت لها في أوربا بعد ما أفقدتها إياها البلاهة والخيانة . »
ولما نشر قرار الشيوخ دقت الطبول في جميع أنحاء باريس مؤذنة بحشد العساكر ، فأذاع بونابرت الذمرة الآتية :
« أيها الوطنيون ،

« ان مجلس الشيوخ المعتبر مستودعاً لحكمة الامة أصدر القرار المبينة صورته بطيه ، وذلك بناء على السلطة المستمدة من المادتين ١٠٢ و ١٠٣ من الدستور .

« وأراني مضطراً الى اتخاذ جميع التدابير لصيانة كرامة ممثلي الامة ، فالانتقال من حال الى آخر ضروري ومعجل ، وفي وسع الحكومة الاشتراعية أن تدفع عن هؤلاء الممثلين الخطر الوبيل الذي يقودنا اليه تفكك اجزاء جميع الاقسام الادارية .

« وهو في الحال الجهورية الحاضرة محتاج الى الاتحاد وثقة الوطنيين به ، فالتفوا حوله مناصرين ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة الممكن التوصل بها لتوطيد الجمهورية على قواعد الحرية المدنية والسعادة الداخلية والنصر والسلام . »
وبينا بونابرت يتكلم بالفعل وبصورة شرعية على القيادة العليا في

للمعاصرة لم يكن الديركتوار يجري شيئاً أو انه في الحقيقة لم يكن يستطيع اجراء شيء لاحباط المساعي التي كانوا يدبرونها حوله ، والمحافظة على سلطته والدستور في وقت واحد . وأقام غوهيه في منزله بالكسـمبور على جبل انتظار زعيم المتآمرين الذي جاء من تلقاء نفسه لتناول الطعام عنده . ولم يكن يتجرأ أن يتهم ضيفه الكبير بأنه أراد بهذه الزيارة أن يحصر رئيس الجمهورية في ردهة الطعام فيبقيه جاهلاً للتدابير الجارية لمناوأة حكومة الديركتوار .

وكان مولان يكسر الارعاض على بونابرت منكرآ تلك الاعمال وهو لا يجسر على المجاهرة بها ولا على معارضة تيارها . وعلم باراس أن الانقلاب الذي أخبروه عنه ووعدوه بأن يجعلوه يشاطروهم احراز فوائده سيتم بدونه ، وأنهم قادرون على الاستغناء عنه . فلم يكن من سبيل الا الاذعان الى ما قدر له من بقاءه صغراً الى اليسار . وصمم سياس وروجه دو كوس على الاستقالة من منصبهما ، وانتظما في سلك المتآمرين فلم يبق لبونابرت وجه لأن يلقى معارضين له الا في المجلس .

فتوجه في الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التاسع عشر من شهر برومير الى المجلس بعد ما أقام في جميع المواقع المهمة جنوداً تحت لواء القادة المخاضين واستصحب برتيه وليففر ومورات ولان الخ . وأبقى مورو بمثابة سجان لغوهيه ومولان عضوي الديركتوار الشديدي التصلب في رأيهما ، وأذيع بين القوم انهما استقالا من منصبهما ، على أن مثل هذه القرية تغتفر في مثل هذا اليوم . وأما سياس وروجه دو كوس فانهما استقالا بالفعل فلم يجد الاول منهما منفذاً يخرج منه عند نزول النوازل والمأم الملمات . فدبر طريقة اضطرته الى مغادرة منزله ، وأوقف تاليران باراس على الغاية التي تشف عنها زيارة بوريان له ، فاستقال باراس وانطلق لساعته الى غروبوى تاركاً رسالة لزعيم مجلس الشيوخ يقول له فيها بعد ايراد تجرده وحبـه الشديد للوطن والحرية : « انه يسر بأن يعمود وطنيا بسيطاً ، ويعتبط بأن يلقى عن منكبيه أعباء الجمهورية خالية من كل وصمة وعزيزة الجانب كما تسلمها من دون أن يؤثر فيها ماثار عليها من عواصف الفتن والأحزاب »

ان المتآمرين وان توهموا ذواتهم متسلطين على مجلس الشيوخ ابدوا مقاومة

لبونابرت لم يكن يحلم بها ، وصار وجوده بين ظهرانيهم موضوعا للقلق والقال ولما كان بونابرت متعوداً أن يخاطب جموعاً تطيعه طاعة عمياء ولا تنكرعاه أدنى كلمة من كلامه ساءه جداً موقف بعض الجمهوريين المتطرفين المتذرعين بلقب ممثلي الشعب ، ووقوفهم سداً في وجهه ، وكان ذلك الامر يحول دون بلوغ أمنيته في ذلك اليوم العظيم . وحين تسنم منبر الخطابة لم يستطع التفوه الا بمبارات متقطعة وكلمات قليلة المعنى جعلت الحضور يتذمرون منه ، فكان تارة يحمل على الحزب الديموقراطي حملة شعواء ، وتارة يصوغ عقود الثناء والاطراء عليه مريداً بذلك تبرير نفسه وتبرئة ساحته بذكرى أعماله الماضية . وختم مقاله بتذكيره اياهم بوجوب رعاية حرمة الحرية والمساواة ، فاغتنم لنفله الفرصة وذكره بالدستور ، فحينئذ صاح بونابرت بملء فيه قائلاً . « أتقول الدستور ، وأنتم قد دنستموه في ١٨ فركتيدور و ٢٢ فلوريال و ٣٠ براريا ، أنقول الدستور ، وجميع الاحزاب تستنجد به ، وجميع الاحزاب قد خرقت حرمة . . . واليوم تجري المؤامرة باسمه ، واذا قضت علي الحال بكشف الخبائث و اعلان أسماء الاشخاص بادرت الى هذا الامر وقلت ان باراس ومولان عضوي الديركتوار هما اللذان اقترحا علي أن رأس حزباً يعمل على قلب الحكومة المؤلفة من أشخاص معروفين بحرية الفكر »

فأيقظت كلماته الاخيرة انعواطف الكامنة في صدور الحضور حتى أن بعضهم قام يطلب اجراء التحقيق بواسطة لجنة سرية ، الا ان الاكثرية لم تذهب مذهبه . ودعي بونابرت الى الايضاح والتصريح لدى الامة فاضطرب اضطراباً لم يشعر بمثله قبل ذلك الحين ، ولم يجد له مخلصاً من ذلك المأزق الا بالنسحابه في وسط الضوضاء صاعاً نحو أعلى صوته « من يحبني فليتبعمني »

وكانت العاصفة تعج بعنف في مجلس الخمس مئة لأن الاكثرية فيه كانت شديدة الاعتصام بأهداب الاخلاص للجمهورية والدستور . وأيدت تلاوة رسالة باراس ما كانت حوادث اليوم السابق تنذر بوقوعه وأطلقت الاسنة بلواذع الوعيد وقوارص التهديد لكل من تحدته النفس بتغيير شكل الحالة الحاضرة . واصاح ممثلو الامة لتحريض دلبزل لجددوا الاقسام على المحافظة على الجمهورية ومبادئها واذا بونابرت قد اطلع على الجاس تحيط به ثلة من الجند . ولما وقعت انظار

الجماعة على بونايرت ورفاقه امتلأوا غيظاً وصاحوا جميعهم « فليسقط الحاكم المستبد ، فليسقط كرمول ، وليتبرأ القانون من بونايرت » ونهض بعض النواب عن مقاعدهم ومشوا لملاقاة الجنرال بونايرت ليعنفوه على تدنيسه هيكل الشرائع المقدس ، فأنهره بينفونه قائلاً . « ماذا تفعل أيها الوقح ؟ اغرب عن هذا المكان » ولما شاهد بونايرت أن الاستياء من عمله كان عاماً لم يرقه ما أبصره من المقاومة غير المنتظرة التي لقيها في مجلس الشيوخ ، وعلم أن لا قبل له بمناوأة البرلمان ، فعاد ادراجه الى الجيش مخفوراً بالجنود الذين واكبوه . فأفرخ روعه عند وصوله اليهم ، وثابت اليه الثقة بنفسه وهادئته جرأته لما وافاه شقيقه لوسيان بعد ما اضطر الى الاستقالة من زعامة المجلس حين أبي أن يتسقط زملاءه عن رأيهم في أمر ابعاد أخيه ، ولم يكتف لوسيان بأن يأتيه بمعاضدة السلطة التي هجرها مختاراً في وسط المجلس وظل مستنداً اليها في الخارج ، بل ظاهره بفصاحته وشجاعته وهمته

واستطاع لوسيان صهوة الجواد وجعل يتنقل بين صفوف العساكر ويصيح بهم كأنه لا يزال ناظراً نصب عينيهِ مدى السفاحين مشهورة للفتك به .
« أيها الوطنيون ، أيها الجنود ،

« ان رئيس مجلس الخمس مئة يعلن لكم أن الاكثرية في هذا المجلس راعها الآن تهديد فريق من نواب الشعب استلوا المدي للايقاع بهم وأحاطوا بالمنبر قاذفين بالموت على زملائهم ، فأعلن لكم أن هؤلاء السفاحين الجريئين المأجورين ولا مراء لبريطانيا ثاروا على مجلس الشيوخ وتجرأوا على القول بأن القانون يتبرأ من الجنرال الموكل اليه اجراء قرار المجلس الموما اليه . فهم يتوهمون أنا لا زال في عصر الرعب الذي كانت السيادة فيه لهم ، حين كانت كلمة « يتبرأ منه القانون » تكفي لاطاحة أعز الرؤوس لدى الوطن عن مناكب أصحابها

« فأعلن لكم ان هذا الفريق القليل العدد من أولئك الناقين يتبرأ القانون منهم من جراء ما أتوه من الاعتداء على حرية هذا المجلس . فباسم الشعب الذي أصبح منذ عدة سنوات ألعوبة بيد أبناء الرعب الاشقياء هؤلاء أفوض الى الجنود أمر انقاذ أكثرية نوابهم لعل هذه الاكثرية تنجو من المدي بقوة الحراب وتتمكن من التفاوض بشأن الحظ المقدّر للجمهورية

« أيها القائد ، أيها الجنود ، أيها الوطنيون ، ينبغي لكم ألا تعتبروا مشترعين لفرنسا إلا الذين التفوا حولي . وأما المتخلفون عنا فليطردوا بالقوة لان هؤلاء اللصوص لا يعتبرون ممثلي الشعب بل ممثلي المدينة . فليظل هذا اللقب مطلقاً عليهم وليصبحهم أني ساروا . ووقت ما يجروون على البروز للشعب فليشر الجميع اليهم بالبنان بأنهم استوجبوا لقب ممثلي المدينة . . . فلتحي الجمهورية ! » وظل الجنود مترددين بعد سماعهم هذا الكلام ، حينئذ أزال لوسيان ذلك التردد من بينهم بهذه العبارة المشهورة « أقسم على أني أطمعن صدر أخي اذا ما أنست منه ميلا الى مس كرامة حرية الفرنسيين »

وكان بعد ذلك ان هذا القسم الملفوظ بلهجة عنيفة تغلب على تردد الجنود ، ومع ذلك لم يكن بونابرت خالي البال حين أمر مورات بأن يزحف برجاله لتزيق شمل ممثلي الامة . فانه لما أخفق سعيه من نيل أمانيه بمجرد حضوره وخطبه الرنانة انتقاد الى أخيه وزعماء المتآمرين وصمم على حل المجلس بالقوة . فلم يك غير قليل من الحين حتى خلت ردهة المجلس من النواب

وأراد مدبرو حركة ١٨ برومير بعد الفوز الذي ظفروا به ان يبرهنوا للملا طراً عن شرعية عملهم باستعمالهم الشكل الدستوري الذي هدموا أركانه فبحثوا في كل جهة لادراك هذه الغاية عن أعضاء المجلس الذي حلوه بتلك الطريقة العنيفة ليؤلفوا منهم شكل مجلس وطني . فتمكن لوسيان ان يجمع في ناحية سان كلود ثلاثين نائباً آلوا على نقوسهم القيام باعباء السلطة السامية التي كان بونابرت صاحبها الحقيقي ، وقرروا ماعدا عزل واحد وستين عضواً من زملائهم حل الديركتوار وتأليف مفوض قنصلي من ثلاثة أعضاء وهم سياس وروجه دو كوس وبونابرت . وقد تم هذا الانقلاب الخطير في الساعة التاسعة مساء وكان قد مضى على بونابرت احدى عشرة ساعة لم يذق في خلالها طعاما . ولما عاد الى منزله لم يهتم بحاجته الطبيعية مع انه كان قد مضى هزيع كبير من الليل بل صرف هامة النفس الى اتمام مقتضيات ذلك اليوم العظيم بتدبيره الخطاب الذي كان يراه ملائماً لاستمالة القوم اليه . وهذه خلاصة الخطاب .

« لما عدت الى باريس وجدت الشقاق ضارباً أظنابه في جميع دوائر الحكومة

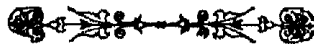
وشاهدت الجميع متفقين على ان الدستور أوشك ان تعبت به يد البلى ، وانه لا يستطيع ان يصون حرمة الحرية

« وجاءني جميع الاحزاب يبوحون لي بمقاصدهم ، وينمون لي بأسرارهم ويطلبون مناصرتي ، فأبيت التقييد بحزب من الاحزاب

« ودعاني مجلس الشيوخ فلبيت دعوته ، ودبر أولئك الرجال الذين تعتبرهم الامة نصراء الحرية والمساواة والتملك خطة اصلاحية عامة .

« وكانت الخطة تقضي تدقيماً مقروناً بالسكينة والحرية خالياً من كل تأثير وارهاب . وبناء على ذلك صمم مجلس الشيوخ نقل المجلس الاشتراعي الى سان كلود ، وفوض الي اعداد القوة اللازمة لاستقلاله فرأيت ان من المقضي عليّ قبول الزعامة حياً بخدمة أبناء وطني والجنود الذين قضوا في جيوشنا والفخر الوطني الذي أصابوه باهراق دمهم »

ثم أفاض بونايرت في الكلام عما جرى في سان كلود وأيد بشهادته القوية اختلاق لوسيان عن شهر المدى والخناجر ، وختم مقاله بهذه الكلمات « أيها الفرنسيون ، لا تخفى عليكم ولا مراة غيرة جنسدي الحرية والوطني المخلص للجمهورية . فقد عادت الى محورها الافكار المحافظة والواقية والحرية بعد تمزق شمل المشاغبين الذين كانوا يضيقون خناق المجالس وينفرون القوم منهم ويجعلونهم يعتبرونهم من أهل الشقاوة »



الفصل العاشر

— انشاء الحكومة القنصلية —

وكان أصحاب مبادئ التعصب ، والجمهوريون الشديديو الاستمساك بغير مذهبهم يعتقدون انه قضي على مصلحة الشعب وأن الديموقراطية هدمت أركان دستور السنة الثالثة ، ومن ثم لم يكونوا يألون جهداً عن إلباس انقلاب برومير ثوب الاعتداء على حقوق الامة . إلا أن عامة القوم والسواد الاعظم من جميع الاحزاب والاكثرية الراجحة من طبقتي الشعب العاليسة والمتوسطة ومجموع طبقة العمال على التقريب ، وجميع الذين يعلقون أهمية على نجاح فرنسا الماسدي وسلامها في الداخل وأمنها في الخارج أكثر مما يعلتون من الالهمية على المسائل الدستورية والقضايا النظرية كانوا ما خلا بعض نفر من الالى لا تلين الحوادث مجتهدهم يلقون لبونا برت عذراً يخلصه من طائلة المسؤولية عن حادثة سان كلود ، ويعتبرون هذه الحادثة ذريعة لا يستغنى عنها لاصلاح ما أفسدته أيدي العيارين والاقدار .

وقال نابوليون حين كان في جزيرة القديسة هيلانة « لقد اسهبوا وسيسهبون في البحث نظرياً عما اذا لم نكن قد خرقتنا حرمة الشرائع وعما اذا لم نكن قد اقترفنا جناحاً ، ولكن هي مسائل نظرية يصلح سبكها في الكتب أو النطق بها من فوق المنابر ، وتقتضي الحال نبذها حين تعرض حاجة ماسة ، على أن الشكوى منها تحكي الشكوى من بحار يقطع صاري مركبه تفادياً من الغرق . ويدل واقع الحال على أن الوطن كان مقدراً له الهلاك بدوننا ونحن أنقذناه . وقد كان من الواجب على الكتبة ومن لهم يد في ذلك الانقلاب المشهور أن يجبسوا أفلامهم ويعقلوا ألسنتهم عن الخوض في مجال الانكار وتبرئة ساحتنا ، ويكتفروا بان يجاوبوا بأنفة المفترين بمثل ما أجاب به ذلك الروماني . « نعلن على رؤوس الاشهاد أننا خلصنا بلادنا فسلم بنا لسدي الشكر للالهة . »

« ولا يخفى أن جميع المشتركين بتلك الحركة السياسية يحق لهم أن يقولوا ان الجميع أجمعت كلمتهم على أن الانقلاب في نظام الحكومة كان ضربة لازب



المرشال برنادوت وقد تبناه ملك اسوج سنة ١٨١٠
وخلف الملك شارل الثالث عشر على عرش اسوج في سنة ١٨١٣ واتخذ اسم
شارل الرابع عشر
ولد في بو ١٧٦٤ وتوفي في ستوكهلم ١٨٤٤

وأن الجميع كانوا يلتمسونه ، وكان كل منهم يبتغي اجراءه من جهته . وقد أجريت مهمتي مستعينا بالمعتدين . وكان من نتيجة عملي انقضاء أجل الفوضى الفجائي وسرعة عودة النظام والاتحاد والقوة والمجد . فهل كان اليعقوبيون أو ذوو الاخلاق الفاسدة أفضل منهم ؟ انه ليجوز لي أن أجاب بالسلب على هذا السؤال ، وانه لطبيعي أن يستأثروا ويرفعوا أصوات التذمر منه . وأما اصدار الحكم العادل على هذا الحادث العظيم فهو من اختصاص المستقبل البعيد والاشخاص الذين لا ناقة لهم ولا جمل فيه . »

على أن هذا المستقبل البعيد اقرب وقام الاشخاص الذين ليس لهم في الحادث ناقة ولا جمل ، فالاجيال الحاضرة وان يكن الروح الديمقراطية مستوليا عليها بعد ما نكب بونايرت ممثليه وهدم صرح مبادئه في سان كلود ، لا تشعر شعورا شخصيا بالتأثير العنيف الذي شعر به الوطنيون المتطرفون على اثر تلك النكبة وهدم صرح المبادئ المذكورة . ولعمري ان الديمقراطيين الحاليين يجب عليهم أن ينبذوا عواطف القلي والحق التي كانت تهب في صدور أجدادهم ويتساءلون بكل سكيننة وترو وتجرد هل كان ذلك الانقلاب الذي شعر بفوائله الثوريون المتطرفون ، وأثار كوامن الحقد والسخط في أفئدة غلاة الثورة والديموقراطية وافر الفائدة جميل العائدة على مجرى الثورة ونجاح الديمقراطية ولما جاء بونايرت والحسام في يده ليجعل فكره الشخصي وارادته الوحيدة يحلان محل الشرائع التي سنها الشعب والحكام الذين انتخبهم لم يكن في وسع الشرائع والحكام الدفاع عن حقوق الشعب من أعدائه في الداخل والخارج لان الفساد والضعف الطارئ على القابضين بأيديهم على زمام السلطة كانا يتصدیان لمجرى الثورة ويحولان دون الانتهاء بها الى غاية النجاح . وكان يخشى أن يؤدي التفريق الى ايقاظ الفوضى واستفحال أمر الاحزاب في البلاد . على أن فتنة البريطانيين والفرنسيين والفنديين لم تكن لني عن منازعة اليعقوبيين الفتوح السياسية العظيمة التي كانت اليعقوبية في ريق أمرها قد تمكنت من مباشرتها وتحقيقتها والمحافظة عليها .

أجل ان الثورة استنزفت جميع موارد سيطرتها على الشعب فنقد شكل من أشكالها . وبعد ما نالت الانتصار بواسطة سيادة الشعب استهدفت للعطب

الويل بتحول آلة النصر عليها بعد ما كانت مسخرة لخدمتها ، ولم تكن تحسن ادارتها مدة طويلة من دون أن يصيبها منها الاذى والمضرة وكان موقفها الجديد يقتضي شكلا جديداً ، أي أنه كان يجب أن تصلح سياسة الفرد ما أفسدته سياسة الجباة . وقد كان وايم الحق مظهر من أجل مظاهر قوة الثورة بتيسر تلك السهولة للثور بحسب مقتضيات ذلك العهد على أشخاص ذوي هم عالية وأفكار سامية يستعان بهم على استئناف أعمال رجال الحرية بشكل يتوهمه الناس ضرباً من ضروب الارتجاع ويظنونهم معارضة للمبادئ الجمهورية على أن هذا العمل لم يكن في واقع الحال سوى تنمة للمشروع الجمهوري الخطير وخدمة للمصلحة العامة . وبعد ما ارتعدت أوصال الملكية والارستوقراطية في أوروبا أمام ذلك الشعب العظيم حين كان يتكلم بالسنة الملايين ويحرك ملايين الاذرع القوية تعودتا ألا تخافاه وبدأنا تأخذان بعض النفوذ عليه منذ الحين الذي عبثت به فيه أيدي الشقاء من جراء كثرة الزعماء وحلت عرى تلك الوحدة الموقرة التي أنشأها في أيام الخطر وهي أيام فخاره . وكانت الحال تقضي بأن يضطر ذلك الشعب العظيم أعداءه اللدء الى الشعور بالخوف منه والاحترام له بعد ما كانوا قد عالجوا التحرير من زبخته على أثر رفعه في عواصمهم علم الاصلاح الذي دافع عنه من اعتدائهم عليه . ولم يكن محتاجاً الى ادراك تلك الغاية الجميلة إلا لتغيير خطة العمل والظهور بمظهر عظيم . ولا يخفى ان وفرة عدد الزعماء عرضته للاختلافات والمشاحنات الداخلية حتى بلغ الوهن من السواد الاعظم منهم ونضبت موارد همهم ونفدت أموالهم وتولاهم التبرم والسأم وفقدت القوة والوحدة بما كان ينشأ بينهم من التضامن والتناظر فلم يبق له مندوحة عن اسناد شؤونه الى فرد ممتاز بالدهاء والاقدام يستطيع ان يعيد اليه تينك القوة والوحدة . وبناء على ماتقدم بيانه يمكن القول ان بونا برت لم يخلع الشعب عن عرش سلطته في سان كلود بل غير شكل الحكومة وجعلها واحدة بعد ما كانت متعددة . ولم تخف هذه الغاية على الشعب فاستقبل شكل الحكومة الجديدة بكل ارتياح . وكما كان المجلس الوطني الدستوري ولجنة الامن العام يعبران عن ارادة الامة في أثناء تداعي صرحها ومقاومتها كان الحاكم الجديد الذي اتخذ على التعاقب لقب قنصل وأمبراطور يعبر عنها تعبيراً فصيحاً مجيداً في أبان ترميم ذلك الصرح وتوسيع

دائرته بقوة السلاح . وبعد الهفوات العديدة التي ارتكبها ذلك الرجل العظيم ، وانحرافه عن جادة الحرية مرات كثيرة وبعد النكبات الوافرة التي دهمته والصغار التي تبحر كثر وسها ظل الشعب ثابتاً على مبادئه ، وهذه المبادئ دون سواها تؤيد العصمة ثباتها . وعلى متن هذا المحيط السياسي الذي يتلح مداه وجزره كل يوم شهرة دهاة الرجال ونوابغهم ظلت شهرة نابوليون وحده طافية على صفحه غير مكرثة للعواصف والانواء التي زادت هذه الشهرة ارتفاعاً كأنها تردد شهادة العواطف الشعبية التي لا يخفي عليها شيء من الأشياء .

فليست عجائب سيفه هي التي جلبت إليه محبة الشعب بعدما بهرت نواظره ، وقد دلت شهرة اسمه المحفوظة في الأكواخ وفي القصور على السواء على أنه لم يقف سداً في وجه المبادئ الديمقراطية وتبسطها بل كان يستوجب أن يطلق عليه اسم أكبر ديموقراطي في أوروبا . ويصيب الشعب في اعتباره إياه ثورياً زعزع أركان العروش القديمة ونسخ من الأذهان العبودية لأصحاب النجار القديم والثروة الواسعة بتحريره الأهلية الشخصية من قيودها حتى أصبحت الميزة الوحيدة الضامنة لنيل المناصب ، وصار منتخبوها يجلسون على العروش ويدوسون بأقدامهم تشامخ وعظمة أبناء الملكية القديمة العهد ويفتحون مجالاً واسعاً للمساواة من أدنى درجة في سلم الهيئة الاجتماعية إلى أعلاها .

فلا ينبغي والحالة هذه للمهتمين كل الاهتمام بحظ بلادهم ومستقبل الإنسانية أن يعتصموا بالخصومات الشخصية التي فشت بين جمهوري السنة الثامنة وناقشوا بونا برت الحساب على دستور السنة الثالثة ، على افتراض أن اختلاسه للسلطة ، كما يريدون أن يزعموا ، لم يكن سوى صورة يتقوى بموجبها الروح الثوري في فرنسا ويمتد إلى جميع جهات أوروبا . وكان ميرابو ذاته مختلساً لأنه لكي يصير في مكانة سامية ذلك المجلس بعدما شعر من نفسه بمقدرة على التسلط عليه بقوة الكلام دفع جمهور الشعب على احتقار الشروط المقترحة ونسخ الامتيازات القديمة وهدم الشرائع الجاري العمل بموجبها ليتيسر له حصر السلطة الدستورية بيده . ولم ينهض إلا المتطرفون من أنصار الملكية للتجاسر على القول بأن القسم الذي حلفه مندوبو الأمة في ٢٠ يونيو سنة ١٧٨٩ كان عملاً يدل على الكفر والجريمة لمسه أنظمة الملكية الأساسية ولحدوثه بطريقة إجبارية .

ومعلوم انه من خصائص الفقهاء وأشباع المذاهب والمنخدعين بشعورهم باللاهانة والوساوس ان يناجوا عقولهم منازعينها شرعية مهمتهم حين تتمخض هذه العقول بأمور خطيرة

واذا لم يكن بونابرت قد تمس بالبركان الديموقراطي كما أنهم بعضهم مرة بعد مرة وهناك بنجاته من شره ، واذا كان قد خبأ في بدء الامر فوهته تحت الكرسي القنصلي وبعد ذلك تحت العرش الامبراطوري فلا بد من ان يبرره الروح الجمهوري لتضحيته بصور الديموقراطية على مذبح مصالحها الجوهرية وخلصها وانتشارها. وهب لم يكن بونابرت فقد كان دمار الجمهورية مقررأ ، ولكن كان يؤمل ارجاؤه بضم سنوات ، وكان ينتظر بقاء الجمهورية خاضعة لشرائع لاتفى بالغاية المقصودة وسلطة مبتدلة ، مما يزيد في طين تلك الحالة بله وفي طنبورها نغمة ويحقق التهم العديدة الموجهة اليها . وهذا كان من شأنه ان يزيد في تفاقم الملاله واستفحال أمر النفور فتحدث حركة ارتجاعية عنيفة لمعارضة الثورة من دون ان ينفسح المجال في وجه دعاتها لتدبير مجراها ارادة الوصول الى مصالح جديدة ، فتعود السلالة البربونية في صدر القرن التاسع عشر بدلا من عودتها بعد خمس عشرة سنة . أجل ان عودة هذه السلالة لم تتم على شكل ثابت لانها لم تقع على اثر اختلافات أهلية واضطرابات داخلية ورغبة وطنية تقيها من تلك النقيصة الناشئة عن مخالفتها للاجنبي والمسببة هلاكها منذ نشأتها . وكانت تستطيع في ذلك العهد أن تلقى أمامها شطراً عظيماً من الاجيال التي نشأت في عهد الحكم السابق ، وكان استيائها من مساوىء الثورة داعياً الى ابقاء أفكارها مiale الى العهد القديم ومن جهة أخرى كان أبناء الثورة الذين صاروا رجالا سنة ١٨١٥ وحمل انتظامهم في سلك الشؤون العامة سلالة البربون وأنصارها على اليأس ينظرون بأعينهم معا كسة الحرية في بدء أمرها . وقد وصلوا الى عهد كرهوا فيه الجمهورية ولا سيما لطول عهد نزعها . وبناء على ماتقدم بيانه يمكن القول ان بونابرت هدم الطريقة الجمهورية لاجل خدمة مبادئها وانه يمكن ان يقال ان ذلك كان رمية من غير رام . والعامل يدري انه لم يقض على الجمهورية ولا على

الثورة ولكنه حال دون اثاره استياء القوم منهما وحنقهم عليهما ، وأصلح ما كان قد فسد من أمرهما

ولم يكن احلاف الجمهورية في ذلك العصر يستطيعون ان يحكموا حكماً صائباً على ذلك الانقلاب الذي غشيههم ، فأقلق استيائهم الحكومة الجديدة حتى انها فكرت في ابعاد بعض زعمائهم ، الا ان الوطنيين الملهوطين المكانة الصادر عليهم قرار النفي أبدلت المراقبة بذلك الحكم عليهم .

ويكفي المرء ان يعلم حقيقة الاضطراب الذي كان سائداً في فرنسا في عهد حكومة الديركتوار وقت ما انزع بونايرت منها السلطة حين يعلم انه لما أراد القنصل ان يسير رسولا الى شجبيونه قائد جيش ايطاليا لم يجد في خزانة الحكومة ما يقوم بنفقة الرسول . ولما أراد الوقوف على حقيقة أحوال الجيوش اضطر الى ارسال مندوبين الى الجهات لعدم وجود جداول في دوائر وزارة الحرب . ولما قال بونايرت لموظفي الوزارة « كان يجب ان يكون لديكم بيان للمرتبات تتمكن من الاستعانة به لادراك غايتنا » أجابوه « نحن لا ندفع هذه المرتبات » ومن الجلسة الاولى التي عقدها المفوض القنصلي كان سياس يأمل ان ينال الاكرام من زميله الشاب مراعاة لسنه وحياته السياسية الماضية وكانت قد دبت له في صدره عقارب الحسد ، فألقى هذا السؤال « من منا يرأس الجلسة ؟ التي هذا السؤال وهو ينتظر من زميليه التنازل له عن الرئاسة ، الا ان روجه دو كوس أجابه بشدة قائلاً « أولا ترى ان الجنرال يرأسها ؟ »

ولم يكن سياس يعتقد ان شاباً خارجاً من صفوف الجند قضى زمانه في الدرس والاعمال الحربية يمكنه ان ينازع أمر تنظيم الحكومة الجديدة مشرعاً شابت ناصيته في العمل مما جعل الناس يقولون عنه كما كانوا يقولون عن توما باين ان في جيبه دستوراً في كل حين . فأعرب زميله بكل جرأة عن نتيجة تأملاته اليومية ، ولما اقترح تنصيب منتخب سام يجعل اقامته في فرسأيل ويخصص له ستة ملايين فرنك مرتباً سنوياً ، ويفوض اليه أمر انتخاب القنصلين بموافقة مجلس الشيوخ الذي يستطيع الغاء هذا الانتخاب والغاء منصب المنتخب السامي نفسه قهقه بونايرت ضاحكاً من اقتراح زميله

وكان سياس مع عجزته جباناً لا يثبت في موقفه لدى تصلب خصمه في الرأي فأراد ان يتمحل لنفسه عذراً عما فاه به ، فأجابه بونابرت « انك ترى سوء استعمال السلطة مبدأً والشبح شخصاً ، فكيف جال في وهمك يا مسيو سياس ان امرأاً فيه حتره من الشرف ونزر من العقل يرضى بأن يلعب دور خنزير يتمرغ في حمأة بعض الملايين ؟ »

ومن ذلك الحين كشف النقاب عن كل شيء بين الفيلسوف والجندي ففهم كل منهما انه لا يمكنه السير مع الآخر مدة طويلة . وكان قد أذيع دستور السنة الثامنة ، وجاء في مندرجاته انشاء شكل حكومة شعبية تنقسم الى عدة أقسام كجلس الشيوخ ومجلس النواب والمجلس الاشتراعي . وأما الحكومة الحقيقية فقد كانت بيد القنصلية وبعبارة أخرى بيد القنصل الاول

ولما استتب لبونابرت الامر وقبض بيده على السلطة العليا تلمص من سياس ، وهذا رضي بالانسحاب بعد ما خصصت له الامة مرتباً دالاً على اعترافها بخدمته ثم تلمص أيضاً من روجه دو كوس ، فهذا آثر الجلوس على كرسي مجلس الشيوخ على مشاطرة بونابرت حمل اعباء القنصلية . وحينئذ استبدل بونابرت بزميليه كمباساريس ولبرون

وكان أول عمل باشرته حكومة القنصلية اصلاح المختل فألغت قانون الرهائن والقروض الاجبارية ، وأحلت التساهل محل الاضطهاد ولما أفضت الحكومة الى أنصار الفلسفة أبيع للمؤمنين استدعاء خدمة دينهم وتريم مذابحهم ، وأذن بالعودة الى الوطن للمهاجرين والمنفيين السياسيين على اختلاف مذاهبهم وأزمنة ابعادهم . وكان من حملتهم كارنو ، فعاد من المنفى الى الندوة العامة فالوزارة

وكان بونابرت في عهد حكومته الاولى وفي أثناء اقامته في الكسمبور محافظاً على البساطة في ذوقه وأطواره وعاداته من دون ان يكون قد فقد شيئاً منها في خلال مكثه الطويل بين الجنود . وكان معتدلاً في طعامه وشرابه إلا انه كان يشعر بأنه سيصير فاحش الاكل ، وان هزاله سيزول ويخلقه السمن ، على ان الاستحمام بالماء الحار الذي كان يزاوله كثيراً كان من أقوى العوامل لانشاء التغير فيه . وكان ينام سبع ساعات في اليوم ، ويوصيهم بالألا يوقظوه لغير ما سبب موجب ويقول « الخبر السار لا يقتضي الاحاح ، أما خبر الشؤم فلا

ينبغي تأخيره دقيقة واحدة . »

أجل ان بونايرت كان يعيش عيشة بسيطة في قصره القنصلي ، إلا انه كان يستقبل فيه كل يوم مشاهير الرجال ودهاتهم ، وكانت جوزفين تستقبلهم أيضاً بما اشتهر عنها من اللطف والرفقة وحسن الذوق وهناك عادوا الى استعمال ألفاظ المجاملة التي كان غلاة الجمهوريين قد نبذوها من الحديث ، وصاروا يستعملون كلمة « مسيو » بدلا من كلمة « وطني » .

ولما كان القنصل الاول يقضي معظم وقته في الافتكار والتأمل لم يكن يتسنى له كثيراً أن يشاطر زائريه أحاديثهم المبنية على المعاني السامية والمودعات العالية ، إلا أنه كان في بعض الاحيان يخلتس من وقته ساعات يلتقي من نفسه فيها ميلا الى المحادثة فيبرهن بذلك عن أن الانسان يمكنه بمجرد ارادته أن يكون لطيف المعاشرة طلق الحياء ، ولكنك لم يكن يريد هذا الامر مرات عديدة . وقد كانت السيدات يتذمرن من عدم ارادته . وكانت ظواهر بونايرت تدل على الفطاشة والميل الى سرعة الغضب إلا أنه كان يخفي وراء هذه الظواهر نفساً رقيقة طبعته على عواطف المودة ولطف الشعور . وانه بمقدار ما كان متجههم الوجه عبوس الجبين فيج الطبع خشن المراس صعب المقادة شديد التصلب في اثناء مزاولته للشؤون السياسية وفي خلال حياته العامة كان لين العطف خافض الجناح واسع الخلق حلو المعاشرة في معيشته البيتية وبين اودائه

ويمكننا أن نثبت ما ذكرناه بهذا الصدد بإيرادنا بعض عبارات من كتاب أرسله في السنة الثالثة الى أخيه يوسف وهو يقول له فيه : « مهما كان المركز الذي يسوقك اليه الحظ فأنت تدري يا صاح أنه ليس لك صديق أفضل مني يعزك ويتمنى لك الهناء . . . الحياة كطيف كرى يزول بسرعة اذا ارتحلت وخيل اليك أن هذا الارتحال قصير الاجل فارسل الي صورتك . لقد عشنا معاً سنوات عديدة بالوفاء والوئام فاحمد قلبانا اتحاداً تاماً . وأنت تعلم أكثر من غيرك مقدار تعلق قلبي بك . وأشعر وأنا أخط هذه السطور بتأثير لم أشعر بمثله في ماعبر من أيامي ، وتناجيني النفس بأنه سيطول علينا الوقت قبل انتظام قملنا ، فلم تبق لي طاقة على كتابة شيء آخر . . . »

وان عقيلة ليتيسيا التي كانت تعرف فجائها حق المعرفة كانت تقول عنه وهو

في عنفوان عظمته « مهما فعله الامبراطور من الامور فهو كريم الاخلاق »
وشهد له المسيودي بوريان عينه هذه الشهادة مع اعتقاده بأن نابوليون لم
يكن يعترف بالصدقة ، وانه جاهر بأنه لم يكن يحب احداً . ويفسر هذا التناقض
باختلاف المواقف . فليس لرجل الحكومة عواطف مودة شخصية ، ومن هذه
الجهة وبلاستناد الى هذا المبدأ ومراعاة للمصالح العامة الموكولة اليه كان نابوليون
يقول أنه لا يجب احداً . ولكنه مع صرف النظر عن السياسة كان يجعل الطبيعة
تستوفي جميع حقوقها . وقد شوهد غير مرة يلطف بهجة الانتصار وحاسته في
ساحة المعركة باظهاره عواطف كانت الحرب تضطره الى كتمانها . فقد حدث في
أثناء حروب ايطاليا أنه مر بعد معركة هائلة بأركان جيشه بين القتلى والجرحى ،
وكان الضباط قد سكروا بسلافة النصر وجعلوا يجاهرون بحماستهم من دون أن
يقفوا أمام تلك المشاهد التي تتفتت منها الاكباد . فلصح القائد الظافر كلباً ينبج
الى جانب جثة جندي نمسوي ، فقال لرفاقه . « انظروا أيها السادة الى هذا
الكلب فهو يعلمنا مقتضيات الانسانية »

ولكن مهما كانت في قلب بوناپرت منزلة العواطف المبنية عليها الفضائل
الشخصية والهناء المنزلي ومهما كانت قيمة هذا الهناء كان بوناپرت يضحى به
في سبيل مجد وسعادة الشعب الذي كان هو ممثله الوحيد ، فانه مع القاء الدستور
الجديد بمقاليد السلطة الاجرائية الى ثلاثة قناصل كان الجميع يعلمون أن الحاكم
كان واحداً فقط . ويقول دي بوريان ان كيباساريس ولبرون كانا شاهدين أكثر
منهما زميلين لبوناپرت . وقد اعيدت الملكية على تلك الصورة تحت اسم
جمهورية . فكان القنصل الاول يفعل كل شيء ، وكان مقضيا عليه أن يفعل
كل شيء بحسب ما كان منتظرا ، من مقدرته وعلو همته ومعاوضة الاحوال له .
وكان تاليران قد عرف هذا الامر وخطب بوناپرت من اليوم الاول الذي باشر
فيه الاعمال معه بصفة وزير خارجية قائلاً له . « يا حضرة الوطني القنصل ، لقد
قلدتني وزارة الشؤون الخارجية ، فأراني مقضيا علي بأن أصرح لك من الآن
بأنني لا أريد العمل الاممك . ولا تدفعني الانفة الفارغة الى التفتوه بهذا الكلام
وانما أخطبك به حبا بمصلحة فرنسا . على أن أفضل الشروط لاحكام القيام بادارة
حكومتها وايجاد الوحدة في العمل انما هي أن تكون أنت القنصل الاول وأن



المرشال اوجرو دوق كستليونه
ولد في باريس سنة ١٧٥٧ وتوفي في سنة ١٨١٦

تكون قابضا على أزمة السياسة رأساً أي على وزارة الداخلية وإدارة الشحنة في الداخل وعلى وزارة الخارجية ، وعلى الديرين الكبيرتين للأجراء وهما الحربية والبحرية فيليب والحاالة هذه بإلغامين بأعباء هذه الوزارات الخمس أن يعملوا معك دون سواك . أجل إن إدارة العدلية وحسن انتظام الشؤون المالية يتعلقان بالسياسة بأسباب عديدة . إلا أن هذه الأسباب ليست شديدة التوثق . وإذا فسحت لي في القول بإحضرة الجنرال ، قلت لك أنه يلائم أن تطلق يد القنصل الثاني في العدلية فهو من المقهاء المعظم وأن تطلق يد القنصل الثالث في الشؤون المالية فهو واسع الخبرة في القوانين المالية . وهذا الأمر يشغلها ويلهيهما . وأنت بإحضرة الجنرال يبقى لديك باقي الخطط الحيوية في الحكومة ، فحينئذ يمكنك الوصول إلى الغاية النبيلة التي تتوخاها أي تجديد شباب فرنسا »

ولما خرج تاليران من حضرة بوناپرت قال لكتابه . « إن تاليران شديد الرأي داهية سليم الذوق . . . وقد أدرك مرمى أفكاره واعلم أن ما يشير به علي تميل نفسي إلى إجرائه ، وهو مصيب في اقتراحه . فالإنسان يسرع في الجري حين يكون وحده . إن لبرون رجل شريف النفس بيد أنه خال من السياسة فهو يؤلف الكتب ، وكهاساريس يروي كثيراً من التقاليد الثورية ، فيجب أن تكون حكومتنا حكومة جديدة »

وكانت الحال تقضي بأن يفهم الجميع ضرورة إنشاء حكومة جديدة فمن الجهة الواحدة كان أشياخ الثورة يهملون للحكومة القنصلية وإن يكن صرحها قد شيد على أنقاض الدستور الجمهوري للسنة الثالثة ، ومن الجهة الأخرى كان الأهلون المعتصمون بأهداب الحكومة الجديدة غير مباليين بطريقة التساهل والنروي التي جرت عليها من نشأتها

وكان القنصل الأول يخاف من حدوث حرب أهلية في غرب البلاد فوجه إلى أهليها نشرة حذرهم فيها من مكائد البريطانيين ودسائسهم . وعضد هذا الإنذار بجيش قوامه ستون ألف مقاتل بلغ به أمنيته وتلافى وقوع فتنة عظيمة وأما زعماء الحزب الملكي فأنهم ظلوا متشبثين بأرائهم واتكلوا على الأجانب ولبثوا يترصدون فرصة ملائمة لانهوض على الحكومة الجديدة ، فاستاء بوناپرت من عملهم ولم يشأ اغضاء الطرف عنه وقابلهم بما هو مشهور عنه من شدة

الصريعة ، فأدخل عليهم الذعر بنشرة أنقذها اليهم وضمنها كثيراً من الوعيد والتهويل .

وأدرك الحزب الملكي أن زمن الاهلية انقضى ، وأنه لم يبق له من سبيل لمجاذبة ممثل الثورة الجديدة ومواقفته ، ورأى من الحسنة الرضاء بوضع حد لتاريخ الفنده . وكان الملكيون يمدون ذواتهم سعداء بأن تستثنى من تاريخ أماتهم وبساتهم أعمال النهب والقتل والسرقة والاعتداء التي صارت تأتيها من ذلك الحين فصاعدا عصابات تألفت في الجهة الجنوبية والغربية بعد انحلال عرى الجيوش الملكية

وكان بونابرت واضعاً نصب عينيه هذه الغاية وهي التضييق على أعداء الجمهورية المسكرين أو ازال انكأ العقوبة بهم ومكافأة نصرأها الشجعان . ولما كان يعلم مقدار محبة أصحاب الاهلية للامتياز عن سواهم ولشعور الناس بهذه الميزة وزع مئة سيف شرف على الجنود الذين امتازوا بما كثر خطيرة . على أن الشعب الذي شاهد أهل البسالة والمروءة يكافأون بما كان يكافأ به في ماضي الحين أبناء النبلاء كبر عند توزيع السيوف المذكورة ، وعلم أن ذلك الامر لم يكن مخالفاً للمساواة التي من أجلها جرت الثورة بل كان موطداً لدعائهم على صورة ثابتة تزينها العدالة ، أي على قاعدة المجازاة بالنسبة الى الخدمة والفضل .

وانتهت اليه رسالة شكر من سرجان في فصيلة القنابليين يقال له أون ، فأرسل اليه الجواب الآتي : « وردتني رسالتك يارفيقي الباسل ، فقد كنت في غنى عما نوهته لي بأعمالك العالية لمعرفتي اياها كلها ، . انت أشجع قنابلي في الجيش بعد بنزيت الهمام المتوفى . وقد أصبت سيفاً من السيوف المئة التي وزعتها على الجيش . فاتفقت كلمة جميع الجيوش على أنك قد نلتها باستحقاق . وأنا مشتاق كثيراً الى رؤيتك ، وقد أنفذ اليك وزير الحرب أمراً بالعودة الى باريس »

ان بونابرت مع ما كان يرمي اليه من الغاية السرية في تلك التظاهرات اصاب الغرض باستمالته اليه الشجعان ومكافأته اياهم ولو كان الطمع دافعاً اياه الى هذا العمل . وهذا الامر أفضل من رؤيته في الاحتفالات المقامة للأشخاص الذين

انقذوه في سان كلود من المخاطر الوهمية

وهب سلمنا جدلاً مع الزاعمين بأن بونابرت كان يستميل الناس اليه بعضده المطامع الهابة رياحها في صدره ، وهب كان لاعتبار عظمتة الشخصية وسطوته الخاصة ومنزلته السامية وشهرته البعيدة شأن عظيم في جميع أعماله الحربية والسياسية وجب علينا أن نعلم أيضاً أن تينك السطوة والعظمة لم تكونا سوى سطوة وعظمة فرنسا الملقاة مقاليد حظها بين يديه . وكان عنده أن العمل لمجده الخاص ونجاح مطامعه وخلود اسمه هو العمل عينه لارتفاع ورقي ومستقبل الشعب الذي أطلق عليه هو قبل غيره لقب « عظيم » والذي كان متجسماً فيه على أن السلطة المطلقة التي خوطها كانت وسيلة يتوسل بها ليمهد لروح المساواة والتمدن الحديث سبيل النجاح في شؤون لم يكن روح الحرية يبلغها من جراء مايقوم في وجهه من عقبات يعز اجتيازها . وكان يكافئ العلماء والصناع على صور شتى تنشيطاً لهم وبعد ما كادت الصناعة الوطنية تبور على أثر الفتن الداخلية حادت فراجت رواجاً لم يسبق له نظير . فانشئ مصرف فرنسا ووضعت طريقة جديدة للموازن والمساكنيل ، وقصارى الكلام حقق بونابرت وهو زعيم الحكومة الفرنسية ما كان يتصوره ويريده ايام كان قائداً بسيطاً من قواد جيوش الجمهورية وحين كان يلقي على الاساتذة الاسئلة العلمية ويجعل العلماء في مقدمة أركان الحرب ويسعى لنيل الاحترام والاكرام من الشعب بصفة كونه عضواً من أعضاء الجمعية العلمية اكثر مما كان يسعى لنيلهما قائداً أكبر للجيش وكان القنصل الأكبر يسر كثيراً بأن يكون زعيماً للفتوح العقلية ومشجعاً لتقدم العلوم . وقد كان من حدائمه يحلم بنيل المجد العلمي والتفوق على نيوتن ومن جملة ما قاله في هذا الموضوع : « حين كنت حدثاً فكرت بأن أصير مخترعاً على مثال نيوتن » وروي جفروى سان هيلار انه سمعه يقول : « اتخذت الحرب مهنة لي غير مختار ، وقد كان ذلك اجابة لداعي الاحوال » وفي أواخر مدة اقامته في مصر سمع منج يردد كلمة لاغرانج القائل : « لا يستطيع أحد أن يصيب مجداً كمجد نيوتن لانه لم يكن سوى عالم واحد للاكتشاف » فانتهره بحدة قائلاً : « ماذا تسمع أذناي ؟ ولكن ما قولك في عالم التفاصيل فمن افكر به ، لقد كنت افكر به من الخامسة عشرة من صمري وهل من

أحد انتبه الى ما لافعال الذرات الدقيقة من خاصة القوة والجذب على مسافة قصيرة جداً مع أننا في حكم الضرورة من ملاحظتها . »

وفي أثناء أعمال بونابرت الحربية وانتصاراته اليومية التي امتازت بها حروبه في ايطاليا ظل محافظاً على ذوقه ، وبقي مسيراً على السواء توسيع عظمة فرنسا السياسية والفتوح العلمية في سبيل خدمة الانسانية والعمران

وكان وهو في بافيا يباحث سكاربا العالم الفسيولوجي ، وسنة ١٨٠١ جرت مداولات علمية بينه وبين فلتن أحد أقطاب الفلسفة الطبيعية فجاد عليه بالصلوات السنوية . وسنة ١٨٠٢ أرصد جائزة قدرها ستون ألف فرنك لمن يتوفق في الكهرباء الى اكتشافات واختبارات تماثل اكتشافات واختبارات فرنكلين وفلتن فطلب من الندوة العلمية بيان خلاصة ما أصابته الفنون وعلم الادب والعلوم الطبيعية من النجاح بعد الثورة الكبرى وفوض الى شينيه بيان رأيه في المسائل المتعلقة بعلم الادب

ولم تكن العناية بالقاء السلام في داخلية الجمهورية وتنظيم شؤونها تستغرق كل وقت القنصل الاول بل كان يفكر أيضاً بتعزيز السلام في الخارج ارادة ان يجعله متمماً للمنة التي دلت على ارتقائه الى أوج السلطة . وفتح لهذه الغاية ابواب المفاوضات مع حكومة لندرة على يد تاليران وكتب بذاته في ٢٦ ديسمبر سنة ١٧٩٩ الى ملك بريطانيا العظمى الكتاب الآتي تعريبه حين قبض بيده على زمام القنصلية بالاشتراك مع كباساريس ولبرون

« من بونابرت قنصل الجمهورية الاول الى جلالة ملك بريطانيا العظمى وارلندة »
« انتدبتني رغبة الامة الفرنسية الى الحلول في المركز الاول في الجمهورية ، فرأيت من الملام عند قبضي بيدي على عنان هذا المنصب ان أشعر جلالته بذلك رأساً . وهل تضي أن تدوم الحرب التي تخرب أربعة أقطار العالم من ثماني سنوات ؟ او ليس من سبيل لايجاد واسطة للاتفاق ؟

« او يليق بالامتين الممتازين في أوروبا بالمدنية والقوة والبأس اكثر مما تقتضيه حالة امنهما واستقلالهما ان تضحيا في سبيل أفكار العظمة الكاذبة بمرافق التجارة واليسر الداخلي وهناء العيال ؟ فكيف لا نشعر بان السلم يعتبر اول نخر كما يعتبر اول حاجة ؟

« لا يمكن أن تكون هذه المواطف غريبة عن فؤاد جلالتك ، فانت متول حكومة امة حرة ، وذايتك الوحيدة من ذلك هي تيسير اسباب الهناء لها
« وسترى جلالتك في هذه المقدمات رغبتى الصادقة في العمل للمرة الثانية بطريقة فعالة في سبيل السلم العام بسعي سريع بتمام الثقة ، خال من تلك الصور التي مع ضرورتها لاخفاء استقلال البلدان الضعيفة لا تظهر في البلدان القوية الا الرغبة المتبادلة في المخادعة

« ان فرنسا وبريطانيا باسائة استعمالهما لقوتهما تستطيعان أيضاً مدة طويلة ، وذلك لنكد طالع جميع الشعوب ، أن ترجئا زمن تقادما . وأجروا على القول بأن حظ جميع الامم المتعدنة معلق بنهاية حرب تعم شرورها المستطيرة العالم طراً
بونابرت »

ولم يكن ذلك الامر سوى تظاهر فارغ بالاعتدال ومحبة الانسانية على أنه لو كان بونابرت كما زعم بعضهم راغباً في مداومة اصلاء نار الحرب ولو لم يكن ميالا الا للحرب كما قد أقاموا عليه النكير من جراء ذلك ، لما كان شيء لمن الاشياء يضطره الى ذلك السعي المعجل والموجه رأساً الى ملك بريطانيا . أجل . انه كان يعتقد أن السلم مفيد لحكومته الا أنه كان يبتغي ان يثبت أركان هذه الحكومة ويصير الملاء طراً ميانين اليها حباً بمصلحة فرنسا والتمدن الاوربي . وما كان أشد تلك اللهجة التي تكلم بها بحرية وأنفقة عن احتقاره للصور التي كانوا يتخذونها في المراسلات السياسية . ويعرف القاريء من مجرد تلاوته لهذه الرسالة أن كاتبها هو أحداً بناء الديموقراطية ومستودع مصالح الثورة . وعليه أبي الملك الشيخ الرضى بالشكل الجديد الذي طالع الحاكم الجمهوري ادخاله على العلاقات السياسية ، فأوعز الى اللورد غرانفيل أن يجاوب الحكومة الفرنسية بأن الكتاب الموجه اليه رأساً من القنصل الاول لم يكن لبروقه ، وفوض الى الوزير نفسه بأن ينظم مذكرة يضمنها كثيراً من العتاب لفرنسا . فلم يغرب عن علم بونابرت أن استمالة هذا العدو العنيد المعاكس لنهضة فرنسا السياسية واضطراره الى الملاينة والمسالمية يقتضيان ذريعة أخرى غير مخاطبته بلهجة تدل على التعقل والتأني وكرم الاخلاق ، الا أنه لم يكن يشاء أن يكون

له في وقت واحد عدوان شديداً بالبأس أعني بهما بريطانيا والنمسا . وبناء على ذلك فتحت بونابرت أبواب المفاوضات السلمية في وقت واحد مع الحكومتين طمعاً بفصل احدهما عن المحالفة على فرنسا ولكنه عاد بصفقة المغبون ولم يجن من المفاوضات سوى الخيبة والخذلان . فان النفور الذي شعرت به الحكومات الاجنبيات من الشعب الفرنسي على اثر فتنته الكبرى لم يكن ليزول الا بعامل الانتصار أو بعامل الضرورة

الفصل الحادي عشر

في نقل مركز القنصلية الى التويلري — حرب ايطاليا الجديدة
معركة مارنغو

وكان القنصل الاول يعلم حق العلم أهمية الصور التي تبدو بها السلطة وتأثير الظواهر كبيرها وصغيرها ، فأراد أن يجعل سلطته مخفوفة بكل ما يؤول الى توسيع دائرتها وتعزيز شأنها واظهار بها في عيون الشعب فقد كان قصر الكسـهـبور مقراً لسلطة ضعيفة تألفت من عصابات الثورة ، وسقطت بنهوض الملائـة الفرنسي عليها ونفور القوم منها مما كان يخشى أن تفضي الحال معه الى القوضى . وكان هذا الامر وحده يكفي لأن يجعل بونابرت نفسه مضايقاً في مثل هذا المقر . على أن ما كان كافياً لايواء حكومة وقتية مزقت أحشاءها عوامل الاضطرابات والنكبات والفتن وجعلت الناس ينكرونها ويتأففون منها لم يبق لائفاً بحكومة تشعر بأنها ذات حول وظول وقوة ووحدرة وتطمع بأن تعمّر سطوتها ومجدها مدة طويلة فكانت الحال تقضي من ذلك الحين بان يقيم القنصل الاول في مقر الملوك لانه كان في واقع الحال يزاوّل سلطة الملوك . وكان قصر التويلري وحده يليق بسكنى بونابرت لان هذا القصر كان في عرف الجميع مقراً طبيعياً لرؤساء الحكومة . فهل كانوا يخشون ان يؤثر به ذكر الملكية القديمة بعد ما كانوا يتهمون به بأنه حامل على ترميم صرحها ، هذا ما كان الجمهوريون المتريبون يحاذرون وقوعه ويحاولون ان يدسوه في الصدور . إلا

انه كانت بين ١٠ أغسطس و ١٨ برومير (٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩) وبين لويس السادس عشر و نابوليون بوناپرت أيام وسلطات يعز الديموقراطيون ذكرها . فقد تعاقب في الاقامة بذلك المقام الملكي الكنفنسيون ولجنة الامن العام ، وكانت الاقامة فيه كافية لافتتاحه للشورة ولابعاد شبح طريقة الحكم القديم وكل ما يعيد الى الازهان ذكره القديم . ولما قر رأي القنصل الاول على ذلك الامر ضرب اليوم التاسع عشر من شهر يناير موعداً للانتقال الى المقر الجديد . ولما أرف اليوم المعين قال بوناپرت لكاتبه . « هذه الليلة نرقد في التويلري . . . فيجب علينا ان نمضي اليه بموكب حافل ، وهذا الامر يبعث على التبرم ولكن لابد من مخاطبة العيون ، وهذا شديد التأثير في الشعب . فقد كانت حكومة الديركتوار بسيطة ولذلك لم يكن القوم يحترمونها الاحترام الكافي . فالبساطة في الجيش لا تخطئ ، موقعها ، ويجب على رئيس الحكومة في مدينة عظيمة وفي قصر نغم ان يستميل اليه جميع الانظار بجميع الذرائع الميسورة . . » وفي الساعة المعينة برح بوناپرت الى الكسمبور يحف به موكب حافل يزيد نغمة تألق الجنود في ملابسهم . فكان كل فيلق يسير والموسيقى أمامه ، وكان القادة وأركان حربهم ممتطين الجياد ، والشعب كالبنيان المرصوص يتزاحون بالمناكب ويأخذ بعضهم برقاب بعض ليشاهدوا الموكب ويبصروا الهمام المحصور الذي ظفر بالاعداء في وقعات متعددة ، وينظروا نخبة الجنود الذين أصبحت أمماؤهم في جميع الافواء بعد المعارك التي أوقدوا سعيها . وكانت أنظارهم تبحث بنوع خاص بين الجموع عن الرجل الذي امتاز بينهم بما أوتيته من الدهاء وشدة العزيمة وقوة المعارضة ، وما أداه من الخدم الجليلة لوطنه ، فهو الذي حصر في شخصه نحر الحرب في ذلك العهد ، وكانت فرنسا تعلق حظها بحظه متباهية . وكانت جميع الاحاظ شاخصة الى القنصل الاول الجالس في عربة تجرها ستة من الجياد البيض أهدها اياها عاهل الالمان بعد عقد وثيقة كيو فرميو . وكان كباساريس ولبرون جالسين بأزاء زميلهما كأنهما من حجابيه . واجتاز الموكب شطراً كبيراً من مدينة باريس ، فأثار بوناپرت دفين الحماسة في الصدور ولما وصل القنصل الاول الى ساحة القصر عرض الجيش ، وكان الى كل جانب من جانبيه مورات ولان ، ووقت ما مرت أمامه القصائل السادسة والتسعون

والثالثة والاربعمون والثلاثون رفع قبعته وانحنى احتراماً عند ما رأى اعلامها الممزقة من نار العدو والمسودة من البارود ولما فرغ من عرض الجيش أقام من دون مباهاة في المقر الملكي القديم

إلا أنه أراد ان يبعد عن الاذهان تصور اعادة الملكية على ذلك الشكل الفجائي فشاء ألا يصير المقر الملكي مقراً له إلا باسم قصر الحكومة . وراعى عواطف الجمهوريين بادخاله الى مقره الجديد كثيراً من صور وتماثيل مشاهير رجال العصور القديمة ، فقد كان يعلم ان ذكراهم تلذلا لحلاف الحرية وأوعز الى داود المصور بأن يضم صورة يونيوس بروتس في أحد أروقة القصر القنصلي الجديد ، ووضع فيه أيضاً تمثالاً نصفياً لبروتس الثاني جيء به من ايطاليا .

وقد دلت جميع هذه المحاذير على أن القنصل الاول مع شدة ميله الى الملكية كان يشعر شعوراً عظيماً بحقيقة أصله وفصله وحالة موقفه الثوري ، وظلت هذه العاطفة متسلطة عليه حتى انه لما عمد فيما بعد الى الخروج من دائرتها أبقاها له الشعب . واذا لم تكن والدته قد انخدعت حين قالت عنه واصفة جودة قلبه . « مهما فعله الامبراطور من الامور فانه كريم الاخلاق » فان الشعب الفرنسي كان يصير بعاطفة سرية على القول عن القنصل ثم عن العاهل بأنه وان لم يكن حافظاً لمعهد الامانة لمهمته في المستقبل ، وان يكن قد أطاع زخارف العرش وبهرجته فان بونابرت ديموقراطي بقطع النظر عن الافعال التي فعلها .

وينتمي الى اقامته في قصر التويلري عصر الاصلاحات والانشاءات التي باشرها وكان قبلاً قد أشار الى بعض منها كالامر الذي أصدره بشأن اقفال باب المهاجرة ، وانشاء مصرف فرنسا ، وتقسيم الولايات . وحدثت حادثة ألبست الجمهوريين في أميركا ثياب الحداد ، وأوجدت لبونابرت سبباً جديداً أظهر به انه وان يكن يسير موسماً الخطي نحو العرش فلا يزال يعتبر ذاته أول موظف للجمهورية ، ويعد نفسه مرتبطاً كل الارتباط بمحظوظ الشعوب الحرة . وأذاع على الجيش نشرة جاء فيها ما يأتي : « مات وشنطون ! لقد أصلى هذا الرجل العظيم الجور والظلم حرباً عواناً ، ووطد أركان الحرية في وطنه ،



المرشال ماسينادوق ريفولى وامير اسلنغ
ولد فى نيس سنة ١٧٥٦ وتوفى فى سنة ١٨١٧

وسيفضل ذكره عزيزاً ومكرماً عند الشعب الفرنسي وعند جميع الاحرار في العالمين القديم والجديد ولا سيما عند الجنود الفرنسيين الذين نسجوا على منواله ومنوال الجنود الاميركيين في القتال دفاعاً عن الحرية والمساواة .

« وبنا عليه يأمر القنصل الاول بأن توضع علامة الحداد عشرة أيام على رايات الجمهورية وأعلامها . »

وفي اليوم عينه أعلن القناصل خلاصة الاقتراع على الدستور الجديد، وكان عدد المقترعين ثلاثة ملايين واثنى عشر ألفاً وخمسمائة وتسعة وستين ، فنبذه ألف وخمسمائة واثمان وستون ، وجاهر بوجود العمل به ثلاثة ملايين واحد عشر ألفاً وسبع مئة .

وانتهت الى الحكومة في خلال ذلك الحين أنباء من جيش مصر موجهة الى الديركتوار، وكانت تتضمن كلاماً بذيثاً وجهه كليبر الى بونابرت متهماً إياه بأنه غادر جيشه بالحاجة والضيق . ففرض القنصل الاول الرسائل ، وقد أسعده الحظ بوقوعها في يده . وكانت الاحوال تقضي عليه بأن يضحي بعواطفه الشخصية على مذبح مصالح فرنسا انعاماً فأجاب كليبر جواب رجل يستطيع التجلد وكظم غيظه مما يدل على أنه كان يستوجب أن يتولى الزمام والامر والنهي وكان جوابه بشكل نشرة موجهة الى جيش الشرق ، وقد حاذر كل المحاذرة أن يدع أحداً يشتم منها رائحة الشكوى التي أودعها كليبر رسائله منه ، وهذا تعريب النشرة .

« أيها الجنود ،

« ان قناصل الجمهورية يكثر من الاهتمام بشؤون جيش الشرق .
« ان فرنسا تدري ما للفتوح التي أصبتموها من التأثير على انهاض تجارتها من كبوتها وانهاض العالم ، فاوربا جمعاء شاخصة اليكم بأنظارتها وأنا في أغلب الاحيان أصحبكم بالفكر . وفي أي حالة أوصلتكم اليها أهواء الحرب ظلوا جنود ريفولي وأبي قبر الذين لا يشق لهم غبار ولا يجارون بمضمار

« انظروا الى كليبر بثقة غير محدودة كما كنتم تنظرون بها الي ، فهو جدير بذلك ، أيها الجنود ، افكروا باليوم الذي تعودون به ظافرين الى بلادكم المقدسة ، فسيكون ذلك اليوم يوماً عظيماً محفوفاً بالمجد والفخر تحتفل به الامة بآراء . »

الا أن حكومة فينا ثابت من القنوط الذي ألقها في وهدته انكساراتها المتوالية في حروب ايطاليا العديدة ، وأصاحت الى صوت القلى القديم الذي كانت تشعر به نحو الجمهورية الفرنسية ، وبادرت الى الاتفاق مع بريطانيا على تلك السياسة العدائية . نابذة جميع الاقتراحات السلمية التي بسطها بونابرت . فحينئذ أمر القنصل الاول بأن ينشأ في ديجون فيلق احتياطي مؤلف من ستين ألف مقاتل ، وأُسند قيادته الى برتيه بعد ما خلفه كارنو في وزارة الحرب . بيد أنه ما عثم أن مضى بذاته وتولى قيادة الفيلق جاعلاً اياه جيشاً جديداً لايطاليا . وفي ٦ مايو برح بونابرت بجيشه مدينة باريس فأنهى في ١٥ منه الى جبل القديس برنردس العظيم فاجتازه في ثلاثة أيام . وفي ١٨ منه كتب بونابرت من مرتيني وقد اتخذها مقراً لاركان حربه الى وزير الداخلية يخبره بأنه قطع المعبر الصعب المرتقى وبأن الجيش برمته سيدخل أرض ايطاليا في ٢١ منه . واليك ما كتبه اليه

« أيها الوزير الوطني ، وصلت الى سفح جبال الالب في وسط القاله أجل ان مصاعب عديدة تصدت لنا في جبل القديس برنردس العظيم إلا أنها ذلت لدى الجرأة الممتاز بها الجنود الفرنسيون في كل موقف وقد بلغ الى ايطاليا ثلث الفرسان ، نزل فيها الجيش عنوة ، واحتل برتيه البيامونت . وبعد ثلاثة أيام ينقضي كل شيء . »

وقد انقضى والحق يقال كل شيء على ما كان ينظر اليه بعين الفكر بنظام وسرعة وبعد ما استولى الفرنسيون بسرعة غريبة على مدينة أوستي ثبطهم عن التقدم حصن بارد المنيع المشيد فوق صخر عمودي الشكل والمنتهي عنده واد عميق لم يكن لهم منتدح عن عبوره . فتغلبوا على الصعوبة بنقرهم في الصخر فكان لا تدركهم فيه قذائف مدافع أعدائهم طريقاً لمروا المشاة والفرسان . ثم أنهم أحاطوا في احدى الليالي المظلمة بالتبن عجل المركبات والمدافع وتمكنوا باجتياز الحصن بقطعهم مدينة بارد الصغيرة . وكانت في أثناء ذلك الحين اثنتان وعشرون بطارية من المدافع تمطر عليهم النيران والقنابل ، الا ان القذائف المطلقة على غير هدى لم توقع كثيراً من الاذى بالفرنسيين . وفي الايام الاولى من شهر يونيو نقل بونابرت مركز أركان حربه الى

ميلانو وحينئذ التي في الجيش الخطبة الآتية بعد ما أعلن إعادة جمهورية ماورا،
الالب .

« أيها الجنود

« كان أقليم من أقاليمنا في حوزة العدو ، وكان الدعر منتشرأ في جميع أنحاء
فرنسا الشمالية ، وكان القسم الأكبر من الأرض الليغورية الشديدة الموالاة
للجمهورية قد غزي .

« وكانت جمهورية ماوراء الألب التي تضمضمت أركانها في الحزب الأخيرة
قد أصبحت ألعبوة بيد الحكام ذوي الاقطاعات . ولكن لم تكادوا تحفون
أيها الجنود ، حتى أنقذت الأرض الفرنسية ، وخلف في بلادنا الجذل والامل
الرعب والوجل . ، وانكم ستعيدون الحرية والاستقلال الى شعب جنوى
فيتخلص الى ما شاء الله من أعدائه الأبديين .

« أنتم في عاصمة جمهورية ما وراء الألب ، والعدو المذعور لا يطمع إلا
بالبلوغ الى حدود بلاده . وقد استوليم على مستشفياته ومخازنه وأهرائه
الاحتياطية .

« قد انتهى أول عمل في هذه الحرب ، وكل يوم يوجه اليكم ملايين من
البشر شكرهم ، فلا يخرق أحد حرمة الأرض الفرنسية من دون ان تدركه طائلة
العقاب . وأنتم لا تتركون الجيش الذي قذف الرعب على عيالكم يعود الى موطنه
فهبوا الى القتال ...

« اقتفوا آثار العدو وحولوا دون انسحابه وانتزعوا منه أغصان الفار التي
كان يتباهى بها ، واجعلوا بهذا الامر جميع الناس يعلمون ان اللعنة تحل على
المغفلين الذين يتجراؤون على اهانة أرض الشعب العظيم . وستكون نتيجة جميع
مساعدتنا مجداً أئبلا وصلاحاً متيناً

« ان المجد الأئبل كان قد أحرزه من عهد بعيد الجيش الفرنسي وقائده
الهام وأما الصلح المتين فقد كان يصعب عليهم نيله ، وكانوا مع ذلك قدأوشكوا
ان يوقدوا سمير معركة نهائية تجعل أشد الاعداء عناداً يطشئون وقتياً على
الاقل نيران بغضائهم »

وعبر بونايرت نهر البو في ٩ يونيو وظفر بالنمساويين في منتبلو حيث اشهر نائب

من نوابه يقال له الجنرال لان اشتهاراً عظيماً وأدرك النمساويين في سهل مارنغو في ٢٤ منه وانتصر عليهم انتصاراً من أعظم الانتصارات التي امتازت بها جيوش الجمهورية . ولندع ذلك الغازي المصور يروي بذاته حوادث هذا اليوم المشهور .

« بعد واقعة منتبلو زحف الجيش ليعبر السيارا . ففي ٢٤ يونيو التقت طلائعنا التي كان يقودها الجنرال غردان العدو الذي كان يذود عن البراميدا والجسورة الثلاثة بضواحي الاسكندرية فقهرته وغنمت منه مدفعين وأسرت منه مئة مقاتل .

« وفي الوقت عينه أقبلت فصيلة الجنرال شابران على طول ضفاف نهر البو بازاء فالنسه وصدت العدو عن عبور هذا النهر . فأصبح ميلاس والحالة هذه محصوراً بين البراميدا والبو ، وأضحى المسكان الوحيد الذي كان يستطيع الانسحاب اليه بعد معركة منتبلو مسدوداً . لم يكن العدو قد صمم بعد على اتيان أدنى حركة جريية ، وفي ٢٥ منه عند افتراء ثغر الفجر اجتاز العدر البراميدا على الجسورة الثلاثة وهو عاقدة العزم على اختراق منفذله . فخرج بكل ما عنده من القوة وفاجأ مؤخرتنا ، وبأشر بشدة معركة مارنغو الشهيرة التي كانت حداً فاصلاً لحظ ايطاليا والجيش النمساوي

« فتقهقرنا في أثناء المعركة أربع مرات ثم عدنا فهجمنا أربع مرات وأخذ ثم استرجع أكثر من سبعين مدفعاً من الفريقين بأما كن عديدة وساعات مختلفة . وهجم الفرسان أكثر من اثنتي عشرة مرة بنتائج متفاوتة » وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر وقد أحاط بميمنتنا عشرة آلاف من المشاة في سهل القديس يوليانس المشهور ، وكان تحت صف من الفرسان وكثيرون من المدفعيين يعضدونهم قائمين بنصرهم في السهل الفسيح ووقف فرسان الحرس كحصن من الصوان في وسط السهل فلم يستطع شيء من الاشياء أن يقلل حدهم ، وزحف اليهم على غير جدوى الفرسان والمشاة والمدفعيون ، وقد استنتج من ذلك ما تستطيع فعله عصابة من ذوي القلوب الصارمة

« وكانت المتأومة الشديدة داعية الى ايقاف ميسرة العدو عند حدها ،

وكانت ميمنتنا مسنودة فتمكنت من المقاومة حتى وافاها الجنرال مونييه فاستولى على قرية كستل شريولو بقوة الحراب
« وأجرى فرسان العدو حركة سريعة نحو ميسرتنا وقد كادت تنضمضع أركانها ، الا ان هذه الحركة عجلت في انسحابها
« وكان العدو يزحف الى طول الخط وهو يطلق النار من مدافعه الزائد عددها عن المئة

« وكانت الطرق مغطاة بالهاريين والجرحى واشلاء القتلى ، وخيل ان النصر قد مال عنا ، فترك العدو يتقدم الى مرمى بندقية من قرية القديس يوليانس حيث كانت فرقة ديزه تقاتل ومعها ثمانية مدافع خفيفة في المقدمة وفصيلتان احتياطيتان عند جناحيها . واحتشد وراءها جميع الفارين ، وكان العدو قد ارتكب هفوات أُنذرت بتزلزل أقدامه . فإنه كان قد نشر جناحيه كثيراً
« وأنهم حضروا القنصل الاول هم الجنود من عثاها

« فكان يقول لهم : « يا أبنائي ، اذكروا اني متمود الرقاد في ساحة القتال »
« ولما علا الهتاف « فلتحي الجمهورية ! فليحي القنصل الاول ! » حمل ديزه بفرسانه حملة صادقة على وسط الاعداء ، ولم يك غير القليل حتى ولوا الادبار . وكان الجنرال كرامان قد ذاد كل النهار بفرسانه عن ميسرتنا مسهلاً لها سبيل الانسحاب ، فهجم هجمة شديدة في الوقت الملائم كان من ورائها سقوط ستة آلاف من فرسان النمساويين والجنرال زاخ رئيس أركان الحرب في حبائل الاسر ، واعتطام كثيرين من قواد العدو . وكان جميع الجيش يتتبع هذه الحركة ، فانقطعت ميمنة الاعداء وقذف الدعر والرعب على صفوفهم وهجم فرسان النمساويين على الوسط ليحجموا طريق الانسحاب فتلقاهم بسيار قائد احدى الفرق في مقدمة فرسان الحرس وحمل بسرعة وجراًة مخترفاً صف فرسان العدو . فكان ذلك العمل سبباً لانكساره التام

« وغنمنا خمس عشرة راية وأربعين مدفعاً ، وأسرننا ستة آلاف الى ثمانية آلاف مقاتل ، وتركنا أكثر من ستة آلاف محارب مجندلين في ساحة الوغى »
« وقد استحققت الفصيلة التاسعة الخفيفة السير لقب « فاقدة النظير » والنحف

الفرسان والفصيلة الثامنة من الدراغون بمطارف المجد . وكانت خسارتنا جسيمة .
فقد بلغ عدد قتلائنا ٦٠٠ وجرحانا ١٥٠٠ وأسرا ٩٠٠
« وقد جرح القواد شنبو ومرمون وبوده .

« وهرق الرصاص ملايس برتية القائد الاكبر ، واضطر كثيرون من حجابيه
الى التراجع . وقد أصبنا بخسارة شعر الجيش بثقل وطأتها وستشعر الجمهورية جماء
بشدة وقعها ، وأقفلت أبواب قلوبنا في وجه الفرح فقد أصيب ديزه برصاصة عند
هجوم فرقة فمات لساعته . ولم تعلمه المنية ان يقول للبرون الشاب الذي كان
بجانبه غير هذه العبارة . « اذهب وقل للقنصل الاول بأني أموت متأسفاً على
عدم تمكني من اتيان ما يحلمني أحياء في الاجيال الآتية »

« ففي أثناء حياة ديزه قتل أربعة جياد تحته وأصيب بثلاثة جروح ولم
يكن قد انضم الى الجيش الا من ثلاثة أيام ، وكان يلتهب رغبة في القتال . وقال
مرتين الى ثلاث مرات في الليلة السابقة الى حجابيه « انقضى علي وقت طويل
لم أقاتل فيه في أوروبا ، فلا تعرف في القذائف وسينزل بنا حادث » ولما جاؤوا في
أثناء اشتداد وطيس الحرب وأنباء القنصل الاول بوفاة ديزه لم يفه بغير هذه
العبارة . « لا يمكنني ذرف الدموع » ونقلت الجثة الى ميلانو لتحفظ فيها »
وبعد يومين كتب بونابرت الكتاب الآتي الى القنصلين عن مركزه العام
في طوري دي فارو فالو :

« في غد اليوم الذي نشبت فيه معركة مارنغو طلب الجنرال ميلاس من
جنودنا المحتلين المواقع الأمامية الترخيص له بانقاذ الجنرال سكال الي وقد
تقرر في النهار الاتفاق الذي تلقون بطيه نسخة عنه . ووقعه في الليل الجنرال
برتية والجنرال ميلاس . وأؤمل أن يسر الشعب الفرنسي من جيشه »
وكان من نتائج معركة مارنغو تسليم البيامنت والامبرديا لفرنسا وأقام
القنصل الاول مدة قصيرة في ايطاليا ، فأبدى القوم في ميلانو حماسة شديدة عند
استقباله حتى أن الكهنة أنفسهم شاطروا الشعب التظاهرات الاكرامية وخطب
بونابرت كهنة المدينة بالكلام الآتي رغبة في استمالته اياهم واصابته مناصرتهم .
« يا خدام دين اعتبره ديناً لي ، أنتم من أعز أصدقائي . فأعلن لكم بأن
من يسوق أدنى اهانة اينا المشترك أو يتجرأ على ابداء أدنى اهانة

لأشخاصكم المقدسة اعتبره شغاباً وعدوا للراحة العامة وأراني مضطراً الى انزال أنكأ العقوبة به حتى الموت .

« لقد حاول فلاسفة هذا العصر جهد استطاعتهم أن يقنعوا فرنسا بأن مذهب الكاثوليك عدو لدود لكل طريقة ديموقراطية ولكل حكومة جمهورية . وهذا هو السبب الذي من أجله ساقطت الجمهورية الفرنسية مر الاضطهاد الى الدين وخدامه ، وهذا هو السبب الذي من أجله حلت جميع الفظائع بهذا الشعب العاثر الجدد . . . وأنا أيضاً فيلسوف بيد أني أدري أن الانسان لا يعتبر في المجتمع الانساني ذافضيلة وعدالة ان هو جهل من أين أتى والى أين يذهب . على أن العقل البسيط لا يسمعه أن يقدم لنا في هذا الصدد أدنى مشكاة تنيرنا ، فبدون الدين يظل الانسان يخبط خبط عشواء في دياجير الجهل . والمذهب الكاثوليكي وحده يمنح الانسان نوراً حقيقياً ساطعاً يهديه الى مبدئه وغايته الاخيرة . . . »

ولا ينبغي لنا أن نعزو هذه اللهجة التي فاه بها بونابرت الى سياسة جندي طماع ، أجل انه لم يكن يكثرث للشؤون الدينية كما استدل على ذلك من سيرته في القاهرة ، الا أنه كان يقول : « ان عقلي يجملني أرتاب في كثير من الامور بيد أن التأثيرات الباقية لي من صبوتي والالهامات التي كانت تفتاب مخيلتي في حادثاتي الاولى تلقيني في وهدة الشك والتردد » ومع ذلك من المحقق أن بونابرت كان في عمله هذا الاخير منقاداً الى ضرورة سياسية تجعله ينادي على رؤوس الاشهاد بوجوب وجود الدين . وفي « مذكرة القديسة هيلانة » و « مذكرة نابليون » يشهد على ذلك الدكتور اوميرا وبيله دي لالوزير ووطيبودو فقد كان من جملة أقواله في هذا الموضوع : « اني لا أرى في الدين سر التجسد ولكن سر النظام الاجتماعي ، فهو ينسب الى السماء فسكر المساواة الذي يحول دون فتك الفقير بالغني . . . » — « لقد شاهدنا جمهوريات وديموقراطيات خالية من الدين والعبادة والكهنة ولكن لم نجد دولا على هذه الحال . »

وبناء عليه يجب علينا أن ننسب الى هذه الجهة من النظر في المسائل الدينية استقبال بونابرت لخدام الدين في ميلانو والخطاب الذي أوردنا بعض

عباراته . وبعد استرجاع إيطاليا ببضعة أيام أسرع القنصل الاول في العودة الى فرنسا بعد ما أنشأ مجلس شورى لاعادة تنظيم جمهورية ما وراء الالب وجامعة بافيا ، وفي ٢٦ يونيو نقل جثمان دينه الى جبل القديس برنردس ، وأمر باقامة أثر تاريخي في هذا المكان لذلك البطل الشاب

« وفي ٣٠ منه وصل الى ليون فأراد أن يجعل مروره في تلك المدينة مقروناً بفعل يدل على ميله الشديد الى الاصلاح ويستميل اليه عواطف السكان في تلك المدينة الصناعية العظيمة . وكان من نتيجة عمله هذا ابقاء اسمه فيها مكرماً ومحترماً . فقرر ترميم واجهة بلسكور ووضع بونابرت بيده الحجر الاول فيها ودخل مدينة باريس ، أي بعد خروجه منها بأقل من شهرين في ٣ يوليو دخول الظافر فاستقبله شعبها استقبالا عظيماً باهراً . وكان أول عمل باشره فيها مكافأة الجنود على بسالتهم . وكان في بدء هذه الحرب قد منح عند سفع جبل القديس برنردس لاتور دفرنيه الشجاع لقب « فارس الجمهورية الاول » وكان هذا يأبى التقدم في سلك الجندية وعند عودته من تلك البعثة القصيرة الاجل وقد أصاب فيها نصراً مبيناً جاد بعلامات شرف عديدة على كثيرين . أصحاب الاهلية .

وبينا القنصل الاول يستعيد في أيام قليلة أجمل قطعة من إيطاليا كان برون وبرنادوت قائدا حيوش الغرب يسكنان متحركات القستن في بريطانيا . وقرر الاحتفال بعيد انضمام جميع الفرنسيين ، فأصدر القناصل في ١٢ يونيو قراراً بارجاء الاحتفال بذلك العيد الى ١٤ يوليو في حاضرة كل اقليم ، وبنصب العمود الوطني في باريس بساحة فندوم ، ليتسنى للامة ان تحتفل في يوم واحد بعودة الوفاق والوئام وبذكرى نشأة الحرية . وكانوا يريدون الا ينقص تلك الحفلة شيء من الاشياء فضرب ذلك اليوم موعداً لوضع الحجارة الاولى في الاعمدة الاقليمية والعمود الوطني على ان تنصب الاعمدة الاقليمية وذلك اكراماً لذكرى الابطال الذين بذلوا حياتهم في سبيل الدفاع عن الوطن والحرية وكان من احدى عشرة سنة قد التأم في تلك الساحة مندوبو الحرس الوطني من جميع أنحاء فرنسا للاحتفال بتذكار اليوم الرابع عشر من شهر يوليو للمرة الاولى بعد انشاء الجمهورية ، وقد استنفدوا الميسور في ذلك الحين طامعاً بأن



١٢٥

الجنرال مورو

بعد ما جاهد في سبيل الجمهورية الفرنسية اصبح خصما للجنرال بونابرت
وقتل في درسدن وهو يحارب جيوش وطنه
ولد في مورله سنة ١٧٦٣ وتوفي في درسدن سنة ١٨١٣

يحملوا ذلك اليوم مصطبغاً بصبغة سلبية . وكان لافايت يمثل الوطنية الناشئة .
وتالبران الايمان المتقطعة أنفاسه . وبعد عشر سنوات حدثت في أثنائها فن
داخلية وانتشبت في خلالها حروب خارجية تألب في الساحة الكبرى بمدينة
باريس العاصمة أنصار الثورة ولم يكونوا يرمون في ذلك الاجتماع الى الحلف
بأن ينتصروا او يموتوا ، ولكنهم كانوا يتوخون ان يثبتوا جهاراً بواسطة
مندوبي الجيش ان مندوبي الحرس الوطني اضطلوا خير اضطلاع بقسمهم وان
فرنسا الحديثة ظفرت بأوربا القديمة .

« وأنفذ جيشا الرين وايطاليا ضباطاً آمن لذهنهما نشروا أمام القناصل الرايات
المأخوذة عنوة من الاعداء وقدموها للحكومة علامة اكرام للوطن . فخطبهم
بونابر بالسلام الآتي :

« ان الاعلام المقدمة للحكومة أمام شعب هذه العاصمة الكبرى برهان
ساطع عن دهاء القادة الكبار مورو وماسينا وبرتيه ، ومواهب القواد الحربية
ونوابهم وبسالة الجنود الفرنسيين . فقولوا للجنود عند عودتكم الى الجيش
ان الشعب الفرنسي ينتظر عند احتفاله بعيد الجمهورية في أول فنديمياد إما
اعلان الصلح وإما رايات جديدة علامة انتصارات مستقبلية اذا ظل الاعداء
يقيمون في وجهنا عقبات يمز قطعها »

وكان في هذه الخطبة الوجيزة نقطة تستوقف النظر وتستوجب الانتباه .
فان بونابر لم يجد له بداً من الانزواء عند اطرائه القواد والجيش . على أن
تجاوزهم عن تبين فضله جعل الشعب يقدر له هذا الامر حق قدره ، فقدم في
الذكر اسمي القائدين اللذين بينه وبينهما خصومة ، وذكر اسمي مورو وماسينا
قبل اسم برتيه صديقه الحميم ومستودع سره . وهذا أيضاً عمل سياسي يراد
به ابعاد كل تهمة من الناس له بأنه يحسد ذينك القائدين الشهيرين ، كما أنه أيضاً
كان يدل بذلك العمل على أنه لم يكن يمتبرهما خصمين يستحقان أن يحسب لهما
حساب وأن تتخذ التدابير لاسقاطهما . فهذه أنفة الدهاة ، اذ أن التواضع الذي
تدعوا اليه الالهجة الرسمية يشف عنها ولا يبين بمجلاء شعوره بتفوقه الا باظهاره
للعلاء طراً أنه لا يعمى الا باظهار فضائل غيره من الناس

وختم ذلك النهار بمأدبة شائقة أديها القنصل الاول لكبار مأموري الجمهورية
وشرب فيها النخب الآتي
« أشرب نخب ١٤ يوليو والشعب الفرنسي صاحب السيادة علينا »

—•••••—

الفصل الثاني عشر

انشاء مجلس شورى الدولة — مؤتمر لونا فيل — عيد تأسيس الجمهورية

الدسياسة الجمهورية — المكيدة الملكية — الاداة الجهنمية

وتم توقيع القنصل الاول على مقدمات الصلح بين فرنسا والنمسا بعد
الاحتفال بعيد الجمهورية في ١٤ يوليو بمدة قصيرة . وقد أثبت هذا الامر ما كان
بونابرت يجاهر به من الميل الى السلم في حضرة المندوبين الموفدين الى باريس
من لدن جيوش المانيا وايطاليا

وبعد شهر من الزمان صرف بونابرت همامة النفس الى انشاء مجلس شورى
الدولة وتسمية أعضائه . وفي ٣ سبتمبر عقد وثيقة حبية وتجارية بين فرنسا
والولايات المتحدة . وفي ٢٠ منه لما أبى الامبراطور التوقيع على مقدمات الصلح
الآنفة الذكر أبدي القنصل الاول ميله الى عقد مؤتمر آخر في لونا فيل . وكان
الجنرال كلارك يمثل الجمهورية فيه

ولم تقل أبهة الاحتفال بعيد أول قنديمار عن أبهة الاحتفال بعيد ١٤
يوليو ، فقد شهدته مندوبون من جميع حكومات الاقاليم . وكان ذلك اليوم
مضروباً لوضع الحجر الاول من الأثر الوطني المقررة اقامته في ساحة النصر لذكرى
ديزه وكليبر اللذين صرعهما المنية في يوم واحد الاول منهما في مارنغو بقذيفة
من قذائف الاعداء والثاني في مصر بمدينة أحد السفاحين وقد زاد في نخامة
الاحتفال بعيد تأسيس الجمهورية نقل رفات طوران الى هيكل اله الحرب بناء
على أمر القناصل والقي كاردنو وزير الحرب في تلك الحفلة خطبة لم يكن أحد
أجدر منه بالقاء مثلها في اطراء ذلك الجندي الخالد الذكر الذي تكرم فرنسا

وفاته . فكان الوطني الجمهوري العظيم يسهب في وصف العلوم الحربية والدهاء المقرون بالتواضع والفضائل العامة والخاصة للممتاز بها ذلك القائد الملوكي الكبير . وكان كارنو نفسه متحلياً بتلك المزايا النبيلة وقد وقفها على خدمة وطنه . وأضاف كارنو الى اسمي ديزه وكليبر اسم لاتور دو فرنيه المشهور بشجاعته وعلمه ، وكان هذا الجندي الهام قد اخبره الحمام في ألمانيا فانقرضت بوفاته سلالة القائد الداهية الذي وفاه كارنو جقه من النأين . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً احتشد فيه جميع الفرنسيين المفاجرين بذلك الاسم العظيم في ظل حكومة أسندت وزارة الحربية الى مثل كارنو والزعامة الى مثل بوناپرت وزاد افتتاح مجلس الشيوخ الدائم الانعقاد في سان سير نخامة الاحتفال بالعيد الثامن لافتتاح العصر الجمهوري

الا أنه مع ما كان يحف من الابهة بتلك الاعياد الوطنية ومع ما كان يبذله القنصل الاول من الجهد لئلا يدخل الخشية على الوطنيين المرتابين في نوع ما يخبئه من الافسار المبهمة ، وطريقة استيلائه على السلطة ، والحركات التي كان يجريها مما يدل على نقاد صبره لهدم صرح الانظمة الجمهورية هب بعض أشياع الحكومة الجديدة المغالين في تعزيز مبادئها وحرشوا بعض المتعصبين على الفتك بذلك الرجل الذي لم يكن في نظرهم سوى مختلس وطاغية . وكان من جملة اولئك الافراد ارينا النائب السابق وجيراخي النحات وطوبينو لبرون تلميذ داود المصور ودامرفيل . وقد شامت الاقدار أن يستفيد رجل يقال له هارل من بغضائهم لبوناپرت ، فجرهم الى تدبير مكيدة لاغتياله ثم أنه خانهم قالباً لهم ظهر المحن وكشف لادارة الشيعة مخبآت أسرارهم . فنجا القنصل الاول من شرهم ، ولم يشأ أن يتخلف عن الحضور في ملعب التمثيل ليشهد رواية فائقة العادة . وكان المتآمرون قد صمموا على الفتك به في خلال التمثيل

وكان حزب البوربون الشديد الاستمساك بغرز مبادئه قد أخفق في ما دبره بعد ما لمعت له بارقة أمل الاعتماد على بوناپرت والتعويل عليه في ارجاع السلالة البوربونية الى عرش فرنسا . وحينئذ صمد الى تدبير مكيدة للبطش بالقنصل الاول . فاتحد الاجانب والمهاجرون ومريدو الملكية وتحالفوا على ادراك أوطارهم ، وقد كان من نتيجة اتحادهم وتحالفهم انفجار تلك الآلة الجهنمية .

وتحرير الخبر ان القنصل الاول كان منطلقاً في ٣ نيفوز الى ملعب التمثيل ومعه لان وبرتيه ولوريستن . فبينما هومار في شارع القديس نيكاز سمع انفجار برميل من البارود كانت موضوعاً على مركبة . فلو كان بونابرت قد تأخر عشر دقائق عن المرور في ذلك المكان لكان قد هلك ولا محالة هو وجميع بطانته . إلا أن بمن طالعه دبر أن يكون حوذي مركبته سكران وأن يلهب الجوادين بحمة سوطه خلافاً لما لوف سادته ، فكان عمله هذا واقعياً لذلك الرجل العظيم من غائلة الردى ، اذ أنه لو كان قد هلك ذلك الداهية لكان مصرعه قد غير ولا مرأ وجه الاحوال في فرنسا خصوصاً وفي أوروبا عمومًا . ولما سمع القنصل الاول دوي ذلك الانفجار الهائل صاح بملء فيه قائلاً : « لقد نسفنا » . فألح عليه لان وبرتيه بالعودة الى التويلري ، فقال لهم بغير تردد : « لا . لا . بل نذهب الى الملعب » ولما انتهى الى الملعب جلس على الكرسي المعد له في صدر الردهة وأبدى من السكينة ما أدهش جميع الحاضرين كأنه لم يحدث له شيء إلا أن مراجل القلق والاضطراب كانت تغلي في صدره وقد طالج كتبها بكل ما يستطيعه من الجهد . وبعد ما قضى في الملعب هنيهة من الزمان أسرع في العودة الى التويلري حيث كان جمهور غفير من كبار القوم وأصحاب الكلمة المسموعة في ذلك العصر قد جاؤوا لينقفوا بذواتهم على ما جرى ويروا ما كان منتظراً حدوثه .

ولم يكذب بونابرت يصل الى القصر حتى فار قائره وهاج ما أنجبه وصاح بصوت كالرعد القاصف « أنظروا الى عمل اليعقوبيين ، فاليعقوبيون قد تعمدوا قتلي . فليس ثمت نبلاء ولا كهنة ولا متحزبون للملكية . . . وأنا أدري الطريق الواجب علي انتهاجه . فهؤلاء هم سفاحون وقتلة اتخذوا ديدنهم المجاهرة بمناوأة جميع الحكومات ، وهؤلاء هم صنّاع ومصورون وذوو تصور شديد الاحتدام ، وذوو تفوق في العلم على الشعب ونفوذ تام عليه ، وهؤلاء هم سفاحو فرسايل ولصوص ٣١ مايو ومؤتمرو براريل واصل جميع الجرائم المرتكبة ضد الحكومة فاذا لم يتيسر غل أيديهم وجب تعفية آثارهم ، والضرورة تقضي . تطهير فرنسا من هذه الخثالة المنبوذة . فهل يستحق الشفقة مثل هؤلاء السفاحين ؟ . . . »

وقد كررت على التقريب هذه الكلمات المقرون فيها الخلق الى الاتهام في

جواب وجهه القنصل الاول الى وفد أقليم السين . ومما يستوجب الاسف انها تلاها تعذيب المتهمين الذين أسلمهم هارل الى رجال الشحنة ونفي مئة وثلاثين وطنياً جعلتهم شدة وطنيتهم ومحافظتهم على مبادئهم منظوراً اليهم بعين الريبة وصيرتهم موضوعاً للظنة . وكان فوشه ناظر الشحنة يبتغي ان يبرر نفسه من تقصيره عن اكتشاف المكيدة واحباط مساعي أصحابها . فبالغ في التمثيل بالمتهمين ورافت القنصل الاول التداير التي اقترح عليه اتخاذها . وكان فوشه يحرشه من عهد بعيد على الجمهوريين مسوداً صحيفتهم في عينيه . ودبرت أمور يصعب حل عقدها لم يكونوا يقفون بموجها عند حد اصدار الاحكام العرفية بحق جماعة من الابرء بل تعمدوا سوق الخسيفة والصنارة اليهم بضمهم أسماء طالوت ودستريم ولبلتيه وسان فرجو وغيرهم من كرام القوم الى أسماء بعض الطغام المأجورين . وأطلقوا عليهم لقب « سبتمبرين » تحقيراً لهم ليسهل عليهم تشويه وجه صيتهم ومعاملتهم معاملة الجناة . وبعد شهر من الزمان استدان ان المكيدة كانت من تدبير الملكيين ، وثبت ان اثنين من الحزب الملكي يقال لهما كرون وسان ريمان كانا صاحبي المكيدة المذكورة فحكم عليهما بالاعدام وأحري ذلك الحكم بحقهما . ان معاقبة المجرمين الحقيقيين لم تلغ القرار الذي اتخذته الحكومة ساعة الخلق بحق الديموقراطيين الابرء الذين أوشكوا في أثناء مرورهم بنانت ان يذهبوا فريسة لسخط الشعب

ولم يكن لمعاملة الحكومة للديموقراطيين على هذه الصورة من معاكسين لان الرأي العام كان ميالاً الى بونابرت . فأبدى الاميرال طروته بعض ملاحظات للدفاع عن ذمار الحزب المعتصم هو باهداب مبادئه ، وشكا من الفساد المتطرق الى الروح العام من تلك المنشورات المزينة ارجاع الملكية والحكومة الورثة . وكان في كلامه هذا تلويح الى النشرة المعلنونة « مقابلة بين قيصر وكرمول وبونابرت » والمنشرة بايعاز من وزير الداخلية والمراد بها سبر استعدادات لشعب الفرنسي في مايتعلق بالفتنة التي كان بونابرت يفكر في اضرام مواقدها

الفصل الثالث عشر

انشاء محاكم استثنائية — الاشغال العامة — وثيقة لوناويل — تقدم العلوم والصناعة — عقد الصلح مع اسبانيا و نابولي وبارما — عقد وثيقة مع البابا (كونكردا) — صلح اميان — صلاة الشكر في نوتردام

لما كانت الكتابات المعدة لتهيئة الافكار لمباشرة تغيير جديد في شكل الحكومة قد نبذت نبذ النواة ولم تحمل لدى القوم في المحل الذي تقتضيه منزلة القنصل الاول عندهم ، وكانت هيبة الافكار والانظمة الثورية قد سقطت ، بادروا الى التوحيه على الناس بكتان حقيقة أصلها وفصلها ، وألهمهم السداد ان يسحبوا الى فرسة أخرى وضع المقاصد التي كانوا يتوخونها موضع الاجراء . الا ان الآلة الجهنمية مهدت في وجههم السبيل لانشاء محاكم خاصة لها اختصاصات امتثالية ، فأصبحت المحاكم آلات سريعة الفعل للسلطة المطلقة التي كان القنصل الاول يزاوئها ، وزاولة فعلية في فرنسا . وأثار هذا النظام الهائل المعارضة الشديدة من ربضتها في مجلس النواب على أيدي بنيامين كنستان ودونو وجنغه وشذيه واسنار وغيرهم . وارتفعت في مجلس الشيوخ أصوات لمبرخت ولنجنويه وغارات ولنوار لاروش باقامة النكير على ذلك الامر بيد أن أنصار الحرية العامة كانوا يؤلفون الاقلية فيه ، وما عتمت رغائب القنصل الاول أن أصبحت شريعة .

وكانوا في كل يوم ينظرون الى جانب تلك الحركة الرجعية أعمالا صادرة عن الدامية المسكتوب له أن يبلغ بمجد فرنسا وسطوتها الى أعلى ذراها . فألشئت الطرق واحتفرت الترع في كل ناحية ، وأزهرت الفنون الجميلة ، وعضدت الاكتشافات العلمية ، وفتحت للتجارة والصناعة أبواب كانت مجهولة حتى ذاك العهد .

وفي ١٧ يناير سنة ١٨٠١ صدر الامر باعادة الشركة الافريقية ، فكان القنصل الاول يتنقل بالفكر من جبال الاطلس الى جبال الالب مهتما بشؤون الحضارة

عند الشعوب البربرية اهتمامها عند الشعوب العريقة في المدنية وال عمران ، وفي اليوم عينه أصدر أمراً الى الجنرال طرو بأن يرأس الحفلة المقامة لافتتاح طريق سمبلون الجميلة .

وفي ٩ فبراير تم التوقيع على وثيقة الصلح في لونا فيل بين فرنسا والدول الاوربية ، فاعتنم بونابرت الفرصة باتهام الوزارة البريطانية بأنها حجر عثرة في سبيل السلام العام . وقد قال في رسالته الموجهة الى الهيئة الاشتراعية الى مجلس النواب . « لماذا لا تكون هذه الوثيقة وثيقة للسلام العام ، فهذه هي الأمنية التي تحلم بها فرنسا وهي الغاية الوحيدة التي ترمي اليها الحكومة ، الا أن جميع ما بذلته من المجهود لادراك هذه الضالة المنشودة ذهب على غير طائل ، ولا يخفى على أوروبا شيء مما طالت الوزارة البريطانية اتيانه لاحباط مفاوضات لونا فيل » ولما أجاب فيما بعد على التهانئ التي رفعها اليه مجلس الاشتراع ثم بما يكنه ضميره من المقاصد الكبيرة لاقامة الحصار العظيم حول الديار البريطانية فقال : « ان دول القارة مقتنعات باجبار بريطانيا على المسير في طريق الاعتدال والنزاهة والتعقل »

وسر القنصل الاول بعودة السلام الداخلي الذي تقدم السلام الخارجي ، وباح بابتهاجه مما شاهده من الاتحاد والاتفاق في الاقاليم التي تفقد شؤونها ، فقال : « وعليه لا ينبغي أن تعلق أدنى أهمية على الخطب الخالية من المعنى التي يخطبها بعض الناس » وكان يلح في قوله هذا الى الخطب التي خطبت بكل جرأة في مجلس النواب عند انشاء المحاكم الاستثنائية . ومن ذلك الحين صار هذا المجلس معتبراً الملجأ الوحيد للروح الجمهوري ، فقضت الضرورة بضربه ضربة قاضية وذلك بإبعاد أعضائه في بدء الامر ثم بالغائه الغاء نهائياً . وتلا وثيقة لونا فيل المنعقدة مع حكومة النمسا واثاق أخرى أبرمت أسبابها بين فرنسا و نابولي ومدريد وبارما . وفي خلال ذلك الحين أنشأ بونابرت أقاليم روار ولاسار والرين وموزل ومون طونير . ولما كانت الحال تقضي بأن يسير توسيع الجمهورية وتسكين الفتن فيها مع عمراتها المادي جنباً الى جنب ، وضعت شريعة تحول القنصل الاول تخصيص جوائز للتجارة . فأمر بأن

يقام في كل سنة من ١٧ سبتمبر الى ٢٢ منه معرض عام لنتاج الصناعة الفرنسية .

ولما سقط عنه النظر في أمر دول القارة ووفق الى عزل بريطانيا ولو في الظاهر بحسب الطريقة الجديدة التي رسمتها الثورة الظفرة للسياسة الاوربية ، بنى قصوراً شاهقة من الآمال على أساس الصداقة الشخصية التي كانت أسبابها تربطه بالقيصر بولس الاول ، الا أن مصرع هذا العاهل في الليل الذي بين ٢٣ مارس و ٢٤ منه هدم جميع تلك الآمال . ولما انتهى اليه النبأ حزن حزناً شديداً وكتب في المونيتور ما يأتي .

« في الليل الذي بين ٢٣ مارس و ٢٤ منه قضى بولس الاول ، وفي ٣٠ منه اجتاز الاسطول البريطاني مضيق السند ، وسيرينا التاريخ ما بين هذين الحادئين من العلاقات »

وهذه المرة الثانية التي شاهد فيها بونابرت الحوادث تهدم ما بناه من المصائد الكبيرة للقضاء على الدولة البريطانية في الهند ولم يكن القنصل الاول يكتفي بالانتصار على اوربا ، وتسكين متحركات الفتن في فرنسا ، واحياء موات التجارة والصناعة ، والعمل لتقدم الفنون والعلوم ، بل كان يشعر وهو يعمل هذه الاعمال المجيدة الجسيمة والانشآت المفيدة العظيمة بان خطة تنظيماته لاتزال ناقصة وأنه يعوزها شيء وهو افراز محل خاص للدين اجل أنه لم يكن حتى ذلك الحين قد فعل شيئاً يدل على جهله له او احتقاره اياه ولكنه لم يكن قد نظم شيئاً لاجله لا في الوثائق ولا في الشرائع . على أنه اذا كان رجال الدين قد نالوا قسطهم من عوارف القنصل الاول فان موقفهم الجديد مع كونه محفوفاً بالكرامة بفضل بونابرت لم يكن مبنياً على قاعدة ثابتة . فشاء القنصل الاول ان يحمله راسخاً على أركان شرعية ، فباشر المفاوضات في هذا الشأن مع رومية ، وعقد مع البابا بيوس السابع وثيقة عرفت باسم الكونكردا . وكان الفلاسفة خلطاؤه قد راقهم فتنة برومير لتوطيد دعاتهم حظهم الفجائي فرفعوا عقائهم متذمرين من ذلك الارتجاع الديني ، وكانوا يتمنون من صميم القواد أن يعلن بونابرت ذاته زعيماً للدين الفرنسي وأن يقطع العلاقات قطعاً تاماً مع الكرسي الرسولي . الا أن القنصل الاول



الاميرال برويكس قائد اسطول حملة مصر
ولد في سنة ١٥٧٩ وتوفي في سنة ١٨٠٥

كان ينظر بغير المقلّة التي كانوا ينظرون بها الى مقتضيات الدين عند الاكثرية ، وكان يخشى أن يجرح عواطف السواد الاعظم من الامة بتلك القضية الدقيقة

وفي أثناء الثورة وفي عهد الحكومة المبنية على الفلسفة والمناوأة للجبل وللديركتوار شعر بعض الناس بالتراع الذي تركه زوال الدين في البلاد ، مع أنهم كانوا يمالجون أن يجعلوا القوم يستعوضون عنه بطرق متنوعة كإقامتهم الاعياد للسكان الاسمي ، والاعتقاد بالله دون الاضطرار الى مزاوله شعائر الدين . وكان روبسبيار يقول : « ان من يستطيع استبدال الالهية : بها في العالم أعده آية في الدهاء ، وأما الذي يسعى لنسخها من أفكار الناس من دون أن يستبدل بها شيئاً آخر فاني أعتبره آية في البلاء وفساد الاخلاق »

وبعد بضع سنوات نهض رجل من أصحاب الادمغة المفكرة وذوي العقول السامية وهو ديميستر وجعل وهو في المنفى يندب تراخي الاربطة الاجتماعية ووهن المبادئ الادبية وتقلقل السلطات غير المبنية على قواعد ثابتة ، وعزا الاضطراب العام الى فقدان الدين وجعل ينادي بأنه في مثل هذا المشهد المؤلم لا يجدر بكل فيلسوف حقيقي أن يتخير مذهباً من هذين المذهبين :

« اما أن يجدد شباب الدين المسيحي على وجه غير عادي واما أن ينشأ دين جديد »

ولابد من القول بان بونابرت مع ما كان موصوفاً به من الدهاء لم ير الخيار بين امرين : البادي بطريقة معجلة والمبسوط من المفكر المسيحي لكل فيلسوف حقيقي . وكان يقوم في وجدانه ان المعتقدات الدينية المختلفة عند الشعوب لم تكن سوى وساوس قدسها الزمان وتصورات خامرت عقول البشر في بدء امرهم ، وقد ناصبها العقل عداء مستمرا لوقوفها حجرة عثرة في طريقه ، ولكنها عند دنوها من زمان الهرم اصبحت تداري صاحب الامر والنهي الاكبر . وكان يقول عن الدين المسيحي مع اطلاقه عليه اسم الدين الحقيقي بان « التعليم والتاريخ عدوان لدودان له »

وكان هذا الكلام بمثابة حكم على الجبار الالهي الذي ظل مدة خمسة عشر

قرنا مستودعا للعلم ومعاملاً للعقل البشري ليس بصورة تأثيره على التمدن في عهد عظمته فقط بل بصورة مناظرته للعلم والعقل في عهد انحطاطه . فان بونايرت بحمله التعليم والتاريخ يعارضان الدين المسيحي على هذه الصورة من غير ماتمميز بين الزمان والمكان ذهل عن العلاقة الشديدة الاحكام بين الدين والعلم وبين الدين والسياسة عند نشأة الهيئات الاجتماعية الحديثة في الصراع الناشئ بين المعتقدات المسيحية والاخلاق الدالة على المروءة والتقاليد الداعية الى النفور في العالم الوثني والوساوس المستهجنة المنتشرة بين الشعوب المتسكعة في ظلمات الوثنية . وقد اشتهر في تلك العصور بولس واكليمنضوس وأوغسطينوس وايرويموس وبرنردس وهيلدبرندس وشارلمان والفرد وأمثالهم

وكأن دهاء بونايرت مي بالحدود وقتياً على مثال ما كان يجري في غالب الاحيان لهوميروس حتى أنه جاهر بوجود تناقض دائم بين معتقدات الدين المسيحي والمذاهب الفلسفية ولم يكتف باسكاره مناصرة رجال الدين في ماضي الحين لاتساع دوائر الشؤون العقلية وكال الهيئات الاجتماعية السياسي بل تطرق الى انكار قابلية العقل البشري لادراك الكمال في الامور الدينية . وهذا ما كان يعبر عنه بهذه الصورة المبتذلة حينما كان يقول « من المقتضي على كل انسان أن يظل على الدين الذي تربى فيه أي دين أبائه ، وألا ينشئ ديناً جديداً »

واذا كان بونايرت قد اعتقد بما يكون للدين من التأثير الاجتماعي في المستقبل فن الممكن أن يكون قد افترى بأن هذا الدين لا يمكنه أن يكون بعد ثلاثة قرون انقضت بالمجادلات والشكوك الفلسفية بعد ما كون وديكارت وفلتيرو وروسو على ما كان عليه في القرون المتوسطة وكان يتسنى له أن يضيف الى مهمته كفاتح ومشرع وثوري سياسي مهمة المصلح الديني ، وقد أدرك ضرورة الاختيار الذي كان دي مستر يقترح اخضاع الفلاسفة له ، وكان بتحريكه عوامل دهائه في الشؤون الدينية قد ساعد على تجديد شباب الدين المسيحي ودعا الناس الى مباشرة ذلك التجديد ، أو انشاء معتقد جديد بحسب ما يتقرر بخصوص مذهب من هذين المذهبين كجريه على المنهاج الذي انتهجه لامنه فيما بعد أو كسيره على السبيل التي عالج المسير عليها أصحاب بدع جديدة استوجبت جرأتهم اطراء كبار الشعراء في فرنسا كبرانجه ولامارتين وغيرهما . الا أن بونايرت المعتقد باله واحد

والخاصر دينه باعتقاد مجرد لم يكن يرى كفيلسوف في البيانات الوضعية سوى أعداء دائمين يعارضون العقل والعلم ، وكسياسي سوى وسائل مؤثرة بالشعب أو موانع معترضة للسلطة بحسب نوع علاقتها بالحكومة . ولما كان بونابرت يرى أكثرية الشعب الفرنسي متعلقة بالمذهب الكاثوليكي ويناجي نفسه بأن هذا التعلق ناجم عن المبدأ المعتصم هو به وهو أن كل إنسان ينبغي له أن يعيش ويموت على دين آباءه لم يلق مندوحة عن الاتفاق مع الكرسي الرسولي على تنظيم مصالح المذهب الكاثوليكي ، وأبدى رغبته في إعادة ماضي بهاء الكنيسة وخدامها ، ورضي بتخبيئة آرائه الشخصية وعدم اكترائه للدين وجوده تحت ظواهر دين رسمي فلم يبال بتهمك حاشيته وكان جميع أفرادها من تلامذة فلتير ، وأمر باقامة صلاة الشكر في نوتردام لما عقدت الوثيقة مع البابا وأبرمت أسباب الصلح مع بريطانيا في اميان ، وقد شهد هذه الحفلة الدينية جميع مشاهير الرجال في ذلك العهد . ولما عرف لان واورجو وهما في حاشية القناصل أنهم ذاهبون بهما الى الكنيسة لاقامة الصلاة هتما بالجوع ، الا أن بونابرت أمرهما بالبقاء . وفي الغد أراد أن يمزح مع اورجو فسأله بسوء نية عن رأيه في الحفلة الآتفة الذكر فأجابه هذا الجندي الجريء الذي اشتهر في اركول ولودي ببلائه بالاعداء « وجدت بها بالغة غاية التألق ، ولم يكن ينقصها سوى مليون من البشر بذلوا مهجهم لهدم ما نحن الآن حاملون على ترميمه . »

وكان في ذلك الجواب المربالغة شديدة ، فان المليون من البشر لم يسفكوا دماءهم لملاشاة الدين بل للحيلولة دون عودة خدام الدين الى الاعتساف والجنوح عن الطريقة المثلى واعادة العشور واعفاء رجال الدين من الضرائب وغير ذلك من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ولم ترجع الوثيقة المنعقدة بين الحكومة الفرنسية والكرسي الرسولي شيئا من هذه الأشياء . أجل ان الناس كانوا يتوهمون أن الفتنة الكبرى يراد بها نسخ الدين المسيحي ليستبدل به الدين العقلي ، فهذا ما كان يجب أن تزال آثاره من الازهان . ولم يكن الغرض من الثورة الاقتصار على تقليص ظل الجور والاستبداد ، وضمانه ظفر حزب بحزب آخر ، وتحرير الارقاء لاستعباد الموالي ، وإيجاد أسباب للفلسفة تناوى التساهل الديني وتثير الشكوك في العالم من جراء تمادي القوم في الخلاعات والمنكرات

التي لا نهاية ولا حد لها ، بل كان المراد بها أن يبين للملأ طرأ ان الغرض منها كان خدمة الهيئة الاجتماعية جمعا ، وأن النظام الجديد الذي سنته كان من شأنه أن يقي كل فرد من أفراد الامة من غير تمييز بين طبقاتهم وآرائهم ومعتقداتهم ، وأن أوليتها كانت منشورة فوق التقاليد الجديرة باحترام الشعب لها ، ومظلة جميع المصالح المادية والادبية التي لا تناقض مبادئها . على ان ما أظهرته من العنف والشدة نحو خدام الدين حين شاعت حرمانهم قسما كبيرا من الامتيازات الاجتماعية التي كانوا قد أصابوها من أصحاب طرائق الحكم القديمة أو أن تعتمد بحكم الضرورة الى ترويض جماهيرهم كان يقضي عليها في الالونة الاخيرة بأن تبرهن بأنها لم تأت ما أتته من العنف إلا لنسخ الامتيازات الفاضحة التي كان خدام الدين قد نالوها ، اذ أنه ولو كانت تلك المعاملة العنيفة قد فضت باقتال المعابد وافراط رسل العقل وتحويل الهياكل الى منتديات في أثناء بقاء الثورة ناشرة أعمالها فلم يكن لهذه الثورة الظافرة بد عند عودة السلام والوثام من المجاهرة بأن مجاهدتها للدين وخدامه لم تكن سوى عرضية وضرورية ، وانه لم يكن من تنافر بينها وبين ديانة معظم الامة ، وانها لم تكن معتصمة بأواخي الكفر كما كانوا يتهمونها بل كانت بقطع النظر عن ميالها الى التساهل ميالة الى مزاولة الاعتقادات التي مضى على وجودها عهد طويل ، يستبدل بها اعتقادات جديدة عند الشعب المحتاج الى غير المذهب الفسطي ومذهب الاعتقاد بمناجاة الله والارواح في الشؤون الدينية . هذه هي الغاية المهمة الضرورية التي رمت اليها الثورة بمعاطاتها المفاوضات مع رومية واشهرها الوثيقة المعروفة باسم الكونكردا وبذهابها الى الكنيسة لحضور القداس باحتفال عظيم قام به أعظم فرد من أبنائها وأشهر ترجمان عن عواطفها . واذا كان الحزب المعاكس للثورة قد كبر للنفوذ الوهمي الذي أصابه فانه قد ركب مركب الخطأ . وحين وجد هنري الرابع أن مدينة باريس تساوي « قداسا » ورضي بأن يعترف جهاراً بالمذهب الكاثوليكي لم يكن عمله هذا المراد به تجريد خصومه من السلاح الذي كان في أيديهم لمناصبته سوى مبدد لحزب التحالف . وقال نابوليون في مذكراته : « كانت وثيقة (كونكردا) سنة ١٨٠١ ضرورية للدين والجمهورية والحكومة . . . فقد سحت الاضطراب ونسخت

وساوس جميع المستولين على أموال الامة وقطعت آخر سلك ترتبط به السلالة القديمة بالبلاد . . . »

وحدث انه قال في مؤتمر تقدم هذا العمل « لو لم يكن البابا موجوداً لوجب ايجاده لمثل هذه الحال على مثال ما كان الرومانيون يوجدون حاكماً مطلقاً في الظروف الحرجة »

ولما سالم بونابرت الباباوبة أراد أن يثبت انه يتوخى دوام هذه المسالمة بانشائه ممالك جديدة في البلاد الايطالية التي كان قد نوى أن يكثر من انشاء الجمهوريات فيها . فجعل تسكانيا مملكة صغيرة وانتخب لادارة شؤونها غلاماً بارمياً كانوا قد انتزعوا منه بلاده وضموها الى لمبرديا . وزار هذا الامير الحامل لقب « ملك اتروريا » عاصمة البلاد الفرنسية متنكراً تحت اسم كونت ليفورني ، فاقبعت له احتفالات شائعة أعيد اليها بهاء الارستوقراطية السابق ، الا ان الاحتفاء العظيم الذي استقبلوا به هذا الملك لم يكن ليموه على القوم مخوله . ولما أبدى بعضهم لبونابرت دهشهم من ترفيع هذا الرجل الحقير الى ذلك المقام السامي أجابهم : « ان السياسة اقتضت هذا الامر ، وفضلاً عن ذلك ليس بضائر أن ترى الشبيبة التي لم تر بعينها الملوك من هم الملوك »

أو لا يستنتج من قوله هذا ومن المقاصد الخبأة وراءه ترميم صرح الملكية المتداعي أنه كان يرمي دائماً في جميع أفكاره وأقواله الى غاية ثورية ؟ واذا كانت الجمعية الاشتراكية والكنفنسيون قد ضربا الملكية بشخص الملك ، فقد كان هو منتدباً لاستئناف عملهما وازالة الابهة الواقية الملكية بصنعه ملوكاً على مثال ملك اتروريا . . .

واذا كان القنصل الاول قد خبأ وراء الاحتفاء الشديد بضيفه الملك احتقاراً كان يشعر به نحو ذلك الرجل الذي ملكه على اتروريا ، فانه من جهة أخرى قلل الاحتفاء والرسميات ، وبالغ في الاهتمام الحقيقي باستقباله ضيفاً جاءه زائراً من ضفاف التاميز ، ولم يكن هذا الضيف شخصاً ملكياً لا يعبأ به خبأ وراء ستار مقامه وبهرجة البلاط سخافة عقله وحقارة نفسه بل كان رجلاً من أصحاب الادمغة الكبيرة والنفوس النبيلة والهمم العالية ، حتى قال عنه نابوليون نفسه

« ان قلبه يضرم نار دهائه ، واما بت فان دهائه يحفف قلبه » وكان ذلك الرجل يقال له فكس

وبذل بونا برت لذلك الداهية كثيراً من الود والاحترام ، وقد قال في مذكراته « كان يدفعني في غالب الاحيان الى استقباله ما كان قد بلغني عن معو مداركه ، وما عثمت أن وجدت فيه نفساً كريمة وقلباً جيداً ونظراً بعيداً ينبىء عن نبالة أخلاقه وحرية أفكاره ، وقصارى الكلام وجدته رجلاً تزدان بمثله الانسانية . فاحبته وكنا نتحدث كثيراً نابذين الاوهام وراء ظهورنا ، ونخوض في مجال موضوعات عديدة فيحسن رجال الحكومات أن يتخذوا فكس مثالا ينسجون على منواله ولسوف تسود مبادئه العالم عاجلاً أو آجلاً . »

وشاطر جميع انفرنسويين القنصل الاول الميل الى فكس فاستقبلوه في جميع المدن التي مر بها استقبالا يليق بالظافر ، وأقاموا الاحتفالات اكراماً له واحتفوا به كل الاحتفاء في جميع الاماكن التي عرفوه فيها

على ان مجالي الاحترام التي أبدتها الثورة الفرنسوية لفكس أبدت عينها في بريطانيا بعد سبع وثلاثين سنة من ذلك العهد لجندي من بقايا جنود نابوليون فان مبادئ فكس وما كنتش التي لقيت صدها في فرنسا سنة ١٨٠١ لقيت رجع ذلك الصدى في بريطانيا في سنة ١٨٣٨



الفصل الرابع عشر

من محالفة اميان (٢٥ مارس سنة ١٨٠٢) حتى انقطاع علاقات فرنسا
مع بريطانيا (٢٢ مايو سنة ١٨٠٣)

ان الفراغ الذي تركته الثورة الفرنسية الكبرى في الطريقة الاوربية القديمة لم تسد ثلثته ، بل كان بعكس ذلك يزداد امتداداً في الانحاء الشمالية والجهات الشرقية بواسطة الفتوح الفرنسية في المانيا وايطاليا ، وقد ضاعف افلاق خواطر الحكومات الاجنبية . الا أن نفاد الموارد المالية ، وملل الشعوب ، والاضطرار الى ضم متفرق النشر في تلك النكبات الناجمة عن المعارك العديدة التي رفر فوقعهم فيها غراب البلاء ، والمسببة عن الخوف من خطوب جديدة ، والمتسلسلة عن الوسوس المثيرة الاعتقاد بتفوق الجمهورية وزعيمها ، دعت أوربا المسيحية والنبلاء الى الخضوع لسطوة فرنسا المنبثقة من تلك الفتنة الكبرى . ومن ذلك الحين أصبح الشعب الحر الذي جاهدته مدة طويلة الامم المستعبدة ، واعتبرته كافراً ، وعدته قاتلاً للملوك ، مسالماً للباباوية والملكية من دون أن يفقد شيئاً من مبادئه أو أعماله نحو البابا أو نحو الملوك

ما كان أسمى الموقف الذي أصابته الجمهورية الفرنسية فانها بعد ماتحملت بكل بسالة في مدة عشر سنوات أعباء حرب طويلة الاجل متلفة للسهج والارواح سعياً وراء التلص من ربة استبداد ذوي الامتيازات بلغت أوج العظمة والسؤدد بتمتعها بحسنات المساواة ، واستطاعت أن تبهر أنظار العالم بفرائب السلم كما استطاعت أن تبهرها بعجائب الحرب . واذا كانت جيوشها تتألف من أشجع الجنود وأمهالقواد في ذلك العصر فان خطط ادارتها الاخرى كان يتفلقدها أدهى الرجال الخبيرين بادارة الشؤون . وكان في دوائرها السياسية نخبة الخطباء والكتاب ، وكانت ندوتها العالمية تفضل جميع الندوات التي من هذا النوع ، وكان علماءها يتولون الزمامة في الاكتشافات التي باشروها ، وكان لعلماء الادب والشعراء والمصورين والنحاتين فيها المقام الاول بين رصفائهم في جميع انحاء المعمورة ، وراجت سوق تجارتها وصناعاتها . وانفتحت الطرق

في وجهها في مدة قصيرة وبُنيت الجسورة واحتفرت الترع العديدة ، وبسط في أروقة اللوفر نتائج التجارة والزراعة الناشئتين في فرنسا الحديثة ، وكشف بهاؤها بدر أبهة الملكة القديمة ، وتمكنت الناشئة من الظهور بمظهر جليل يليق بذلك العصر بدخولها المدارس المشيدة لكل صنف من أصناف الأمة وكل فرع من فروع التعليم بأموال الشعب ، وطفحت متاحفها ومكاتبها بما كانت تغنمه في غزواتها وبعثاتها وانتصاراتها ، وكان من جملة ما جاءت به الى باريس زهرة مديسيس وبالاس فليترى . على أن اسمها الذي كان يدخل الخوف على الملوك أصبح عند الشعوب مكرماً ومعجباً به . وعليه يمكن القول أن الجمهورية أصبحت في ذلك العهد حاصلة على مجد حربي ومجد سياسي ومجد أدبي ومجد علمي ، وعززت شأن العمران بواسطة السلاح والعلم والفنون والصناعة ، وظفرت بالسكينة التامة في الداخل والسلام العام في الخارج ، وكل ذلك نالته على يد بونايرت زعيمها . هذه كانت حالة الجمهورية الفرنسية بعد صاح اميان . ولم يكن ينقص عظمة فرنسا وعمرانها شيء من الأشياء ، الا ان حالة الاتبال هذه التي كانت تثير في فؤاد أوروبا كلها عاطفة الحسد لفرنسا كانت تلقي في نفوس الدستوريين أسباباً للتقلب لا تستطيع ملاقاتها . وكان الجميع يعتقدون بأن النصر الذي أوتيته الجمهورية والسلام الذي نالته والسطوة التي أصابها والعظمة التي أدركتها كان الفضل في القسم الاكبر منها عائداً الى الداهية الذي ساقته العناية الالهية للأخذ بنصر الثورة ، وكان الجميع أيضاً يعتقدون ان دوام دينك السطوة والعظمة مرتبط بدهاء ذلك الرجل الذي كان سبباً لوجودها . فهل كان يحسن والحالة هذه ان يبعد ذلك الداهية عن ادارة حكومة البلاد وتسلب منه المهمة الالهية المفوضة اليه ، وذلك بقيام بعض أصحاب الدسائس المتسترين وراء الدستور ؟ وهل يعقل أيضاً بأن يفترض أن ذلك الذي برز على سواه بخدمه الصادقة الجليلة ومجده الأثيل وذكائه الرائع وارادته القوية وبجميع الصفات الممتاز بها رجال الحرب ورجال الحكومة يضطر الى شغل المحل الثاني بداعي النظام أو القانون ؟ وقد توهم مجاس الشيوخ انه فعل ما يجب عليه أن يفعله حين سمى بونايرت قنصلاً لمدة عشر سنوات اجابة لرغبة مجلس الأمة الذي كان يشاء أن يكافئ بونايرت مكافأة باهرة عن الخدم التي أداها للبلاد . الا ان

تمديد أجل ولاية بونابرت على هذه الصورة لم يكن ينسخ من الازدهان ان مدة ولايته وقتية ، وكان يرجى محاذير ومخاطر لم يكن بد من تجنبها ودفعها . فان رجلا كبونابرت في الموقف الذي أوصل فرنسا اليه وفي الموقف الذي أوصلته هي اليه كان مقضياً عليه بعد عشر سنوات أو بعد خمس سنوات أن يصبح فرداً من أفراد الناس أو أن يصير مرئوساً بعد ما كان رئيساً . ولم يكن يحول دون تربيته في دست الزعامة في فرنسا الا انفصاله عنها اما بالنفي واما بالموت . وقد أدرك هو وفرنسا هذا الامر لانه لما لم يرقه تقرير مجلس الشيوخ القاضي بمجعله قنصلاً مدة عشر سنوات صمد الى مخاطبة الامة جمعاء ملقياً عليها هذا السؤال . « هل تريدون أن يبقى بونابرت قنصلاً مدى الحياة ؟ » فبادر جميع الفرنسيين خاصة القوم وعامتهم الى الاقتراح ، وكان عدد المجاوبين بلفظة « نعم » يفيف عن ثلاثة ملايين

الا ان مجلس الشيوخ الذي شاء أن ينسى بقدر الامكان تحفظه الذي كان في غير حينه بادر الى مماثلة الامة على رغبتها باضافته الى ذلك الامر امتيازاً جديداً منحه القنصل الاول أي انه خوله اختيار خلفه . واليكم الجواب الذي وجهه بونابرت الى وفد المجلس .

« يا حضرة أعضاء مجلس الشيوخ ،

« ان الانسان مدين بالحياة الوطنية ، ولما كان الشعب الفرنسي يريد أن تكون حياته مخصصة له . . . فاني أمتثل لارادته . . . وانه باعطائه اياي برهاناً جديداً ثابتاً عن ثقته بي يقضى علي بأن أؤيد طريقة شرائعه وأنظمته التي يرمي بها الى ضمان المستقبل . فالعناية التي بذلها والمساعدة التي تمدوني بها ، ومما لاة جميع أصحاب السلطة لي وما يبديه لي هذا الشعب العظيم من الثقة وحسن الارادة تجعل الحرية والمساواة والسراء في فرنسا آمنة من أهواء الحظ وتقلبات المستقبل فيصبح أفضل شعب أسعد شعب في المعمورة كما يستحق أن يكون ، ويكون من وراء سعادته سعادة أوروبا طراً

« وبينما يسرني أن ينتدبني المجلس الصادر عنه كل شيء الى اعادة العدالة والنظام والمساواة الى الارض ، سأرى غير متأسف ولا قلق زوال آخر رأي من آراء الاجيال الآتية »

على ان آراء الاجيال المعاصرة كانت له ضامناً ثابتاً ومقدمة للتعظيم الذي تدخره له الاجيال الآتية ، ومع ذلك كان ميل الشعب الذي ضمن له التمتع مدى حياته بالسلطة العليا قد لقي بعض المعارضات الافرادية التي كشفت ما كان تحت من الاخلاق النبيلة من دون أن تقلل تعميم الاقتراع الوطني وضرورته . ولم يكن مستطاعاً وقوع خلاف هذا الامر ، فان القنصلية مدى الحياة كانت تربط حظ الجمهورية بحظ رجل واحد ، وتنشئ نوعاً من الملكية مدى الحياة يضع الجمهورية على حدود الملكية الارثية فكيف زالت بغتة الاوهام الراسخة في الاذهان والمخازير التقليدية والاعتقادات الثابتة التي خالجت عقول المعتصمين باهداب الحرية وتأصلت فيها منذ سنة ١٧٨٩ وخلفها استحضار عام لسكل ما كان مستهجنًا في أنظار القوم . وصاروا يتوهمون في ذلك الحين ان فرنسا لم تفعل بالقائماً الى بونايرت بمقاليد السلطة السامية ذلك الامر منقاداً الى دواعي الاحوال ، وانها بدلاً من أن تتصرف وقتياً تصرفاً مبنياً على التعقل والضرورة بتسليمها أعنة الاحكام لحاكم مطلق ، كانت تتصرف تصرفاً تدعوها اليه مبادئها ، وتوطد أركان الدستور توطيداً ثابتاً ، وتهمل في سبيل خدمة زعمائها العمل بمبادئ التؤدة والتروي التي ناضلت عنها وصانتها من موالها الاقدمين . الا ان الثورة بتعظيمها بونايرت واعتبارها اياه ممثلاً أميناً لمصالحها الحاضرة ومقتضياتها الجديدة لم تكن تنكر نفسها بأشخاص ممثليها الاقدمين بل كانت بعكس ذلك تدفع بعض المتقدمين في المجالس الوطنية الى السعي وراء تحقيق أعمالهم الخطيرة ومعاكسة أهواء الشعب الزائلة في سبيل خدمة حقوقهم الثابتة ولا بد من القول بأن القنصلية لم تنفرد بانقاذ الثورة من خصومها وتعزيز شأنها ، فقد نهض باعباء هذه المهمة قبل القنصلية الجمعية الوطنية وحكومة الكنفنسيون . فأنهما لقياً أنصاراً يقيمون النكير بأفهامهما على ميل الافكار الى السلطة المطلقة ، ويحولون دون نسيان القوم للمبادئ الحرة التي انتشرت في سنة ١٧٨٩ وكانت مبالغة الشعب الفرنسي في تعزيزها سبباً لخلاص البلاد في سنة ١٧٩٣ فانبعثت الجمعية الوطنية الدستورية في شخص لا فاييت ونجسنت فيه ، ولم ترض الا باقتراع مبني على أسباب قانونية في مسألة انشاء القنصلية مدى الحياة . وأما الكنفنسيون فانه استعمار لسان كارنو المشهور وكان اقتراعه فيه سلبياً

وكان القنصل الأول متوقفاً معارضة لافاييت لأنه لم يتمكن في أثناء مفاوضاته له بعد عودته الى فرنسا من اقناعه بقبول عضوية مجلس الشيوخ . ولو كان بونابرت يعرف لافاييت حق المعرفة لكفى نفسه مؤونة معالجة استمالته الى انتحال مذهبه السياسي الجديد . بيد ان لافاييت لم يكن باقياً على ما كان عليه في سنة ١٧٨٩ ، بل كان يهيمه كثيراً ان يعلم الملاً طراً في فرنسا وأوربا وأميركا انه لا يزال على ما كان عليه . وكان يملأ ذهنه ذكر الدور المهم الذي مثله الى جانب واشنطن والى جانب ميرابو ، وظهر بمظهر رجل سياسي يعد من الطبقة الأولى ، وكان يحاذر كل المحاذرة ان يدع أدنى وصمة تلطخ برده موقفه ، ولم يكن يرضى بوجه من الوجوه ان يخضع لاي كلف . وقد حملته الدعوى على تمثيل عصر من العصور . والتعبير عن فكر من الأفكار ، والوقوف كراية حية لوطني سنة ١٧٨٩ . وحين كانت عيننا ذلك الرجل تنفتحان لرؤية حقيقة ذاته ، وعلى جبينه تلمع بوارق المجد الذي أحرزه في يوم « لعب الكرة » ويوم « البستيل » ، وحين كان يقابل ذلك الأمر على معرفة الجميل الوطنية التي تمت الأمة بأسرارها له في أيام الجمعية الوطنية الجميلة ، وحين كان يعتبر بحق مركزاً تاريخياً أحرزه بلا تردد ذلك المركز الذي كان يشغله في صدر الصورة المرسومة فيها أعظم المشاهد الدالة على انتصار المساواة على الامتيازات ، لم يكن ذلك الرجل يرضى بأن ينحدر عن المنصة التي نصبها له ظافرو ١٤ يوليو ، ويتفلمل متوارياً بين جماعة الخدام المطيفين بظافر ١٨ برومير أجل ان منظم الكون الاسمي الذي لا تدرك مقاصده كان يرى ١٨ برومير و ١٤ يوليو يومين يرتبط الواحد منهما بالآخر كل الارتباط ، ويرمى بهما الى غاية وحيدة وهي تعزيز المصلحة العامة واعلاء منار الوطن الا ان هذه العلاقة المتينة المحجوبة وراء استار طريقة العناية الثورية المبدئ كانت تنشئ بين الأدوات المختلفة التي كانت العناية تستخدمها مرة بعد أخرى بحسب مجرى الاحوال لبلوغ غاية واحدة ، جميع أسباب التنافر والكرهات الشخصيين الممكن حدوثهما على اختلاف المقامات والطبائع والمدارك . وعليه لم يكن وطني التحالف الأول الغيور على ثباته يستطيع قط الاتفاق مع الحاكم المطلق في سنة ١٨٠٢ ، ومن جراء ذلك نبذ لافاييت عضوية مجلس الشيوخ وآثر الانزواء بشرف في منزله

بلاغرانج على قضاء حياته خاملاً بين حاشية التويلري وأنشئ نشان جوقة الشرف في أثناء المدة التي انقضت بين اصدار المجلس الوطني قراره باسناد القنصلية الى بونابرت مدة عشر سنوات واقتراع الشعب على اسناد القنصلية اليه مدى الحياة

وقال بونابرت لمريديه ومعبري أفكاره لدى المجلس الاشتراعي : « ان هذا النشان سينسخ امتيازات النبلاء التي كانت تقدم المجد التليد على المجد الطريف وأبناء الرجال العظام على الرجال العظام »

وكان هذا الفعل الذي أتاه بونابرت دليلاً على انصرافه الى تعزيز مبادئ الفلسفة الحديثة ، وتوطيد دعائم المساواة الحقيقية على أساس مكافأة المرء على قدر أهليته واستحقاقه . الا ان بونابرت صمد الى انشاء هذا الامر الخطير بين شعب لا يزال فيه بعض نفر من أشياع أصحاب الامتيازات الشخصية قذري في أعينهم ، وبعض الطامعين بالانشاء المساواة الحقيقية الذين كانوا يعتبرون عمل بونابرت هذا تجديداً لنهضة الارستقراطية القديمة أو انشاء أرستقراطية جديدة في اكرام أصحاب الامتيازات الشرعية . ولم يكن سكوت الناس عن معاكسة انشاء جوقة الشرف بالامر الهين ، فلا بد لنا من القول بأن ذلك الانشاء هب لمناهضته أشخاص لم يكن أحد مرتاباً بخصومتهم للارستقراطية أو بتطرفهم في الانتصار للديموقراطية . فتمعجب بونابرت من هذا الامر وألقى تبعته على الخطباء الذين شحذوا ظبي ألسنتهم للدفاع عن ذلك المشروع ، وكان يقول . « اذا كان اختلاف المقامات بين الفرسان وتخصيص نوع مكافأتهم قد أفرز كل طبقة من طبقاتهم عن الاخرى ، فان نشان جوقة الشرف وتعميم منحه يعتبران بعكس ذلك الامر راموزين للمساواة من دون سواهما » وقد استند الى هذا المبدأ حين نبذ مشورات الذين كانوا يرتأون تخصيص نشان جوقة الشرف برجال الجندي . فقال لهم « ان مثل هذا الفكر كان يحسن في أيام أصحاب الاقطاعات والفرسان أو في العهد الذي غزا فيه الفرنج بلاد الغاليين ، فقد كانت الامة في ذلك العهد راسفة في قيود العبودية ، وكان الظافرون يستأثرون بالحرية ، وكانوا كل شيء ولم يحرزوا تلك الميزة الا لكونهم جنوداً وعليه لا يصح الآن أن نقابل عصور الهمجية بالمعصور الحاضرة . فنحن ثلاثون مليوناً من البشر تربطنا جامعة

المعرفة والتملك والتجارة ، ولا تمتد شيئاً مذكوراً ثلاث مئة شخص أو اربع مئة شخص من الجنود بازاء مجموع الامة ولا يخفى أن القائد ماعدا كونه لم يتقلد القيادة الا بصفته المدنية ، فحين يعتزل المنصب يعود الى حالته المدنية . ان الجيش هو الامة ، وان نحن اعتبرنا الجندي صارفين النظر عن علاقته بالحالة المدنية قام في وجداننا أنه لا يعرف شريعة غير شريعة القوة ، وانه ينسب كل شيء اليه ، ولا يرى غير نفسه ومن اختصاص الجندي أنه يبتغي احراز كل شيء بطريقة استبدادية أما الرجل المدني فانه يحكم المناقشة في كل شيء ولا يلجأ الا الى الحقيقة والعقل ولا أتردد أبداً في الاعتقاد بأن الافضلية يجب ولا مرأ أن تمتح الى المدنيين فأنا لا أتولى الحكم لكوني قائداً ولكن لأن الامة تعتقد اني محرز صفات مدنية تصلح لان يتولى صاحبها الحكم وحين لا تعود الامة ترى هذا الرأي يتداعى صرح الحكومة هاوياً . وقد كنت عارفاً حق المعرفة ما كنت أفعله وأنا في مقدمة الجيش حين كنت أطلق على ذاتي لقب عضو الجمعية العلمية ، وكنت موقناً بأن الجميع حتي آخر جندي يدركون مرمي كلامي واذا لم يعتبر نشان جوقة الشرف مكافأة على الخدم المدنية كما يعتبر مكافأة على الخدم الجندي فلا يحسن والحالة هذه أن يسمى نشان جوقة الشرف » وقال بعد ذلك . « حين يبتعدون عن النظام الاول ينسخون فكراً سامياً وتصبح جوقة الشرف أثراً بعد عين »

ولقد كانت ذلك الفكر وأيم الحق من أقوى العوامل لتحريك ساكنات المنافسة والمباراة بين أفراد الامة بفتحته في وجوه الجميع على السواء طريق امتيازات الشرف على مثال فتحته طريق المناصب . وقد أصبحت الاهلية الشخصية من ذلك الحين كل شيء ولم يبق شرف الاصل والفصل شيئاً مذكوراً ويمكن القول ان هذا الامر كان نتيجة انتصار الثورة وتملصها من ربة الحوادث العرضية ، وتقديسها كل ما كانت قد توخته من دون ان تنصرف عنه دقيقة من الزمان .

وهب نهض في بدء الامر لمعارضة جوقة الشرف فريق من غلاة الوطنية فذلك ناشىء عن عدم اعتقادهم صحة ما كان خطباء الحكومة يعالجون اقناع الامة بفائدته ، وعن توهمهم بأن بونابرت كان يرمي الى ايجاد أشخاص يكونون

أطوع له من بنائه ، وانه ينوي ان يعيد الالقاب القديمة الى بعض أفراد من الامة من دون ان يدعها تشعر ، وهو يوهمهم بأنه لم يفعل ماتوخي فعله الا ليكافي المبرزين في خدمة الوطن على سواهم ، ويضع مبادئ المساواة موضع الاجراء بانشائه نشائاً يستطيع الجميع على السواء احرازه . وعلى هذا النمط يمكن القول أن المعارضة الشديدة التي بدت في وسط المجلس كان صدورها عن خوف القوم من طموح بونايرت الى عرش الامبراطورية أكثر مما كان خوفهم من بقاء القنصل الأول قابضاً بيديه على أزمة الاحكام .

وكان من جملة الانشاءات القنصلية أمر لم يكن في طاقة حزب من الاحزاب أو في ذرع شيعة من الشيع أن يقللوا من اعتراف الناس له بالجميل على انشائه وتقديرهم إياه حق قدره . وهو القانون المدني . وكان بعض الناس يزعمون على غير طائل ان هذا القانون من أوضاع مشاهير الفقهاء الذين أنبتهم الثورة ، إلا أن الكثيرين يعلمون انه حينما كان الجدل يشتد ويحمى وطيسه كان بونايرت ينبري لابتداء رأيه وكثيراً ما كان يتسنى له أن يحسم بكلمة واحدة جدالا طويلا ويذلل مصاعب شديدة بكلمة واحدة من الكلمات التي يستأثر بها في غالب الاحيان أصحاب الدهاء . وقد أضاف الى القانون الفصل الخامس المبحوث فيه عن حالة الجنود المدنية حين يكونون خارج أرض الجمهورية فقد كان الفقهاء يقولون : حسب أولئك الجنود أن يخضعوا للقانون الجاري العمل بموجبه في البلدان المخيم فيها ظلهم . فقال لهم بونايرت على الفور : « ان الجندي لا يكون أبداً في دار غربة حين تظلمه الارية ، فحيث تكون الارية يكون الوطن . »

وكان بعد صلح اميان أن جميع قوات فرنسا الحربية ظلت لا عمل لها وباتت رهن اشارة بونايرت ، وحينئذ اغتتم القنصل الاول الفرصة من السكينة السائدة في أوروبا وفكر في نقل ميدان الحرب الى أميركا لفتح سان دومينك ، وفوض الى صهره لسكر قيادة تلك البعثة التي لم تكن حميدة المغيبة على فرنسا . وكل ما أمكنهم أن يستفيدوه من تلك الحملة أن أسروا توسان لوفرتور زعيم الزنوج ، وهو رجل ممتاز بين بني جلدته . فنقلوه الى فرنسا ولكنه ما لبث أن استوفى بخته من هذه الدنيا في قلعة جو ، واغتالت طائلة الحمام في هذه البعثة قائدها لسكر . خلفه روثمبو ، إلا انه لم يتمكن من حفظ تلك الطارئة

لفرنسا بل فقدتها بما ارتكبه من المظالم وأتاه من المساوىء .
وكانت إيطاليا مهد مجد بونابرت ومنشأ بأسه شغلا شاغلا له . ففي مفتح
سنة ١٨٠٢ التأم في ليون مجلس ايطالي مؤلف من سرة البلاد ودهاتها ، وبعد
مفاوضات أجمعت كلمتهم على أن يقدموا لبونابرت رئاسة جمهورية ما وراء
الالب التي لم يكن أحد بين الايطاليين قادراً على النهوض باعبائها . فقبل
بونابرت تلك الزخامة المقدمة له وقال لو قد تلك الامة : « ليس عندهم سوى
شرائع خاصة فيجب أن يكون لكم شرائع عامة وليس لشعبكم سوى عادات
مكانية ، فعليه أن يقتبس عادات وطنية » وفي خلال تلك السنة عينها ضم
بونابرت البيامنت الى فرنسا وقسمها الى ست ولايات وهي : بو ودوار وسزيا
وستورا وطانارو ومارنغو .

وفي مفتح سنة ١٨٠٣ نظم الندوة العلمية الوطنية تنظيماً جديداً على شكل
رآه ملائماً ، فقسمها الى أربعة أقسام :

أولاً — ندوة العلوم .

ثانياً — ندوة اللغة وعلم الادب .

ثالثاً — ندوة التاريخ وعلم الادب القديمين .

رابعاً — ندوة الفنون ، وقد نسخ بهذا التقسيم من الندوة العلمية الوطنية
العلوم الادبية والسياسية . وكان نسخ هذا الفرع ناجماً عن استيائه من
معارضة بعض أصحاب الصحف والكتبة المشتغلين بالعلوم العقلية للخطة التي
كان يتوخى انتهاجها في ادارة شؤون الحكومة وتجرئهم على رفع صوتهم
لمعاكسته في مجلس الامة نفسه .

وفي ذلك الحين أنشأ القنصل الاول أيضاً معاهد مختلفة ذات أهمية كبرى
من جملتها مدرسة فنتنبلو الحربية ومدرسة الهندسة والفنون في كميانيه .

ان بونابرت الذي ظفر بملوك أوروبا ، وألقى السلام في الجمهورية الفرنسية ،
أراد اتيان أمر آخر عظيم الأهمية ، وهو تدخله في شؤون سويسرا وتوسطه
لايجاد السلام والوئام بين أجزاء هذا التحالف . فأنشأ لها نظاماً جديداً كان
خاتمة للخلاف الناشئ بين الأنحاء المتألفة منها هذه الجمهورية . وأصبحت
سويسرا بموجب النظام المذكور مؤلفة من تسع عشرة ولاية لكل منها

دستور خاص تجري عليه تحت حماية فرنسا العالية .

وجه القنصل الاول نشرة الى جمهورية سويسرا تقتطف منها ما يأتي :
« ليس من أحد فيه ذرة من العقل والذوق السليم الا يرى أن النظام الذي وضعته لكم هو أفضل منحة لبلادكم من فضل العناية التي لم تفتأ في خلال الانقلابات السياسية وصدمات الاقدار ساهرة على كيان أمتكم واستقلالها ، وان تدخل في شؤونكم على الوجه الذي تعرفونه هو الذريعة الوحيدة الباقية لكم لضمان كيان كلا الامرين » وكانت الحكومات الاجنبية تنظر شزراً الى التفوق الغريب والسيادة العامة اللذين نالتهما فرنسا وزعيمها الشاب في تنظيم شؤون أوروبا . وكانت الحكومة البريطانية أشد جميع تلك الحكومات استياء وقد ساورها القلق من جراء طول مدة السلم في أوروبا . فتألب في لندرة جميع أعضاء الارستقراطية الاوربية وأساطينها المناهضة للديموقراطية الفرنسية ودهاقتها . وهل كان يعقل أن مثل رجال الحكومة الذين شاطروا تشي آل برنسويك من الشعب الفرنسي أو حبذوا عملهم يستطيعون أن ينظروا بمقلة الرضى الى اشتداد منكب ذلك الشعب الذي كانوا يعملون نفوسهم بأن يسلموه الى جنودهم غنيمة باردة ؟ وكان الكتبة المنتمون الى حزب المحافظين والرافعون فوق رؤوسهم لواء برك وبث يجبرون المقالات المسهية ويعقدون الفصول الطويلة متهمين على الثورة الفرنسية الكبرى ومقبحين أعمال زعيمها الاكبر . وقد كان عملهم هذا داعياً الى اضرار لظى الحرب الوطنية بين ظهري الامة الغريبة التي أصابت سلماً محموداً . وكانت كتاباتهم جميعها تدور على هاتين الغايتين المهمتين .

١ ايجاد شكاي من فرنسا ، ٢ عقد محادثات واستمالة الدول الاوربية الكبرى الى مجاراتهم على مبادئهم

وكانت أهم شكايهم مسائل سويسرا ، فأثارت هذه المسائل حسدهم من مريضه . . .

وكانت المذكرة الرسمية مختومة بتعليق النفس بالمحافظة على السلم مع المجاهرة بان فرنسا كانت مستعدة لشهر الحرب وأنهم لا يستطيعون أن يصيبوا شيئاً منها بالوء . . . المذكرة مذكورة أخرى حبرتها البراعة نفسها

التي حبرت أختها من قبلها وقد ختمت بهذه الفقرة المشهورة . « انه لا يسر على أمواج المحيط أن تقتلع الصخور التي تتكسر عليها من أربعين قرناً من أذكاء العصاة المعادية لاوروبا وللبشر نار الحرب ، وجرها ويلاتها في غربي أوروبا ، وخسوف بدر الشعب الفرنسي مدة من الزمان »

الآن القنصل الاول لم يقتصر على نشر المناقشات والمجادلات في جريدته الرسمية بعد تحقيقه ما كان للهجائن البريطانيين من النفوذ لدى الحكومة البريطانية بل نشر في المونيتور المقالة الآتية التي رن صداها في جميع أنحاء أوروبا . وهذا تعريبها . « لا تزال جريدة التايمس التي يزعمون أنها تنشر تحت مراقبة الوزارة البريطانية تشحن أعمدتها بالقدح في فرنسا . . . وكل ما يخطر على قلب بشر من الدناءة والسفالة والشر تنسبه تلك الجريدة الساقطة الى الحكومة الفرنسية . فما الغاية التي ترمي اليها ياترى ؟ . . . ومن هم الذين يدفعون لها الاموال لادراك هذه الغاية ؟ . . . »

« وثمت صحيفة أخرى تفوق جريدة التايمس في السفاهة ، وهي صحيفة ينسج برده مقالاتها بعض نفر من اشقياء المهاجرين وشذاذ الافاق وشراد الاوصار والاجلاف الذين لفظهم وطنهم وتبرأ منهم الشرف والنبيل ، فاتوا منكرات ، وارتكبوا فظائع لا تقوى على محوها أيدي العفو العام

« لقد اجتمع في لندرة أحد عشر أسقفاً بزعامة أسقف أراس اللفظ الطباع وجاهروا على رؤوس الاشهاد بالتردد على الوطن والكنيسة وأذاعوا نشرات تقيض طعنًا بالاساقفة الفرنسيين ، وأوسعوا الحكومة والبابا اهانة لانهما أطادا السلام والانجيل الى أربعين مليوناً من المسيحيين

« ان جزيرة جرسى تغص بالاشقياء الصادر الحكم عليهم بالموت من المحاكم لارتكابهم جنایات قبل الصلح ، كجرائم القتل واغتصاب العرض واضرام النار . . . ومن جملة شروط وثيقة الصلح المعقودة في اميان شرط يقضي بتسليم المتهمين بجرائم القتل ، الا أن الامر جرى بعكس ذلك ، واستقبل السفاحون على الرحب والسعة في جرسى . . . »

« ان جورج يتباهى بتعليق النشان على صدره في لندرة ، وقد أنعم عليه بالنشان مكافأة له على الآلة الجهنمية التي دمرت ناحية من نواحي باريس

وأهلكت ثلاثين شخصاً من النساء والاولاد الآمنين . أفلا يحق لنا أن نفتكر
والحالة هذه بأنه لو كان قد أدرك غاية أمنيته من الامر المنكر الذي تعمد اتيانه
لكان قد كوفيء بنشان ربطة الساق ؟
« واذا دام الحال على هذا المتوال فكيف يصبح صلح اميان ؟ »



الفصل الخامس عشر

انقطاع العلاقات بين فرنسا وبريطانيا — رحلة بونابرت الى بلجيكا

وعلى الشواطىء البحرية — مكيدة ييشغرو وجورج موت

الدوق دنگان — نهاية القنصلية

ان الوحدة الاوربية التي نشأت عن المسيحية والفتح واستظلت فيما بعد
بكنف السياسة تداعى صرحها لدى الثورة الفرنسية الكبرى . وقد دخلت
الخشية على جميع الحكومات القديمة حتى أن الحكومة البريطانية نفسها وهي
تتباهى باطلاق اسم أرض الحرية على بلادها جاهرت بمعادة فرنسا لأنها كانت
تمثل تحت شكل الحكومة الدستورية الارستقراطية البالغة غاية المناوأة للحرية
الحقيقية ، وتميز نفوذ أصحاب الاقطاعات بطريقة استبدادية لا يحاكيها استبداد
في أوروبا طرا . فلم يكن من سبيل لبقاء السلم الثابت الحقيقي بين فرنسا وهذه
الدولة أو بين فرنسا وغيرها من الدول الاوربية اللواتي تؤثر بهن مبادئ
الحكومة البريطانية . فقد كانت تحت عداوة كامنة وراء ستار التظاهرات السلمية
بين الحكومة الفرنسية والحكومات الاوربية الاخرى ، على أن ذلك النفور
المبني على معاكسة المبادئ والمصالح معاكسة أصلية كان يزداد مع ازدياد
نفوذ مبادئ المصالح الثورية . كانت واقفة حاجزاً حصيناً في وجه الاستقراطية

الناقة والملكية الساخطة . واذا كانت الحكومات في بعض الاحيان تضطر بوهن الشعوب وشدائدتها ورفع أصواتها الى القاء السلاح فلا يكون من وراء ذلك الامر سوى ابرام وثائق واهنة وقتية تلازمها جميع أسباب الحرب مع الاحتفاظ بتجاوز حدودها عند سنوح أول فرصة .

وكانت أوروبا القديمة دائمة التفكير في استعادة وحدتها ، وهي لا يخفى عليها البتة أن ذلك الامر حيوي لها ، وانها بدونه صائرة الى التضعف والدمار . ولما لم يكن ميسوراً لها أن تؤمّ جهازاً تلك الغاية كانت تحبّ حقيقة مقاصدها تحت سجوف الرثاء والمواربة . وأما أوروبا الفتاة فقد كان مقضياً عليها أن تعمل تارة ببسالة جنديها وتارة بدهاء صاحب الامر والذهي في الحكومة ليتسنى لها ايجاد وحدة جديدة ، وهي لم تكن غافلة عن أن المساواة تظل محفوفة بالمخاطر ما دامت امتيازات النبلاء مقدمة على حقوق سوام . وقد شعر بونابرت بهذا التنافر الذي لا يزول والذي جعله يقول : « بعد خمسين سنة تصير أوروبا فوزاقية أو جمهورية » وهو يعني أنه في أثناء هذه المدة يتمكن أنصار الثورة أو معاكسوها من توطيد أركان الوحدة الاوربية . ولما لم يكن من الناموس الطبيعي أن سلطة المستقبل والخصب الذين ينشئان شدة الشبيبة تنزع منها وتمعطى بطريقة عجيبة الى الشيخوخة لم يكن والحالة هذه مجال لرجع صدى مفاوضات القديسة هيلانة وادخال الفرق على الا الى يطعمون بحمل الهمجية الروسية تهيج منهاج المدنية الفرنسية .

واذا كان بعد أكثر من ثلاثين سنة قد حال دون انفجار بركان المبادئ تأثير استمداد الشعوب وحاجاتها مع كون ذلك البركان لا يزال يغلي في الصدور مع ما يبدو في ظاهر الحال من رسوخ دعائم السلم بين الحكومات ، فكيف كانت الحال سنة ١٨٠٣ حين كان مرجل العواطف متواصل الغليان ، ولم تكن الثورة بعد قد عززت موقفها وثبتت مبادئها بانتصار الامبراطورية ومحاوله حزب الملكية على غير طائل ارجاع السلالة البربونية ، وحوادث سنة ١٨٣٠ الهائلة ؟ وعليه كان منتظراً حدوث مناصبة جهارية بدلا من الخصومة السرية حين يتيسر اعلان ذلك الامر لاعداء فرنسا الكاشحين .

ولم يمض سنتان على صلح اميان حتى تبرمت الحكومة البريطانية من هذا

الصلح الكاذب ، ولم يثبطها شيء من الاشياء عن اضرار نيران حرب طاحنة بين امتين لم يكن ينقصهما سوى التعقل واسناد شؤونهما الى حكومتين بنيت مبادئهما على اس الحرية الحقيقية وفوضت ادارتهما الى رجال من امثال فكس ، فتسيرا في مقدمة الشعب وتعملا متفقتين على القاء السلام والوفاق في المعمورة وتمهيد سبل اليسر والعمران في وجه الهيئة الاجتماعية

وفي ٢٠ مايو سنة ١٨٠٣ أنفذ القناصل مذكرة الى مجلس الشيوخ والمجلس الاشتراعي ومجلس الامة ضمنوها ما انتهى اليهم من سوء مقاصد الحكومة البريطانية ، وأبدوا فيها خشيتهم من قرب نشوب الحرب . فبادرت المجالس الثلاثة المشار اليها الى المجاوبة على الرسالة بكلام يقضي بوجوب التسبب بجميع الاسباب الفعالة لاحترام الوثائق المعقودة والمحافظة على كرامة الشعب الفرنسي ولما تلا القناصل ذلك الجواب فاه القنصل الاول بهذا الكلام الشديد الالهجة .
« نحن مكرهون على المحاربة لدفع التعدي علينا والظلامة عنا ، وعليه سنقاتل بافتخار

» واذا كان ملك بريطانيا مصمماً على اعداد بريطانيا العظمى الى الحرب لتعترف له فرنسا بحق اجراء الوثائق أو نقضها على هواه ، ويسوغ له أن يهين الحكومة الفرنسية في نشراته الرسمية والخاصة من دون أن تتمكن من الشكوى من ذلك فقل على الانسانية وحظها السلام

« نحن نبتغي ولا مرأ أن نترك لاعدائنا الاسم الفرنسي مكرماً وخالياً من كل وصمة . . . ونحن في كل حال ندع لبريطانيا الاقدام على أعمال العنف المعاكسة للسلام واستقلال الامم وسنعتطيها مثالا للاعتدال يمكن الاستعانة به وحده على المحافظة على النظام الاجتماعي »

وكان ملك بريطانيا يستند في نقضه وثيقة اميان الى احتلال جزيرتي لمبدوز ومالطة واخلاء بلاد القاع ، الا أن الحقيقة كانت غير ذلك ، فقد دفعته الى شهر الحرب هذه المرة أيضا الاسباب عينها التي دفعته الى انشاء المحالفة الاولى لمواقعة فرنسا ، أي حرب احناف مبادئ الارستقراطية لانصار الثورة الفرنسية وكان طاهر روسيا وملك بروسيا يظهران الميل الى التوسط بين فرنسا وبريطانيا الا أن الحوادث التي حدثت فيما بعد دلت على انهما كانا متحالفين سراً مع

البريطانيين ولكن ما لم تكن بريطانيا قد أصيبت بآفات الحروب الاولى كما أصيبت بها دول القارة الاوربية ، لم تكن محتاجة نظيرهن الى ضم متفرق شملها لتتمكن من شهر الحرب ، فترأست المحالفة الجديدة التي تألفت لمواقعة فرنسا ومجاذبتها

وكان أول أمر باشرته بريطانيا بعد اعلان الحرب وخيم التبعة عليها فان الجيوش الفرنسية احتلت هانوفر ، فترك قائد الجيش البريطاني الهانوفري مركزه وتلا ذلك الامر نشوب الجيش المذكور في حملة أسر الفرنسيين ورح بونايرت فرنسا مبتغياً تعهد شؤون بلجيكا فدخل مدينة بروسل دخول الظافر ، واحتفى به الشعب البلجيكي في جميع الاماكن التي مر بها احتفاء شديداً يدل على ابتهاجه بانضمامه الى الجمهورية الفرنسية . فقا بلهم بونايرت كما كان يقابل الاقوام الذين ينزل بين ظهرانهم أي أنه أنشأ لهم معاهد عامة مختلفة وأمر بضم الرين الى الموز والاسكو وتأليف رعة كبيرة تسهل المواصلات في تلك البلاد .

ولما عاد بونايرت الى باريس أمر بفتح جسر الفنون للجميع على السواء ، وحول البريطانية الى مدرسة عالية . وكان يهتم أيضاً بالشؤون الخارجية . فأبرم محالفة مع سويسرا ، وأكرم وفادة السفير العثماني بمبالغته في الاحتفاء باستقباله ، وأعلن تخليته اللويزيانا للولايات المتحدة الاميركية في مقابل ستين مليوناً من الفرنسكات تدفعها هذه الاخيرة للحكومة الفرنسية بمشابة تعويض .

وكان الشغل الشاغل لأفكار القنصل الاول حربه مع بريطانيا العظمى ، فكان ينوي غزو تلك البلاد ، وقد قال فيما بعد « اذا كان القوم في باريس قد ضحكوا من مقاصدي الكبيرة من هذه الجهة فان بت لم يضحك منها في لندرة »

وربح بونايرت باريس في أوائل شهر نوفمبر ، فجول على الشواطىء متفقداً بذاته اجراء الاعمال الجسيمة التي كان قد أمر باجرائها لادراك الغاية التي كان يجري اليها ، وشهد معركة حدثت في بولون بين فصيلة من الاسطول البريطاني

والاسيطليل الفرنسي . ولما عاد بونايرت الى باريس وجد رسالة كان جورج الثالث ملك بريطانيا قد وجهها الى البارلمان الفرنسي وكان من جملة ما ورد فيها انه يتبها للزحف في مقدمة جيشه ، وأن فرنسا تتمرس بالدستور البريطاني ودين الامة البريطانية واستقلالها ، وأنها لا تحجي من عملها بعد اتخاذ التدابير التي عقد عروة العزم على اتخاذها سوى ثمار الخيبة والخذلان والانحدار المرة الطعم

فاستشاط بونايرت غضباً عند تلاوة الرسالة وبادر الى نشر المقالة الآتية في المونيطور

« أو مثل ملك بريطانيا زعيم أمة أصابت السيادة في البحار ومدت لواء سلطتها فوق بلاد الهند يفوه بمثل هذا المقال ؟ أو يجهل الذين يوحون اليه مثل هذا الكلام غير المبني على التروي أن هارلد الناقض اليمين قد زحف أيضاً في مقدمة شعبه ! أو يجهلون أيضاً أن شرف المحترروا يميز السلطة العليا ومطارف الارجوان المرتدي بها الملوك لا تكون سوى حجان واهية في الحين الذي يتنقل فيه الموت بين صفوف جيوش المتحاربين منتظراً اشارة من داهية الحرب أو غفلة منه لينقض على الفريق الذي يختار منه فرائسه ؟ ففي يوم القتال تكون راية المساواة منتشرة فوق الجميع من غير ما تميز

« ان الانتصار والانكسار معقودان بتعود المتحاربين اقتحام غمرات الهيجاء وتفوق المقاتلين في فن الحرب ورباطة جأش القائد ، فالملك الذي بلغ من العمر ثلاثا وستين سنة ، والذي يقود للمرة الاولى جيشه الى ساحة الوعى يكون عند اشتباك الجيشين معرفاً لذويه وسبباً لانتصار أعدائه عليه .

« يتكلم ملك بريطانيا عن كرامة تاجه والمحافظة على الدستور والدين والشرائع والاستقلال ، أولم يضمن صامح أيمان التمتع بجميع هذه الاشياء الثمينة ؟ وأي علاقة لصخور مالطة بدينكم وشرائعكم واستقلالكم ؟ ليس من خصائص العقل البشري معرفة ما تكون العناية الالهية قد قررتها بحكمته العميقة عقاباً لناقضي اليمين ومثيري الشقاق ومسببي الحروب ومقدمي الاعذار الواهية أو الاسباب السرية لنيل مطامع دنيئة ، وسافكي الدماء البشرية من غير ما تميز ولكننا نستطيع أن ننظر بعين الفكر بكل تأكيد الى ما يكون من نتيجة

هذه الخصومة المهمة ونقول انكم لن تستولوا على مالطة ولا لمبدوز وانكم ستوقعون وثيقة صلح لا تكون مؤاتية لكم نظير وثيقة اميان

« الفشل والاندحار والنكبات . . . ان جميع هذا الكلام لا يليق بشعب عظيم وبانسان ذي ذوق سليم . فلو كان ملك بريطانيا قد أصاب انتصارات تعادل ما أصابه الاسكندر وحنيبعل وقيصر لما كان التفوه بمثل هذا الكلام يليق به فالخط في الحروب متعلق بأمر تافه للغاية وعليه لا بد من أن يكون المرء خالياً من العقل حتى يؤكد بأن الجيش الفرنسي الذي لم يتهمه أحد حتى الآن بالجبن لا يلقي في ارض بريطانيا العظمى الا الفشل والاندحار والنكبات . . . »

وكانت الحرب قد جعلت الناس يعتقدون أن بونايرت أكبر قائد ظهر على متن البسيطة ، والحكومة قد جعلت الناس يعتقدون ان فيه دهاء رجال الحكومة . وقد بقي عليه أن يبين للملأ طراً انه من مشاهير الكتاب في ذلك العصر الذي كان للقلم فيه قوة سياسية هائلة أجل ان النشرات التي كان بونايرت ينسج برودها والخطب الرسمية التي كان يخطبها كانت أكبر برهان على قوة طارضته وطلاوة اسلوبه والنسجام عباراته الا أن ذلك الامر لم يكن كافياً لبيان قواه العقلية واتساع مداركه . فقد كان دهاؤه يلهمه بأنه ينبغي له أن يحسن استعمال جميع سلاح ذلك العصر من مثل السيف واللسان والقلم ، والا يدع وسيلة تفوته من الوسائل اللازمة لصاحب السلطة لنيل التفوق في الامة في الداخل والدفاع عن حقوقها في الخارج . وعليه كان للصحافة من هذه الجهة تفوق لا يختلف فيه اثنان ، وكان ذلك يكفي بحيث أن بونايرت مع كونه فاتحاً ومشتراً لم يأنف من أن يضيف الى هذين اللقبين لقب صحافي . وأصبح بونايرت بذلك الامر رجلاً كاملاً في عصره . وبدلاً من أن نعتقد بأن بطل مارنغو خالف الاصول والعادات المرعية بأقباله على مزاولة الكتابة في الجرائد ومعالجة الموضوعات الانتقادية ، نعتقد بأن احترامه لنفسه لم يكن يقل وهو قابض بأنامله على القلم لمناضلة أعداء فرنسا بقوة العقل عن احترامه لنفسه وهو منتفض الحسام في ميدان القتال للزحف الى أعدائه بكتائبه الرجراجة . ولا بد لنا من القول بأن بونايرت أعلن غير مرة انه لو خير بين الصفات المدنية والصفات الحربية لما تردد

طرفة عين عن تفضيل الصفات المدنية . وقد رأيناه في ما مضى من حياته يؤثر في مصر وإيطاليا لقبه « عضو الجمعية العلمية الوطنية » على لقبه « القائد الأكبر » ولا يتوهم أحد أنه متصنع من هذه الجهة ، فقد كان بونابرت عارفاً بالشروط الممكنة من ذلك الحين فصاعداً التقيد بها لتولي حكومة شعب أثارتها الفلسفة مع حكومة لويس الرابع عشر الحربية . وكان يدري أيضاً أن الثورة الفرنسية لم تكن سوى مغالبة العقل للانظمة الاقطاعية التي وضعتها القوة الوحشية . وإذا كانت تلك الثورة قد اضطرت في بعض الاحيان الى الاستئجاد بالقوة الوحشية للذود عن حياضها فإنها لم تفعل ذلك إلا مرغمه على فعله . وعليه كان بونابرت يؤثر خدمتها بسلاحه الطبيعي أي بالمنطق الذي ينير الافكار ويلجها ليتسنى له اخضاعها لسلطة العقل على خدمتها بالجنود الذين يستخدمون في الحروب لسفك الدماء الغزيرة ولا يكون من وراء عملهم هذا إلا اخضاع العقل للقوة الوحشية ، وهذا ما ينجم عنه ما نسميه ضد الثورة . وكان بونابرت في جميع الحروب التي أوقد نيرانها ان جنرالاً وان قنصلاً وان امبراطوراً قد أثبت على مثال ما أثبتته عند نقض وثيقة اميان انه لم يكن يرضى بالحرب الا مكرهاً لدفع الظلامه والاعتداء ، وانه كان يلقي على أعداء فرنسا مسؤولية الشرور المسببة عن الحروب . وكان القنصل الاول وهو يدبج بيراعته السبالة المقالات الانتقادية وينشرها في جريدته الرسمية ردّاً على أقوال الملك جورج المشحونة تصلفاً يعنى بتنظيم الشؤون الداخلية في الجمهورية . وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٠٣ عقد المجلس واستصدر منه قراراً بادخال التغيير على نظام المجلس الاشتراعي الذي فتح في ٦ يناير سنة ١٨٠٤ وجعل الميسو دي فونتان رئيساً له . وكان بونابرت بتفضيله الميسو دي فونتان على المرشحين الآخرين مع معرفته بأن له علاقة بحزب الملكية يعمل لتعزيز طريقة التوفيق بين الاحزاب التي كان يأمل منها مساعدته على ضم أعداء الديموقراطية المعتدلين الى أنصارها المتطرفين ، أي أولئك الذين نظروا الى الثورة بعقل النفور والاستيحاء وأولئك الذين غرروا بنفوسهم وقذفوها الى خدمتها . فان فونتان وفوشه كانا زعيمين لجميع الذين تدفعهم الحكمة والمطامع والتبرم من الماضي والارتياح في المستقبل الى التوفيق بين الاحزاب واعادة السكينة والراحة الى نصابهما .

وفي جلسة ١٦ يناير بسطت لدى المجلس الاشتراعي حالة الجمهورية ، فكانت صورة جميلة مثلت فيها جميع أسباب النجاح والعمرات التي أصابها الامة الفرنسية . ورأس الميسودي فوتتان وفداً رفع الى القنصل الاول تهاني المجلس المشار اليه . وهذه خلاصة الخطاب الذي خطبه بين يديه .

« ان المجلس الاشتراعي يحضرك الشكر باسم الشعب الفرنسي على ما أتيت به من الاعمال الزراعية والصناعية التي لم تحمل الحروب دون اتمامها . وقد جرت العادة أن الافكار العظيمة كثيراً ما تجعل أصحاب العقول السامية يهملون مزاوله تفصيل الادارة ، بيد أن الاجيال الآتية لا يمكنها أن تنحني عليك باللائمة من هذه الجهة ، فأفكار حكومتك وأعمالها تجري متحدة في كل مكان .

« كل شيء يجري على غاية الكمال . فالبغض خمدت نيرانه ، والمعاكسات تقلص ظلها ، وقد شاهدنا المذاهب والاشياء والرجال على اختلاف المشارب والاهواء تتقارب وتمازج بقوة الدهاء المتسلط على كل شيء عاملة على خدمة الوطن واعلاء مناره فاتفقت العادات القديمة والعادات الجديدة ، ومهدت جميع السبل للمحافظة على المساواة في الحقوق المدنية والحقوق السياسية ، واستعيدت جميع الاسباب الآيلة لزيادة بهاء وعظمة سلطنة كبيرة . وهذه المآثر يا حضرة القنصل الاول ثمرة عمل أربع سنوات . فجميع أشعة المجد الوطني التي باخت من خمس سنوات استعادت بهاء لم تكن قد أصابته قبلك . »

وكان اعجاب القوم طراً بأعمال بونايرت ورضاء فرنسا جميعاً بإنشاء القنصلية مدى الحياة هادمين لصروح آمال أصحاب الاحزاب وسببين لتربصهم وابقاء مقاصدهم محجوبة وراء ستار السكتان . الا أن الاحزاب التي كانت لها مدأ تسعى لتعززه لم تكن النكبات لتخفي عليها أو تبلغ منها ولو غيرت الأيام . ح ذلك المبدأ ولم تبق منه سوى الوهم . وعليه كان في وسع جماعة الملكيين أن تخضع لقوة الاقدار ولدهاء الظافر المنصور ولحظ بونايرت وتذعن لرؤيتها مشيئة الله وأصبح العناية في الحوادث العجيبة القسامة كحاجز حصين بين فرنسا والبوربون مما يعز على هؤلاء الاخيرين اجتيازها فيما بعد . فهذه كانت العواطف السائدة في ذلك العصر بين ظهري أمة كانت فيما مضى معتصمة بأهداب الاخلاص للمبادئ الملكية على أن زعماء الاحزاب ولا سيما أولئك

الذين ظلوا في المهجر ثابروا على اضرار لظى بغضائهم وتدمير دسائسهم لمناهضة مبادئ الحكومة الجديدة. وقد كانوا واثقين بنيل ميل جميع الحكومات الاوربية اليهم ومناصرتهم السرية لهم وكادت هذه المناصرة تصبح جهارية بحسب مقتضيات الاحوال وبعد ما تقضت بريطانيا وثيقة صلح اميان جاهرت بعضهم

وظهر لهم في هذه الحال أن استمرار السكينة الداخلية بتعويد الشعوب الغربية المعيشة في ظلال تلك الخلة يزيد في اقامة المصاعب في وجه محاولة ائارة فتنة جديدة ، وكانت الحال أيضاً تقتضي الاسراع بالهجوم على القنصل قبل اشتداد ساعده وتوطيد أركان سيادته . فحينئذ دبرت مكيدة للايقاع ببونابرت وزعزعة دعائم حكومته . وانتشر مدبرو الدسياسة من ضفاف الرين الى ضفاف التاميز تظلمهم حماية الحكومة البريطانية ، وكان يبشغروا أكثرهم تطرفاً وقد حذا جورج نادودال المشهور . وكان مورو الذي كسف بدر مجد أسرة هوملاندن وقد وقف على سر المكيدة وسربها وشجعهم على ابرازها الى حيز العمل . ولما انتهى الى بونابرت عمل مورو هذا صاح قائلاً .

« أو مثل مورو يتنذف بنفسه الى مثل هذا المأزق الحرج ؟ أو مثل هذا الرجل الوحيد الذي يقذف القلق على خاطري والذي يستطيع دون سواء أن يطعم بنيل التفوق علي ينرر بنفسه على هذا الشكل الدال على الحماقة ؟ اني وأيم الحق ميمون الطالع . . . »

ولما انفضح أمر المكيدة بادرت الحكومة الى اعلانها في جميع أوربا متسببة بجميع أسباب الاذاعة التي لديها . وجاء جميع رجال الحكومة وأظهروا للقنصل الاول استيائهم من ذلك الامر الفظيع ، وحققوا له أنهم سيعضدونه لاجراء كل ما يؤول الى منع تكرار مثل هذا الحادث فأجابهم بونابرت بما يلي :

« منذ اليوم الذي بلغت فيه أوج الساطة دبرت مكاييد عديدة لاغتيالتي .

ولما كنت قد ترعرعت في ساحة الهيحاء لم أعبأ قط بالمتالف التي لم تكن تلقي أدنى رعب في فؤادي . ولا يسعني أن أنبذ عاطفة القلق الشديد حين أفكر بالحالة التي أوشتك الشعب العظيم أن ينتهي اليها لو نجحت الدسياسة الاغبرة ، فأصحابها قد دبروا بنوع خاص لمناوأة مجد الشعب الفرنسي وحرية وجنله

« وقد نبذت من عهد طويل ملاذ الحياة الفردية ، فاستعملت جميع وقتي وجميع حياتي للنهوض بأعباء ما يقضي عليّ حفظ الشعب الفرنسي بالنهوض بها

» فلتحفظ السماء فرنسا ، ولتجبط مكاييد الاشرار ! ومن المقضي على الوطنيين ألا يدعوا المخاوف تبلغ منهم . وسأظل جياً مادامت حياتي ضرورية للامة . وكل ما أريد أن يعلمه الشعب الفرنسي هو أن وجودي بغير ثقته وبغير محبته خال من الهناء وليس له غاية مقررّة »

ان بونابرت باظهاره أن مقاومي الثورة أصابوا النجاح بتدبيرهم المكيدة لاغتياله وبتعليقه على وجوده الشخصي مجد الشعب الفرنسي وحرية وحظه كان يشير الى أن السلطة التي منحه اياها الشعب مدى حياته لم تكن كافية لضمان مستقبل البلاد . وكان يفكر في وضع طريقة جديدة يستعان بها بعده على الدفاع عن المصالح الجديدة وعن قريب سيعلم هذا الفكر ويوضع موضع الاجراء .

وكان من جملة المهاجرين المستعدين لاجتياز الترخوم لدن أول اشارة من المتآمرين الدوق دنغان وهو اخر فرد من سلالة كنده الكبير فأمر القنصل الاول بالقضاء القبض عليه في بلاد بادن وسوقه الى فنسن حيث حكم عليه بالموت ونصب هدفا للرصاص بسرعة غريبة . وكان اجراء الحكم على الصورة التي أجري فيها معتبراً بمثابة جريمة قتل ارتكبها بونابرت . وقد علقت من جرائمه وصمة عار باسمه لا تمحوها يد الدهر . فاذا لم يشهر ذلك الامير الشاب الحامل اسما من أعظم الاسماء في فرنسا القديمة حرباً على الافكار والانظمة المخالفة لمبادئه الاجرياً على طريقة آبائه ببسالة تضارع بسالة الابطال الشجعان بحسب قوانين الشرف وحقوق الامم ، كان القضاء القبض عليه وصرم جبال حياته ضرباً من ضروب السياسة التي كانت تستخدم الارهاب والنطع سلاحاً للحرب . ومن ثم يكون بونابرت المائل لدى محكمة التاريخ من جراء التهمة الموجهة اليه من هذه الجهة قادراً على التملص منها بمجمله مصالحة مرتبطة كل الارتباط بمصلحة الامن العام والضرورة التي لا يلتقي له بداً عنها لضربه تلك الضربة القاضية ولكن اذا لم يكن الدوق دنغان قد اقتصر على مناهضة الجمهورية كجندي ،

وارتضى بمخالفة أشخاص لا يحجمون عن الفتك بالقنصل الاول ليتسنى لهم هدم
الانظمة الجديدة واستعباد البلاد ، فلا يكون ذلك الشاب معتبراً سليلاً لبطل
ركروى بل يعد قريناً لجورج وبيشغرو

وقال نابوليون في وصيته . « ألقيت القبض على الدوق دنغان واستصدرت
الحكم عليه بالموت لان ذلك كان ضرورياً لامن الشعب الفرنسي ومصالحته
وشرفه . وهب كان الكونت درتوي يتولى مختاراً العلاقات بستين سفاحاً في باريس
في مثل هذه الحال لكنك عاملته بهذه المعاملة عينها » . وقال في موضع آخر .
« لو لم تكن شرائع البلاد موالية لي على الدوق دنغان لبعيت لي حقوق الناموس
الطبيعي وهي حقوق الدفاع الشرعي . فلم يكن همه وهم ذويه في كل يوم الا
نزع الحياة مني . وكانوا في كل يوم يهاجموني ابتغاء اغتيالني ببنادق هوائية
والآلات جهنمية ومكاييد ودسائس مختلفة . فتهربت من هذه الحال واستغنمت
الفرصة لقذف الذعر عليهم حتى في لندرة نفسها وقد أدركت غايتي . . . فمن
يستطيع انكار هذا الامر علي ؟ فالدّم يطلب الدّم . ويكون مغفلاً أو خالياً من
الشعور كل من يعتقد انه لا يحق لي أن أقابل بالمثل اسرة تعالج في كل يوم
الايثاع بي . . . وأنا لم آت شيئاً منكراً بحق أحد من أفرادها . فالأمة العظيمة
ألقت الي بمقاليد السيادة عليها ، واستصوب رأيها جميع أوربا على التقريب ،
وفضلاً عن ذلك تساوي قيمة دمي قيمة دمهم . »

أجل ان دم ذلك الرجل العظيم الذي كانت أوربا معجبة به كل الاعجاب .
وكانت فرنسا معلقة عليه كل هوائها وراحتها لم تكن قيمته الحقيقية تقل عن
قيمة دم الأمراء الذين كانوا يحاولون القاء البلابل والقلاقل في فرنسا وأوربا
طمعاً باستعادة سلطة انتزعتها منهم العناية بصوت الشعب وأسندتها الى ربيب
الدناء وحليف الحنكة . ومن لا يعلم ان دم الأبطال الذين لا يظلمهم شرف الاصل
والفصل لا قيمة له للسلاسل الملكية والارستقراطيين الملتفين حولها ؟ ومن
لا يعلم ان الأشخاص أنفسهم الذين يظهرون ان قلوبهم ترق وان صدورهم تضيق
عند رؤيتهم أبناء الشرف التقليد يسقطون عن منصات مجدهم ، ويهوون أمام
الارتجاع السياسي يرقصون فيما بعد على مثال البربر في جوار النطع حين تصيب
القذيفة القاتلة أولئك الأبناء ذواتهم ؟ اسألوا شعب ذلك المارشال المنكود

الطالع الذي لم يكن سليل الابطال بل بطل الابطال ، ولم يلمطخ هذا اللقب بالوصحة التي يجرها اليه اشتراكه مع السفاحين الاوغاد والقتلة الاوشاب وحين يكون المرء من الالى تهب في صدورهم نسائم عواطف الانسانية والمروءة يشعر بما يلم بغيره من الالم والعذاب فيعطف ذارفاً العبرات على المهج الشريفه التي تبذل والدماء الكريمة التي تراق في أثناء اضطرام نيران الفتن وانفتاح أبواب الثورات من غير تمييز بين الاحزاب وحين يكون الفرنسي فرنسويًا قلبًا وقلبًا يكون شديد الاستمساك بفرز شرف بلاده وكثير الحرص على كرامتها ومجدها ، ويكتئب مترديًا بملابس الحداد حين يلقى ذاته متمرسًا بالاسباب السياسية ، ولا سيما حين لا تكون هذه الاسباب مستطبعة أن تحترم الشهرة البعيدة التي أصيبت في أوسترليتز ومارنغو ، كما كانت تدون في سجلاتها الدموية الاسماء التي نالت الشهرة في فمتنوى وركروى .

وزعم بعضهم أن بونايرت كان مدفوعاً الى القضاء على الدوق دنغان بداعي الرغبة والضرورة ليضمن عدم رجوع سلالة البوربون لغلاة اليعقوبيين الملتفين حوله والممهدين في وجهه سبيل الوصول الى العرش . على أن هذا الزعم الذي كذبه تصرف بونايرت وأنكرته أقواله لم يكن عليه غبار من الصحة ، هذا مع صرفنا النظر عن اطلاق القنابل في سان روكز وابعاد الكليشين . فقد كان تمت عقبات يصعب تمهيدها ومصاعب يعز تذليلها تفوق ذكرى ١٣ فنديميار و ١٨ فركتيدور تحول بين القنصل الاول والحزب الملكي وتجعل التقريب بينهما مستحيلا . وكان غيره قد اشتدت العلائق بينه وبين السلالة المالكة القديمة أكثر من اشتدادها بينه وبينها كفوشه وتاليران ومن جرى مجراها . ومع ذلك لم يمنعها ذلك الامر عن الانتظام فيما بعد في سلك الحكومة عند عودة الملك لويس الثامن عشر الى فرنسا وجلسه على سرير المملكة . ومما يبين تفاهة الضمان العظيم الذي يزعمون أنهم طلبوه منه ويظهر بكل جلاء عدم فائدته هو انه أفصح عما كان يبتغيه وعما كان يستطيعه وكان الجميع يدرون أن اتفاق بونايرت مع البوربون يقضي عليه بأن يغير فجأة طبيعته ويهجر الحظ المكتوب له وينسى موقفه ويذهل عن موقف فرنسا وينبذ في وقت واحد ماضيه ومستقبله ، وقصارى الكلام أن يظل محافظاً على كرامة ذاته وقال نابوليون

وهو في جزيرة القديسة هيلانة . « لم أفكر قط بالامراء وهب كنت ميالا الى مناصرتهم فان اجراء هذا الامر لم يكن في ذرعي . وما عدا ذلك استفاض بين الناس اني اقترحت عليهم أن يتنازلوا عن حقوقهم كما أذيع في أوروبا ، مع أن هذا الامر لم يقع قط . وكيف يمكن أن يقع ، مثل هذا الامر ؟ فأنا لا أستطيع التربع في منصة الملك إلا باستنادي الى المبدأ القاضي بإبغادهم وهو مبدأ السياسة الشعبية الذي جال ولا مرأ في ذلك العهد في أذهان الاشخاص الراجحي الحصة الواسعي المدارك الذين لم يكونوا يهتموني بالحماقة ولا بالبلاهة . »

إلا أن المتآمرين الذين بغوا ترميم ما تداعى من عرش البوردبون بفتكهم بالقنصل الاول ، كانوا والحق يقال من أكبر المساعدين على ارجاع الملكية ، وإنما لم تأت الفتنة مؤاتية لمصلحة الشخص الذي كانوا يطمعون باجلاسه على عرش المملكة ، وقد شاهدوا من خصاص أبواب سجنهم أنهم ضفروا اكليلا للشخص الذي توخوا الايقاع به .



جدول أسماء الاعلام في الجزء الاول

لما كانت ترجمة بعض أسماء الاعلام من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية تبعث في بعض الاحيان على الابهام والالتباس رأينا أن نضع جدولاً لأسماء الاعلام التي يحتوي عليها تاريخ نابوليون الاول وقد اتبعنا الترتيب فيها بحسب الحروف الهجائية العربية

— | —

Atlantique	أطلسي	Les Apennins	الابنين
L'Atlas	الاطلس	Apollon du Bel-védère	ابولون بلفيدير
Platon	افلاطون	Etrurie	أتورديا
Avignon	افينيون	Attique	الاتيكا
Clément	اكليمندوس	Attila	أتيللا
Albenga	البنفا	Athènes	أثينا
Albitte	ألبيت	Ajaccio	أجاكسيو
Les Pyramides	الاهرام	Ton Achille	أخيلك
Alfred	الفرد	Adige	أديج
Alexandre	الاسكندر	Arras	اراس
Cisalpine	ماوراء الالب	L'Aristocratie	الارسطقراطية
Les Grecs	الاغارقة	Aristote	أرسطو
L'Escout	الاسكو	Arcole	أركول
L'Académie	الاكاديمية	Irlande	ارلندة
Les Alpes	الالب	Armand Carrel	أرمان كارل
L'Ilyade	الالياذة	Arena	أرينا
L'Isonzo	الايوزو	La mythologie	أساطير الأولين
Elleviou	اليفيو	Ascagne	اسكانية
Amiens	اميان	Isnard	اسنار

Aoste	أوستي	Andréossy	اندريوسي
Ossian	أوسيان	Anghiary	انغياري
Auguste César	اوغسطس قيصر	Aubry	أوبري
Augustin	أوغسطينوس	Eugène de Beauharnais	أوجين دي بوهارنه
O'Méara	أوميرا	Augereau	أوجرو
Aune	أون	Orléans	أورليان
Olmütz	أولمتز	Osopo	أوزوبو
Oneille	أونايل	Oriani	أورياني
Jérôme	أيرونيوس	Ansterlitz	أوسترلتز

— ب —

Périclès	بريكلس	Barras	باراس
Les Parthies	البريتون	Bard	بارد
Les Pyrénées	البرنات	Baraguay d'Hilliers	باراغواي ديليه
Brienne	بريان	Parme	بارما
Berton	برتون	Bassano	باسانو
La Provence	البرفانس	Basseville	باسفيل
Berlier	برليه	Bâle	بال
La Bocchetta	البختا	Pavie	بافيا
Barthélemy	برتلي	Bacon	باكون
Provera	بروفيرا	Pallas de Velletri	بالاس فليترى
Bavière	بافاريا	Paoli	باولي
Bade	بادن	Bayle	بايل
Pizzighitone	بزنغيتون	Thomas Payne	توما باين
Brescia	بريسيا	Pitt	بت
Borgo Forte	برغوفرتي	Béranger	برانجه

Venise	البندقية	Berthier	برتيه
Benzette	بنزيت	Brumaire	برومار
Bellecour	بلكور	La Brenta	البرنتا
Bender	بندر	L'Adriatique	بحر ادريا
La Belgique	بلجيكا	Bergame	برغام
Panteba	بنتيبا	Brueix	برويكس
Le Panthéon	البنطيون	Les Bourguignon	البرغونيون
Boudet	بوده	Bernadotte	برنادوت
Boileau	بوالو	Birket	البركة
Bourbon	بوربون	Bernard	برنارد
Le Pô	البو	Le Bourbonnais	البربونه
Beaulieu	بوليو	Brunswick	برنسويك
Beaumont	بومون	Prairial	برايرال
Boissy d'Anglas	بواسي دانغلا	Beurnonville	برنونفيل
Le Bosphore	البوسفور	Grande Bretagne	بريطانيا العظمى
Bonaparte	بونابرت	Junius Brutus	يونوس بروتوس
Pontécoulant	بونتيكولان	Saint-Bernard	القديس برنارد
Boulogne	بولون	La Bormida	البرميدا
De Bourienne	دي بوريان	Brune	برون
Byron	بيرون	Burke	برك
Pichegru	بيشغرو	La Bastille	البستيل
Piemontais	البيا منتية	Peschiera	بشيارا
Bicoque	بيكوك	Le Prytanée	البريطانه
Pigeon	بيجون	Balzac	بلزاق
Porto-Legnago	بور توليناغو	Plutarque	بلوطرخوس
Bonifacio	بونيفاسيو	Palma-Nova	بلمانوفا
Bologne	بولونيه	Bellune	بلوني

Bon	بون	Pie V.	بيوس السادس
Péluse	بيلوز	La Piave	البيافي
Bureau de Puzy	بورودي بوزي	Bottot	بوطو
Pise	بيزه	Polybe	بوليبس
Bigonet	بيغونه	Pérée	بيره

- ت -

Le Tagliamento	التغليامنتو	Talleyrand	تاليران
Toussaint Louverture	توسان لوفرتور	La Tamise	التاميز
Thucydide	توسيديد	Transpadane	الترانسبادانية
Les Tuileries	التويلري	Tarquin	توكينوس
Thiers	تيارس	Thermidor	ترميدور
Tite-Live	تيت ليف	Treilhard	تويلهار
Tésin	تيزين	Trente	توتني
Times	التيمس	La Toscane	تسكانيا

- ج -

Genève	جنيف	Gibraltar	جبل طارق
Joux	جو	Jersey	جرسي
Joubert	جوبير	Les Germains	الجرمانيون
Judenberg	جودنبورغ	Germinal	جرمينال
Géorgie	جورجيا	Les Jansénistes	الجنسيزيست
Joséphine	جوزفين	Gènes	جنوى
Junot	جونو	Ginguené	جنگنه

— ح —

Annibal

حنیبال

— د —

Dugommier	دوغومیه	Darius	دارا
Dommartin	دومارتن	Dégo	داغو
Duvivier	دوفیفیه	D'alvinzi	دالفنزی
Domairon	دومارون	Damerville	دامرفیل
Dumerbion	دومربیون	Davidowich	داویداش
Dumolard	دومولار	Dezenzano	دزنزانو
Saint-Domingue	سان دومنک	La Drave	الدراف
Daunou	دونو	Destaing	دستان
D'Artois	درتوی	Destrem	دستریم
Due Castelli	دوی کستلی	Delbrel	دلبرل
Digeon	دیجون	D'Antraigues	دنتراغ
Dijon	دیجون	Dandolo	دندولو
Directoire	دیرکتوار	Le Duc d'Enghien	الدوق دنغان
Desaix	دیزه	Doire	دوار
Descartes	دیکارت	Douai	دوای
Démocratie	دیموکراسیه	Dupuis	دوبوی
Delta	دلتا	Dutheil	دوتایل
		Duroc	دودوق

— ر —

Rampon	رامبون	Rastadt	راستادت
Rey	رای	Racine	راسین

Revel	رينفل	Rahmanieh	الرحمانية
Rivoli	ريفولي	Roër	روار
Ricord	ريكور	Robespierre	روبسبير
Le Rhin	الرين	Robert	روبير
Rhin-et-Moselle	رين وموزل	Rousseau	روسو
Raynal	رينال	Russie	روسيا
Reynier	رينيه	Rochembeau	روشمبو
Regnault de Saint Jean d'Angély	رينيو دي سان جان د'انجلي	Roverbello	روفربلو
Rocroy	روكروى	Roveredo	روفيريدو
Saint-Roch	مار روكز	Romagne	رومانيه
		Réal	ريال
		La Revanche	الريفانش

— ز —

Vénus de Médicis	زهرة مديسيس	Zach	زاخ
		Zayonschek	زايفونشيك

— س —

Septembriseurs	سبتمبريين	Le Sage	الساج
Stagyrite	ستاجيريت	Sambre-et-Meuse	سامبر وموز
Stura	ستورا	Saint-Aubin	سان أوبان
Sidney-Smith	سدني سميث	Saint-Régent	سان ريجان
Serravalle	سرافالي	Saint-Cloud	سان كلود
Sardaigne	سردينيا	Saint-Marco	سان ماركو
Sarka	سركا	Salicetti	ساليستي
Serrurier	سروريه	Saorgio	ساورجيو

Sund	السند	Sésostris	سزوستريس
Sucy	سوسي	Sésia	سزيا
Suez	السويس	Scarpa	سكاربا
La Suisse	سويسرا	Skal	سكال
Siera	السيارا	Scanello	سكانلو
Sieyès	سياس	Cécrops	سكرويس
Saint-Cyr	سان سير	Solferino	سلفرينو
Ceva	سينفا	Sulkowvs ky	سالكوفسكى
Simmering	سيمرنغ	Salmatoris	سالما طوريس
La Seine	السين	Simplon	سمبلون

— ش —

Championnet	شمبيونه	Chabillant	شاريليان
Schorbadgis	الشوربحية	De Chateaubriand	دي شاتوبريان
Ceracchi	شيراخي	Charles Bonaparte	شارل بوناپرت
Schérer	شيرار	Charles le Téméraire	شارل الجريء
Chérasque	شيراسك	Charlemagne	شارلمان
Cicérone	شيشرون	Charlot	شارلوت
Chénier	شينيه	Chabran	شبران
		Champaux	شمبو

— ص —

Saladin	صلاح الدين	Salo	صالو
Sophocle	صوفوكل	Sicile	صقلية

— ط —

Talot	طالوت	Le Tasse	الطاس
Tanaro	طانارو	Tacite	طاسيت

Mont-Sinaï	طورسینا	Tramins	طرامنس
Torre di Garofalo	طوري دي	Tarvis	طرفیس
	غارو فالو	Tortone	طرطون
Turin	طورینو	Tronçon	طرنسون دوکودرای
Tolentino	طولنتینو	Ducoudray	
Toulon	طولون	Turreau	طرو
Thèbes	طیبة	Truguet	طروغه
Thibaudeau	طیبودو	Ténde	طند
Tippo-Saïb	طیبو صایب	Topino Lebrun	طوبینو لبرون
Tyrol	طیرول	Turenne	طوران
		Taurus	طورس

— ع —

L'Ottoman	العثماني	El-Arish	العریش
-----------	----------	----------	--------

— غ —

Gardanne	گردان	Garat	غارات
Gasparin	غسباران	La Guarda	الغاردا
Grosbois	غروبوی	Gavardo	غافاردو
Glagenfurt	غلا جنفرت	Gavi	غافي
Gantheaume	غنتموم	Gallo	غالو
Goëthe	غوטי	La Gaule	فاليا
Governato	غوقرنالو	Les Gaulois	الغالیون
Gohier	غوهمیه	Gradisca	غرادسکا
Guyeux	غوئیو	Grésieux	غرازیو
Guizot	غیزو	Les Gracques	الغراق
Guieux	غیو	Grenville	غرانویل

Voltaire	فلتير	La Favorite	الفافوريت
Floréal	فلوريال	Valence	فالنسة
Fontainebleau	فنتنبلو	Le valais	الفالة
Vendémiaire	فنديمييار	Ferrare	فراري
Vendée	فنده	Franchet d'Es- pèrey	فرانشه دسبره
Vendôme	فندوم	La Fortune	الفرتون
Fontenoy	فنتينوي	Saint-Fargeau	سان فرجو
Vincennes	فنسن	Verdière	فرديار
Fénelon	فنون	Pharsal	فرسال
Vaubois	فوبوي	Versailles	فرسايل
Fugères	فوجيار	Fructidor	فركتيدور
Fouché	فوشه	François de Neufchateau	فرانسوي دي
De Fontanes	دي فوتتان		فوشاتو
Vial	فيال	Francfort	فرانكفورت
Le Vêda	الفيدا	Franklin	فرنكلين
Ver	فير	Frontin	فروتان
Virgile	فيرجيل	Victor	فيكتور
Vérone	فبرونا	Fréjus	فريجوس
Villach	فيلاخ	Victor Hugo	فيكتور هوغو
Vienne	فيينا	Fox	فكس
De Vigny	دي فينيه	Volta	فلتا
Fiorella	فيورلا	Feltre	فلتري
		Les Voltairiens	الفلتاريون

Cyrus	قورش	Ghypre	قبرس
Gosaque	قوزاقية	Carthage	قرطاجة
Cesar	قيصر	Caucase	القوقاس

Clichy	كليشي	Catherine	كاترين
Les Clychiens	الكليشيون	Cadore	كادوري
Klenau	كلينو	Cartaux	كارتو
Cambacèrès	كمباساريس	Carnot	كارنو
Campo-Formio	كمبيو فرميو	Carrère	كارير
Compiègne	كمبيانيه	Cassius	كاسيوس
Condé	كند	Cafarelli Dufalga	كافارلي دوفالجا
Benjamin Constant	بليامين كنستان	Calédonie	كاليدونيا
Convention	كنفنسيون	Camus	كاموس
De Cobentzel	دي كوبنتزل	Carbon	كربون
Corse	كورسيكا	Corvisart	كرفيزار
La Corona	الكورونا	Cromwell	كرومول
Corneille	كورنيل	Croisier	كروازيه
Le Corrège	الكوريج	Carinthie	كرنتي
Quosnadowitch	كوزنادوتش	Candle	كريت
Covolo	كوفولو	Crémone	كريمونا
Du Colombier	دي كولومبييه	Castel-Ceriolo	كستل شريولو
Concordat	كونكورد	Castiglione	كستليونيه
Colli	كولي	Clarke	كلارك
Coni	كوني	Caldero	كلدرو
Les Quakers	الكويكرس	Kellermann	كلرمان
La Chiesa	الكياز	Klinglen	كلنغلن
De Kéralio	دي كيراليو	Kléber	كليبر
		Clausen	كلوزن

Lambrechts	لمبرخت	Laporte	لابورت
Lanjuinais	لنجاوينه	La Tour d'Auvergne	لاتور دوفرنيه
Lenoir-Loroche	لنوارلاروش	Latour-Maubourg	لاتور موبورغ
Le Louvre	اللوفر	Loetitia Ramolino	لا تيسيارامولينو
Lampedouze	لمبدوز	Larrey	لاري
De L'Aiguille	دي لغويل	Lareveillère-Lé-pauz	لاريفليار ليبو
La Louisiane	اللويزيانا	La Sarre	لا سار
Londres	لندرة	De Las Cases	دي لاس كاس
Lusignan	لوزينيان	Lasalle	لا سال
Lorient	لوريان	Lagrange	لاغرانج
Lucrece	لوكريس	Lavallette	لا فاليت
Lucien	لوسيان	La Fayette	لا فاييت
Lonado	لونادو	Lavis	لا فيس
Leclerc	لكارك	Lamartine	لامارتين
Lunéville	لونا فيل	Lamennais	لامنه
Lauriston	لوريستن	Lannes	لان
Louis Blanc	لويس بلان	Lanusse	لانوس
Louis XIV	لويس الرابع عشر	La Fontaine	لا فنتان
Lodi	لودي	Pelet de la Lozère	بيله دي لالوزير
Letourneur	ليتورنور	Laharpe	لا هارب
Legnago	اينياغو	Lebrun	لبرون
Lyon	ليون	Lepelletier	لبلتيه
Ligurienne	ليغورية	Luxembourg	اللكسمبور
Livourne	ليفورنو	La Loire	الوار
Léoben	ليوبن	Lycée	الليسه
Lefèvre	ليففر	Les Légations	الليغاسيون
La Fère	لافير	Lombardie	لمبارديا
		Lenglet	لنغله



— م — General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Organisation Générale de la Bibliothèque d'Alexandrie

Memphis	ممف	Mattei	ماتاي
Montagna	منتانا	De Marbeuf	دي ماربوف
Montesquieu	منتسكيو	Marengo	مارنغو
Montesquiou	منتسكيو	Marius	ماريوس
Montebello	منتبلو	Masséna	ماسينا
De Montalivet	دي منتاليفه	Mackintosh	ما كنتش
Montebaldo	منتيبالدو	Malle	مالطة
Montezemoto	منتيزيموتو	La Malmaison	الماليزون
Montenotte	منتينوت	Mantoue	مانطو
Mondovi	مندوفي	La Hongrie	المجر
Le Mincio	المنشيو	Corps Législatif	مجلس اشتراعي
Mandieh	المهديه	Moka	مخا
Murat	مورات	Madrid	مدريد
Moreau	مورو	Martigny	مرتيني
La Meuse	الموز	Marseille	مرسيليا
Moulins	مولان	Marc	مرقس
Molière	موليار	Marcario	مركاريو
Montaigne	مونتانيه	Merlin	مراين
Le Moniteur	المونيطور	Marmontel	مرمنتل
La Muer	الموه	Marмонт	مرمون
Muireur	مويرور	Mascate	مسقط
Muiron	مويرون	Messidor	مسيدور
Monnier	مونييه	Jupiter	المشتري
Mont-Tonnerre	مون طونير	Macédoine	مقدونية
Mirabeau	ميرابو	Melzi	ملزي
Mélas	ميلاس	Millésimo	مليسيمه

Ménard	مینار	De Maistre	دي ميستر
Michel-Ange	میکال انجلو	Menau	مینو
		Milan	میلانو

— ن —

Noriques	النورية	Naples	ناپولي
Novi	نوفي	Napoléon	ناپوليون
Nice	نيس	De Narbonne Pelez	دي ناربون بيليز
Nivernais	نيفرله	Nantes	نانت
Nivôse	نيفوز	Nelson	نلسن
Newton	نيوتن	Austro-Sarde	النموي السرديني
Saint-Nicaise	القديس نيكاز	Notre-Dame	نوتردام
Meuwmarm	نيومارك	L'Autriche	النمسا

— ه —

Horace	هوراس	Hatri	هاتري
Hortense	هورتنس	Harrel	هارل
Hoche	هوش	Harold	هارلد
Hugues	هوغي	Hanovre	هانوفر
Homère	هوميروس	Herdendy	هردندي
Hohenlinden	هوهنلندن	Hercule	هرقل
Geoffroy Saint- Hilaire	جفروي سان ميلار	Hundmark	هندمارك
Hildebrand	هيلدبرندس	Henri Hoine	هنري هيني

— و —

Washington

وشنطون

Wurmser

ورمسر

— ي —

Juliennes

اليوليانية

Jacobins

يعقوبيون

Saint-Julien

القدس يوليانس



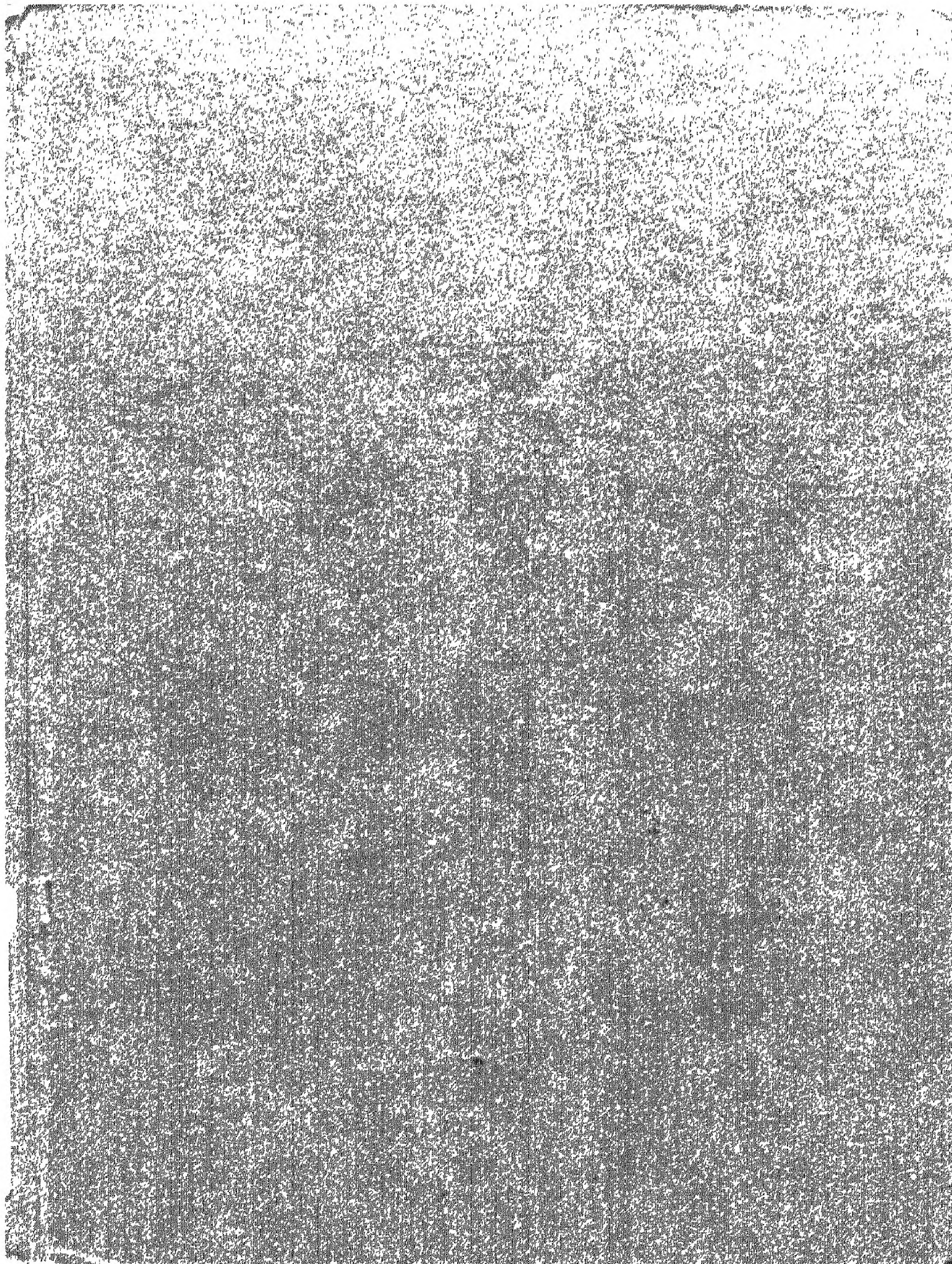
فهرست الجزء الاول

صفحة

١	كلمة المؤلف .
٥	تمهيد .
٩	المقدمة .
١٣	الفصل الاول — في أصل نابوليون وحدائمه .
١٨	الفصل الثاني — من دخول نابوليون بوناپرت الجنديّة حتى حصار طولون .
	الفصل الثالث — حصار طولون وفتحها — ابتداء حروب إيطاليا —
٢٢	العزل .
٢٩	الفصل الرابع — الاستقالة — ١٣ فنديميار — جوزفين — الزواج
٣٤	الفصل الخامس — حرب إيطاليا الاولى .
	الفصل السادس — السفر الى راستادت — العودة الى باريس — السفر الى مصر .
٧٧	
٨٧	الفصل السابع — فتح مصر .
	الفصل الثامن — نكبة أبي قير — انشاءات بوناپرت في مصر — حرب سورية — الرجوع الى مصر — معركة أبي قير —
٩٩	العودة الى فرنسا .
١١٢	الفصل التاسع — العودة الى فرنسا — ١٨ برومير .
١٢٤	الفصل العاشر — انشاء الحكومة القنصلية .
	الفصل الحادي عشر — في نقل مركز القنصلية الى التويلري — حرب إيطاليا الجديدة — معركة مارنغو .
١٣٨	
	الفصل الثاني عشر — انشاء مجلس شورى الدولة — مؤتمر لوناڤيل — عيد تأسيس الجمهورية — الدسياسة الجمهورية —
١٥٠	المكيدة الملكية — الاداة الجهنمية .
	الفصل الثالث عشر — انشاء محاكم استثنائية — الاشغال العامة — وثيقة

صفحة

- لونا فيل - تقدم العلوم والصناعة - عقد الصلح
مع اسبانيا ونابولي وبارما - عقد وثيقة مع البابا
(كونكردا) - صلح اميان - صلاة الشكر في
نوتردام .
١٥٤
الفصل الرابع عشر - من محالفة اميان (٢٥ مارس سنة ١٨٠٢) حتى
انقطاع علاقات فرنسا مع بريطانيا (٢٢ مايو
سنة ١٨٠٣) .
١٦٣
الفصل الخامس عشر - انقطاع العلاقات بين فرنسا وبريطانيا - رحلة
بونابرت الى بلجيكا وعلى الشواطئ البحرية -
مكيدة بشغزو وجورج - موت الدوق دنفان -
نهاية القنصلية .
١٧٤
جدول أسماء الاعلام التي في الجزء الاول ،
١٨٧



To: www.al-mostafa.com